الدكتور سليمان حريتاني

الجواري والقيان

في المجتمع العربي الاسلامي

الجواري والقيان

- الجواري والقيان
- د. سليمان حريتاني
- الطبعة الأولى 1997
- دار الحصاد للنشر والتوزيع

سورية - دمشق - برامكة

هـ ، فاكس : 2126326

ص. ب : 4490

الدكتور سليمان حريتاني

الجواري والقيان

في المجتمع العربي الاسلامي

الإهداء

الى الرئة الصُنو التي يتنفس بها المجتمع،
عربون جهد متواضع لكسر قيود ذكورية
القيم والمفاهيم في المجتمع.

سليمان

مقدمة

الحديث عن الجواري والقيان يجر إلى مسألتين: مسألة العبودية ومسألة المرأة. وإذا كانت مسألة العبودية التي، على امتداد زمن طويل، طحنت برحاها كلا الجنسين الذكر والانثى، الرجل والمرأة، اذا كانت مسألة العبودية هذه بمعناها التقليدي قد ولّت وصارت من ذكريات التاريخ البشري، فإن مسألة المرأة مازالت حية تتصارع حولها الأفكار والرؤى والتطبيقات وتشكل جدلاً ساخناً بين المثقفين والسياسيين.

ونظراً لما لهاتين المسألتين (العبودية والمرأة) من علاقة بموضوع هذا الكتاب الذي يتناول مرحلة تاريخية مهمة وحيوية في تاريخنا، نظراً لذلك نرى أنه من المفيد ان نتوقف بعض الشيء عند قراءة التاريخ وتسليط الضوء على بعض ما كان يتضمنه. فمرحلتنا الراهنة والتي نتوجس فيها خيفة من كل شيء يُطْرَح تستوجب منا هذا التوقف وازالة مايمكن أن يحدث من التباس. بعضنا يقول اذا كنا اليوم نمر في مرحلة ضعف وشبه انهيار وتهديد بالوجود، فيجب ان نتماسك ونتكئ على جَزْرنا الجميل، على تراثنا المضيء، على تاريخنا الذي يُتباهى به. ومن هنا يرى هذا البعض أن أي تناول لهذا الماضي بالنقد يجيء ليحرمنا من المرتكز الوحيد المتبقي لدينا. ويزيد الطين بلّه أن البعض الآخر، المحبط والضائع بل والفاقد ثقته، ليس بنفسه وحسب بل وحتى بتراثه وجذوره، ويرى تبعاً لذلك ضرورة الانخلاع عن النفس وعن الجذور، ليحوّم في النهاية في الفراغ، البعض الآخر هذا يرى في كل نقد للماضي تأكيداً لمقولته. اذن ما الذي ينبغي علينا أن نفعل حيال ذلك؟ أنستمر في الركون الى النظرة الأحادية الى تاريخنا والمحافظة بالتالي على هذا الجدار الهائل الذي يفصلنا عنه والذي يكاد يشعرنا أن ليس بيننا أي

صلة ومن ثم يحول دون تفعيله بما احتواه من متناقضات ليعطينا خبرة ودرساً في فهم معنى حياتنا الراهنة؟ ثمة شيء مهم يجب الانتباه إليه بقوة، ألا وهو المقياس أو أداة القياس للحكم على مجتمع ما ومدى قوة تواجده ودوره في الحياة ومن المهم للغاية أن نعلم أن أداة القياس ليست هي واحدة في كل العصور وأنه لا يصح بأي شكل من الأشكال أن نستخدم أدوات قياس العصور الراهنة لنقيس بها العصور القديمة والعكس صحيح تماماً فاداة قياس العصور القديمة لاتصلح قطعاً لعصرنا. المفاهيم والافكار تتغير وتتجدد وبالتالي يتبعها تغيُّر في القيم والاعراف و... وحتى في الأخلاق وقد أدرك ذلك مفكرونا في الماضي، فعلي ابن أبي طالب يقول: **«لاتقسروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم».**

ان لكل زمان اشكالاته وهمومه بل ونجاحاته. ونجاح أي أمة وعظمتها يتعلق بمدى ما تنجز فإن تخطت انجازاتُها اخفاقاتِها ضمنت لنفسها موقعاً تحت الشمس. ولا نظن بل نعتقد أن ليس من أمة على وجه الأرض كانت خلواً من الاخفاقات والعثرات. من هنا يجيء إلقاء نظرة عجلى وموجزة على بعض جوانب مسألتيْ العبودية والمرأة اللتان يتعرض لهما هذا الكتاب وإجراء مقارنة تاريخية بين هذه الجوانب عندنا وعند شعوب أخرى ليُظْهِر، بالمقاييس الدارجة لتلك الأزمنة (القديمة)، أنَّ الشعوب والأمم التي تُعَدّ اليوم متفوقة وتفرض وجودها بقوة، لم تكن في ماضيها أفضل من ماضينا، بل لا نبالغ اذا قلنا انها في أماكن وأوقات كثيرة كانت أدنى مرتبة وأن قوتها اليوم لاتعود الى ذلك الماضي مثلما لا يعود ضعفنا اليوم الى الماضي. ثمة اذن أمر آخر. انهم أعادوا دراسة ماضيهم ونبشوا كل ما فيه ولم يتهيبوا من ذلك فأخذوا ما يفيد راهنهم وأبعدوا ما كان عامل إخفاق، اعادوا انتاج هويتهم من جديد بما يتلاءم مع عصرهم. وضعوا قيماً لحاضرهم، مفاهيم ونظم، معايير جديدة وحددوا بدرجة كبيرة تلك المفاهيم والقيم والمسؤولية والالتزام لأفراد المجتمع. في حين أنّا مازلنا الى الآن نحمل هوية الماضي التي تتضمن علامات فارقة لكن في مسار حياتنا الفعلية قلما نمتلك منها شيئاً وكذلك قلّما بل لانبالغ ان قلنا أننا لانملك جديداً بالمرة من عندنا فأصبحنا مُضَيَّعين بين هوية الماضي والهوية التي تفرض علينا من خارجنا.

ولنجرِ الآن جردة سريعة حول العبودية والمرأة عبر التاريخ تتيح لنا اجراء مقارنة موجزة

بين موقع كل أمة وشعب ازاءهما في الماضي وتحديداً عند تلك الشعوب التي ينظر اليها اليوم على أنها السيدة.

في المرحلة الاغريقية بل وفي قمة الفكر الذي مايزال الى اليوم ينظر إليه كمنارة مميزة في التاريخ الانساني، ونعني بذلك المدرسة السقراطية وماتلاها، في هذه المرحلة بالذات كان فلاسفة المدرسة السقراطية هم المنظرون الحقيقيون لـ «**للانسان الماشية، الانسان المال، أو الانسان القطيع**» وان نفعه هو عين نفع حيوان القوة وصيانته تتطلب العناية نفسها[1]... وأنه ما من مجتمع صحيح ودائم يمكنه الاستغناء عن العبيد، اذ لابد من تحرير المواطنين من الأعباء المنزلية والأعمال المجهدة التي من شأنها ان تمنعهم من صرف قواهم وذكائهم على مدينة زمنهم[2]. فالعبيد عند فلاسفة السقراطيين كما هو واضح هنا ليسوا مواطنين، انهم عبيد المواطنين. أما ارسطو المعلم الأول فيقول:

> «ان نفع الحيوانات الخاصة ونفع العبيد واحد تقريباً: هؤلاء وأولئك يساعدوننا بنجدة قوتهم الجسمية على تلبية حاجات الوجود... هكذا فالحرب هي نوعاً ما وسيلة طبيعية مادامت تشمل هذا الصيد الذي تُطارد به الحيوانات البرية والعبيد الذين، وقد ولدوا ليطيعوا، يرفضون الخضوع[3]...
>
> (كتاب السياسة).

كذلك قدم ارسطو وكزينوفون ضمن بحوثهما في الاقتصاد كيفية ضبط فن اختيار العبيد وأن على هؤلاء انتظار ثلاثة أمور من أسيادهم: الشغل، الطعام، التوبيخات. وبعد ما يقرب من ألفي عام من ذلك أي في القرن السابع عشر القريب جداً من عصرنا ردَّد أنطونيل أن المغرسة البرازيلية تحتاج إلى ثلاثة أمور أيضاً: الكرباج، الخبز، قطعة القماش[4].

---

(١) انظر كتاب العبودية لموريس لانجليه ترجمة الياس مرقص اصدار دار الحصاد ص٦٦

(٢) ـ انظر المصدر السابق ص٧٧

(٣) ـ انظر المصدر السابق ص ٧٨

(٤) ـ انظر المصدر السابق ص٧٨

واذا ما أردنا أن ننظر بمنظار عصرنا الراهن الى ماكان يقوله سقراط العظيم، سقراط فيلسوف الانسانية، فسنصاب عندها بخيبة أمل بل بالمرارة والحزن. واذا نحينا جانباً مهمة القياس فسنجد أنفسنا أمام مايشبه الفكاهة. فسقراط كان يسخر من أولئك الرجال الذين «يهرعون إلى الطبيب والأدوية من أجل العبيد بينما يتركون الاصدقاء، وحين يموت عبد يبكي السيد ويتأوه؛ أية خسارة اصابته! يموت صديقه يبدو عليه أنه لم يخسر شيئاً» فالعبد أداة يجب الاعتناء بها، العبد «بهيمة» كما يقول ارسطو، ولكن يجب الحذر من اساءة معاملة هذه البهيمة «وذلك لصالحنا أكثر مما لصالحها»(٥).

في روما وامبراطوريتها العظيمة، روما أوربا القديمة، كان يقدر عدد عبيدها المخصصين لاطعام عشرين ألف مواطن روماني بـ ٤٠٠٠٠٠ حسب ما كان يذكر المؤرخ ديمتربوس الفاليري. وتوجب الانتظار حتى أواسط القرن الثاني للميلاد ليصبح اغتيال عبد جريمة.

وأما في امبراطورية روما المسيحية فقد أصبح الرق كما يقول القديس أوغسطين:

«عقاباً مفروضاً بعدل على الخاطئ، فالكائن العاقل المصنوع على صورة الله، المخلوق حراً يجب ان يبقى حراً لكن الخطيئة هي في اصل هذا العقاب الذي يعمل على أن يُقيد الانسانُ الانسانَ في السلاسل ويُقيِّد مصيره بأكمله وهذا لا يحصل الّا بقضاء الله الذي ليس فيه ظلم والذي يعرف ان يقيس العقاب على الاستحقاق».

مجمع غانفر الكنسي في مسيحية الغرب تحديداً اصدر في سنة ٣٢٤ اللعنة على من يحوِّل العبيد عن واجبات عبوديتهم. كما وتوجب الانتظار حتى سنة ٥١٧م لتحظر الكنيسة الغربية، على السيد قتل خادمه بلاحق.

لكن ما الذي فعلته أوربا في عصر النهضة الذي عُدُّ من ألمع عصور التاريخ البشري؟ لقد تبنت الرق برنامجاً. والأوربيون الخائبون الذين لم يجدوا فردوساً أرضياً حوّلوا

---

(٥) لمن يرغب المزيد عن هذا الموضوع ننصح بقراءة كتاب العبودية لموريس لانجليه بجزئيه (تاريخ العبودية وتحليل مؤسسه العبودية) ترجمة وتقديم الياس مرقص.

القارة الجديدة (امريكا) الى جحيم فأبادوا شعبها واقتلعوا شعوب قارة أفريقيا ليستثمروا خيرات القارة الجديدة.

يقول برنارودين دوسان بيار في الرسالة ١٢ من (الرحلة الى جزيرة (إيل - دوفرانس):

«لا أعلم اذا كان البن والسكر ضروريان لسعادة أوروبا لكنني أعلم جيداً ان هذين النباتين صنعا شقاء جزئين من العالم: نزعا سكان أمريكا للاستيلاء على الأرض لغرسهما ونزعا سكان أفريقيا لتأمين أمة لزرعهما».

وقبل اختتام هذه اللمحة الموجزة جداً عن موضوع العبودية نحب أن ننوه إلى أن الأمر الأهم الذي لم نأتِ على ذكره والذي كان يقف وراء كل هذه التعاسات البشرية، بل وراء هذه المسيرة العبدية للبشرية، انما هو عجلة الاقتصاد والانتاج عند جميع الشعوب وهذا أمر يصعب علينا ايضاحه في هذه العجالة. والمؤكد هو أن إلغاء مؤسسة العبودية في العصر الحديث لم يأت بدافع النظرة الانسانية وحقوق الانسان الحديثة وحسب، وانما جاء بعد ظهور أدوات انتاج جديدة ونظام العمل المأجور الذي صار يعطي مردوداً أكثر من استخدام العبيد.

* * *

عندما نأتي على مسألة المرأة نجد أنه منذ ان ساد النظام البطركي خضع شرطها لأمور متشابهة عند معظم الشعوب وتحولت الى ما يشبه البضاعة. فالتقنية القانونية في الزواج الروماني تكاد لا تميز المرأة عن البيع وكانت تعدُّها من جملة الاشياء المملوكة. الوصايا العشر (التورانية) تمنع: «خطف المرأة أو حمار الجيران.» وأما هزيود فيوصي بوجوب الحصول على: بيت وامرأة وبقرة. شرائع (مانو) منعت على المرأة ان تفعل شيئاً حسب ارادتها (حتى في البيت) ولم تتطلب منها شيئاً سوى: البشاشة والعناية بأعمال البيت والصمت). وفي الالياذه: «ايتها المرأة السكوت هو زينة جنسك»: وفي بلاد الفرس كان يمنع على المرأة ان تلفظ اسم زوجها.

وأما أرسطو الذي كان يتمتع بعبقرية بطركية جذرية فقد قدَّم لآباء الكنيسة من بعده الحجج التي كانت تنقصهم في المسيحية لإدانة النساء:

«ان المرأة ليست سوى ذكر عقيم، ذكر ممسوخ، فالذكر وحده من يملك العنصر المولد، وليست النسوية سوى مادة. الذكر إلهي، ومنيُّهُ يحتوي على مبدأ الروح؛ ولأنه لايوجد في مني المرأة روح فهي ذكر غير مفيد ولأنها لاتستطيع ان تحبل لوحدها ينبغي اعتبار طبيعتها ناقصة».

ورغم مساهمة المرأة في مناصرة المسيحية وتجسُّد المنقذ في مريم رغم ذلك فقد حُمِّلت مسؤولية ضياع الجنس البشري كما يقول **ترتوليان** وهو المفهوم الذي ورثته المسيحية عن اليهودية. وتابعت المسيحية تطوير هذا المفهوم وذهبت به بعيداً اذ نُظِر الى المرأة كنوع ضار تماماً بحيث يطلب الى المسيحي دوماً ألّا يتزوج (لاترتبط بامرأة لاتبحث عنها) كما يقول **بولس**. وحسب **كليمنت الاسكندري** (**ينبغي موت كل النساء من الخجل لمجرد فكرة كونهن نساء**). وأنه لكي ينجو المرء من جهنم (التي يُعذب فيها الداعرون والداعرات) فإنه من الخير (**ألا تصغي للمرأة وافضل شيء أن لاتنظر إليها، والشيء الممتاز أكثر هو ألا تلمسها**). وفي رأي فونتين بالنسبة لمن يبتغي الاستمتاع مع زوجته، أن ذلك كمن (**يتغوط في السلة كي يحملها فيما بعد على راسه**)[٦].

وحتى في عهد **نابليون** ظلّت المرأة «شيئاً» كما كان الأمر في روما القديمة. ولم يكن الزواج يتميز عن البيع وكانت المرأة عند زواجها تموت في نظر القانون وتفقد كل هوية قانونية وحتى لايحق لها: لا أداء الشهادة ولا اختيار محل اقامتها. لم يتغير شيء منذ القديس بولس فالنساء يخضعن لأزواجهن «كما هن يخضعن للاله، ذلك لأن الزوج رئيس المرأة، مثلما المسيح رئيس الكنيسة» وأما في قاموس **جان جاك روسو** فان المرأة لاتوجد إلاّ من أجل سيدها. ورغم ان للمرأة رقة وتذوقاً عند **هيغل** إلاّ أنها منقوصة المثل الأعلى. واذ قبل **برودون** ان يمنحها حق التصويت فقد اعطاها أربعة أصوات مقابل تسعة أصوات للرجل.

ولكي تتحرر المرأة تماماً وتتساوى مع الرجل فعلاً توجب ان تصبح أعمال المنزل مشتركة وان تساهم المرأة في الانتاج العام، ذلك ماكان يقوله لينين وهو ماراحت تطبقه مجالس الحكم السوفييتية وتحرر الطلاق والاجهاض ... إلاّ أن ذلك لم يدم بل تمّ

---

٦ ـ كتاب (العشق الجنسي والمقدس) فيليب كامبي، اصدار دار الحصاد ـ دمشق ١٩٩٢

الرجوع بسرعة وشرّعت فلسفة جديدة في الماركسية الستالينية تلاقت بقوة مع الطرق التقليدية في كبح حرية المرأة وأعيد في عام ١٩٣٤ احياء مواد القانون القيصري في مجال المرأة. واذا كانت هذه النبذ عن وضع المرأة والمرأة الحرة تحديداً فإن الحديث عن المرأة العبدة يصبح هو الآخر مجلبة للأسى والحزن والقرف في مفاهيم يومنا.

ليس أن المرأة العبدة خضعت فقط لشروط الرجل العبد التي سبق ان ألمحنا الى بعضها في هذه المقدمة كالبيع والتفريق والكرباج و.... بل زاد في تعاستها أنها استعملت للبغاء قسراً وتعاون في هذا بنات جنسها من النساء السيدات مع المالكين... ووصل الأمر الى حد استخدام الفتيات العبدات بسن العشر سنين من اعمارهن. وَجُعِلَ هذا تجارة لكن أي تجارة!

وحتى اليابان الدولة العملاقة، أنشأت مؤسسة الجيشا التي كانت تجبر الشابة على البقاء في (بيت الشاي) لتتاجر بمفاتنها. في «البيوت الخضراء» الزائعة الصيت التي شهدها أوتامارو مع جدرانها المضاءة وحدائقها الصغيرة الشاعرية في بعض أحياء طوكيو ذات الشهرة العالمية، في البيوت الخضراء هذه، وفي طوكيو هذه التي نراها اليوم واحدة من المدن المدهشة، كانت ولعهد قريب مأساة ومذلة الرق النسائي.

ومرة أخرى لم نأت على ذكر العامل الاقتصادي ودوره في مسألة المرأة كما هو الحال بالنسبة للعبودية، وانما آثرنا إلقاء نظرة سريعة على هاتين المسألتين عند بعض الشعوب في الماضي وبخاصة تلك الشعوب التي هي اليوم تتقدم الصدارة في المسرح الدولي.

لا نظن بعد ذلك أن من حق المحبطين والمتشائمين في مجتمعنا أن ينظروا إلى تاريخهم تلك النظرة البائسة التي تعكس عجزهم. فتاريخنا ليست جوانب السوء فيه أفظع منها عند الآخرين ولا جوانب الخير والجمال أقل منها عند أولئك بل في كثير من الاحيان تسامت على غيرها ولا يضير ان نستشهد بما قالته القسيسة الانكليزية في كتابها «محمد»(*): «على النساء الغربيات اللواتي يهاجمن الاسلام بدعوى أنه ينتقص من مكانة المرأة ان يعلمن أن الاسلام أعطى المرأة حقوقاً ظل الغرب يكافح حتى القرن

(*) النبي محمد (وجهة نظر غربية جديدة في فهم الاسلام). كارين آرمسترونغ، دار الحصاد - دمشق - عام ١٩٩٧ ص : ...

التاسع عشر ليحصل على مثيل لها. وعليهن ان يعلمن أيضاً أن علماء المسيحيين (الغربيين) لاموا الاسلام على ما أعطاه للعبيد وللنساء...»

مع هذا كله لم يُضِرْ الغرب شيء في نبش ماضيه وَوَضْعِه على المشرحة بل لعلّه كان مصيباً في ذلك اذ أعاد بذلك صياغة جغرافية القِيَم الاجتماعية والعلاقات وحدَّدها بأُطرٍ ونُظُمٍ تسد الطريق على المتسلطين وفتح أبواباً واسعة أتاحت وتتيح انطلاقة عقول أفراد المجتمع في كل الاتجاهات: في الأدب والفن، في العلم والاختراع... الى أن وصل حداً خارقاً يجعلنا نلهث في متابعته وسط الدهشة والعجز.

أينبغي حقاً علينا أن نستمر في هذا الخوف بشقيه: الخوف من فتح سفر الماضي وهو الذي يساعدنا في وضع مسارنا اليوم وتحديده عن طريق اعادة تكييف الجوانب المضيئة في ماضينا مع ظروفنا اليوم والتخلص من تلك القيم التي لم تعد لها ظروفها. والخوف من متابعة من يتخطوننا تحت حجة الضياع؟ أيتوجب علينا اليوم أن ننسى كيف أن الغرب كان يسرع في التعرف على علمائنا ومفكرينا في الماضي وملازمتهم كالظل ليستطيعوا (النهوض) وها قد أفلحوا؟

مرة أخرى نقول ان ماضينا كان أناسه من بشر يخطئون ويصيبون مثلهم مثل كل البشر الآخرين في الشعوب الأخرى وأنهم قدموا على مسرح الحياة الشيء الأخاذ والممتع والطريف، وحتى ذلك الذي لايعجبنا اليوم قد نجد فيه جانباً من الطرافة حين نقرأه.

الناشر

تمهيد

ماذا ورث الإسلام عن عرب الجاهلية

قال عبد الملك بن مروان[1]:

«من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية، ومن أراد للولد فليتخذها فارسية ومن أراد للخدمة فليتخذها رومية...»[2]

من المؤكد والثابت أن العرب قد عرفوا في جاهليتهم العبيد والجواري والإماء وتملكوهم عن طريق السبي والأسر. فإذا أغارت قبيلة على أخرى وتغلبت عليها ساقت ماسلبت من أنعامها وأرزاقها، وماأسرت من رجالها ونسائها وأطفالها وتصرفت بهم تصرف المالك بما

(١) ـ عبد الملك بن مروان: الخليفة الأموي الخامس (٦٥ هـ/ ٦٨٥ م ـ ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م). كان يسمى حمامة المسجد لاجتهاده في العبادة. تحدث السيوطي عن فقهه وعلمه ونسكه قبل الخلافة. كما حدثنا عن شدته وبطشه وفرديته بعد أن أفضى الأمر له عندما نقل الينا فقرات من خطابه بالمدينة عام حج سنة خمس وسبعين للهجرة وبعد قتل الزبير فكتب يقول:« فقال بعد حمد الله والثناء عليه: أما بعد فلستُ بالخليفة المستضعف يعني عثمان ـ ولا الخليفة المداهن ـ يعني معاوية ـ ولا الخليفة المأفون يعني يزيد ـ. والله لايأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه ثم نزل». عن تاريخ الخلفاء للسيوطي، الصفحة: ٢٠٣ ومابعدها.

(٢) ـ العقد الفريد: أحمد بن عبد ربه القرطبي الأندلسي، تحقيق محمد سعيد العريان، المجلد السابع الصفحة: ٩٦ .

يملك. كما أنهم تملكوا الإماء والعبيد والقيان[٣] عن طريق الشراء وكذلك عن طريق استيفاء القروض، حيث كانت الأعمال المصرفية تقوم على نطاق واسع في العصر الجاهلي وبشكل خاص في المجتمع المكي وفي يثرب. إذ كان توظيف المال عملية سائدة عن طريق القروض بالفائدة وبضمانات مختلفة كان بعضها يصل إلى درجة رهن الزوجة والأبناء والبنات. وبذلك ينتقلن من الحرية إلى العبودية دون سبي أو أسر.

وكان من حق المرابي أن يقوم بتشغيل الزوجة والبنات كبغايا مأجورات إلى أن يتم تسديد الدين الذي كان يتضاعف بسبب نسبة الفائدة التي تصل في بعض الأحيان إلى مائة في المائة سنوياً[٤].

والجاهلية مرحلة من التاريخ لم يكن العرب قد تلقوا فيها الوحي بعد. وهي مصطلح اسلامي أطلق على المجتمع العربي قبل الاسلام، ويدل دلالة حاصرة على الوثنية والإشراك. وقد دأب عدد من الكتاب المسلمين على وصف تلك الفترة وناسها بالظلامية والجهالة والأضاليل، وهو أمر مُبالغٌ فيه، فآيات الحوار تثبت أن القوم كانوا على قدر وفير من قوة العارضة وتمكن من المحاورة من الناحية البلاغية والمعرفية والثقافية. وأن الإسلام وافق على العديد من الأنظمة السائدة بينهم في شتى المجالات الإجتماعية والاقتصادية والسياسية والحقوقية واللسانية حتى والتعبدية بعد أن طهرها من مظاهر الشرك. مثل فريضة الحج، وشعيرة العمرة، (الرجبية - عمرة شهر رجب)، وتعظيم الكعبة، وتقبيل الحجر الأسود وتقديس شهر رمضان وحرمة الأشهر الحرام (ذو القعدة وذو الحجة، ومحرم)، وحد الزنا والسرقة، وشرب الخمر، والشورى والخلافة والحجاب وغيرها[٥]...

ومن الثابت أيضاً أن أثرياء قريش والمرابين قبل الإسلام كانوا يملكون عدداً من الجواري والقيان اللواتي انصرفن إلى الغناء والعمل في المشارب وبيوت الدعارة بغية التكسب لصالح مالكيهنَّ، والى أعمال أخرى مثل التي قامت بها الجواري فيما بعد في قصور المسلمين.

---

(٣) - القيان: مفردها قينة، وهي في الأصل مؤنث القين، بمعنى الصانع. فالقينة إذاً هي الصانعة أو العاملة، ثم أطلقت على نوع خاص من الإماء هُنَّ الإماء المغنيات. وبذلك أصبحت تعني الجارية المغنية.

(٤) - يمكن الرجوع حول هذا الموضوع إلى سيرة ابن هشام، وأسواق العرب للسيد سعيد الأفغاني، وإلى اليمين واليسار في الإسلام للسيد أحمد عباس صالح وإلى المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي وغيرها من المصادر...

(٥) - يمكن الرجوع حول هذا الموضوع إلى السيد خليل عبد الكريم في مؤلفه القيم الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية. سينا للنشر الطبعة الأولى ١٩٩٠ .

واشتهر في صدر الإسلام العديد من القيان مثل الرباب ورائقة وسلمى وسيرين تلميذة رائقة ومولاة حسان بن ثابت[٦] وهي احدى الجاريتين المصريتين اللتين أهديتا إلى الرسول محمد عليه الصلاة والسلام من قبل المقوقس[٧]. وذكر المقريزي في إمتاع الأسماع أنهنَّ أربع جوارٍ هنَّ: «ماريا التي تسرَّى بها وجاء منها ولده ابراهيم، وأختها سيرين التي وهبها لحسان بن ثابت فولدت له عبد الرحمن بن حسان، ووهب الجارية الثالثة لمحمد بن مسلمة الأنصاري، وقيل بل وهبها لدُحُيه بن خليفة الكلبي، ووهب الرابعة لجهم بن قيس العدوي فهي أم زكريا بن الجهم الذي كان خليفة عمر بن العاص على مصر»[٨].

وكانت سيرين أخت ماريا ماهرة في الغناء، ويقال أن عزة الميلاء[٩] استاذة الغناء الأولى التي درج على أصول مدرستها في هذا الفن من عاصرها ومن جاء بعدها، كانت من اللواتي أخذن الغناء عن سيرين هذه.

---

(٦) ـ حسان بن ثابت: هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الخزرجي من سادة قومه وأشرافهم، وكانت أمه «الفُريعة» خزرجية مثل أبيه. ولد ومات في يثرب. يُعتبر حسان من المعمرين إذ يُقال أنه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام ستين سنة وهي سن تقريبية. عمي في آخر حياته وتوفي سنة ٥٦٣ ميلادية. تردد على بلاط الغساسنة فمدحهم. ويقال أنه مدَّ رحلاته إلى بلاط النعمان بن المنذر أيضاً. كان لسان قومه في حروبهم مع الأوس في الجاهلية. أسلم وغدا من أنصار النبي. هجا قريشاً وشعراءها أثناء النضال بين النبي وقريش حتى لقب بشاعر النبي. له ديوان رواه أبو سعيد السكري عن ابن حبيب.

(٧) ـ المقوقس: هو جريج بن مينا عامل قيصر ملك الروم على مصر والاسكندرية وأعمالهما. أرسل إلى الرسول عام سبع من الهجرة هدية كان فيها إلى جانب الجواري «خصياً مجبوباً يقال له مايور يقال أنه أخو مارية وسيرين يخدمهما ومات بالمدينة. وبغلة شهباء سماها رسول الله صلى الله وعليه وسلم «دلدل» بسرجها ولجامها، وماتت في خلافة معاوية. وحماراً أسماه عليه السلام «يعفور» أشهب، وفرساً سماه عليه السلام «لزاز» وألف مثقال ذهباً، وعشرين ثوباً من قباطي مصر، مع طُرف من طُرفهم. وعسلاً من عسل بنها فأعجبه (فدعا لعسل بنها بالبركة)، وربعة اسكندرانية كان بعد ذلك يجعل فيها جهازه من مكحلة ومشط وماسوى ذلك. أما الثياب فقد بقيت حتى كفن في بعضها صلوات الله عليه». عن الذخائر والتحف للقاضي الرشيد بن الزبير، تحقيق الدكتور محمد حميد الله الصفحة: ٨ ومابعدها.

(٨) ـ كتاب الذخائر والتحف: القاضي الرشيد بن الزبير، تحقيق الدكتور محمد حميد الله، الصفحة: ٧

(٩) ـ عزة الميلاد: مولاة للأنصار وأول مغنية في المدينة. قيل أنها أول من غنى الغناء الموقع من النساء في الحجاز. تُحسن ضرب العود، مطبوعة على الغناء لايعييها أداؤه ولاصنعته ولاتأليفه ←

يُروى عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال[١٠]:

«.. مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم على حسان بن ثابت وهو في ظل فارعٍ[١١] وحوله أصحابه وجاريته سيرين تغنيه بمزهرها:

هـل عـلـيَّ ويـحـكـمـا إن لـهـوتُ مـن حـرج

فضحك النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: لاحرج إن شاء الله».

وكانت أعمال التكسب عن طريق البغاء لصالح المالك أو المرابي تجارة شائعة ومعترفاً بها حتى جاء الإسلام فاتخذ منها موقفاً متشدداً حيث جاء في التنزيل: «... ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههنَّ فإن الله من بعد اكراههن غفورٌ رحيم»[١٢].

كتب ابن كثير في تفسير هذه الآية يقول[١٣]:

«كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزنى وجعل عليها ضريبة يأخذها منها. وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة في شأن عبد الله بن أبي سلول فإنه كان له إماءٌ فكان يكرههنَّ على البغاء طلباً لخراجهن ورغبة في أولادهن حتى يطالب أبائهن بالفدية».

واشتهر في العصر الجاهلي العديد من القيان. وأقدم من عُرف منهنَّ جرادتا[١٤] عاد. ويقال أنهما كانتا أول من جعل الغناء فناً ومرتزقاً وأن اسم إحداهنَّ كان «يعاد» واسم الأخرى

← وتغني غناء القدائم من القيان أمثال سيرين وزينب والرباب وسلمى ورائقة. وسُميت الميلاء لتمايلها في مشيتها. كانت جميلة الوجه والجسم ذات دلال وفتنة. تلقى عنها ابن سريج وابن محرز وطويس.

(١٠) ـ مختار الأغاني: جمال الدين بن منظور المصري الأفريقي، المجلد الثالث الصفحة: ٢١٠ .

(١١) ـ فارع: حصن كان لحسان بن ثابت في المدينة.

(١٢) ـ سورة النور: الآية رقم: ٣٣

(١٣) ـ تفسير القرآن العظيم للإمام الحافظ اسماعيل بن كثير، المجلد الثالث الصفحة: ٢٨٨

(١٤) ـ الجرادة امرأة مغنية. وكانت العرب تسمي كل قينةٍ جرادة حملاً على أن قينة في الدهر الأول كانت تعني الجرادة.

«يماد» وكذلك جرادتا عبد الله بن جدعان[١٥] الذي كان سيداً جواداً من قريش.

كتب عنه صاحب الأغاني يقول[١٦]:

«.. وكانت له مغنيتان هما الجرادتان.. وأن أمية بن ابي الصلت أتاه يوماً فامتدحه بقصيدة جاء فيها

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياءُ؟
فأرضك كل مكرمة بناها بنو تيم وأنت لهم سماءُ
فهل تخفى السماء على بصيرٍ وهل بالشمس طالعة صفاءُ

ورأى ابن جدعان أن امية ينظر إلى الجرادتين بإعجاب وشوق فأهداه واحدة منهما. ولكن قريشاً لاموه على ذلك فرجع يردها إليه ويقول:

عطاؤك زين لامرىء إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزينُ
وليس بشين لامرىء بذلُ وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

فأمر ابن جدعان الجرادتين فغنتا... وما انتهى غناؤهما حتى أهداه الأخرى».

الحنيفية ملة ابراهيم عليه السلام

وهنا لابد لنا من التوقف قليلاً عند أمية بن أبي الصلت لا بصفته كشاعر جاهلي حكيم من أهل الطائف ومن سادات ثقيف وان أباه هو عبد الله بن ابي الصلت، وان أمه هي رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف. ولا لأنه أشعر ثقيف كما قال أبو الفرج[١٧]:

«... اتفقت العرب على أن أشعر أهل المدن اهل يثرب ثم عبد القيس، ثم ثقيف. وأن أشعر ثقيف أمية بن أبي الصلت».

---

(١٥) ـ عبد الله بن جدعان: أحد كبار النخاسين (تجار الرقيق) عمل بتجارة الجواري في الجاهلية وسمى من قبل معاصريه بـ(حاسي الذهب) بسبب ثرائه الواسع وكان على قريش وانعقد في بيته «حلف الفضول» هذا الحلف الذي شارك فيه بنشاط «محمد» قبل دعاوته الدينية. عن مشروع رؤية جديدة للفكر العربي.. الدكتور طيب التيزيني الصفحة: ١٤٦ .

(١٦) ـ الجواري المغنيات: فايد العمروسي، الصفحة: ١٣ نقلاً عن أبي الفرج الأصبهاني.

(١٧) ـ كتاب الأغاني: لأبي الفرج الأصبهاني، المجلد الرابع، الصفحة: ١٢٢

بل لكونه يمثل مرحلة من مراحل الجاهلية سبقت ظهور الإسلام مباشرة، بصفته من أحد أهم رجالات الحنيفية[١٨] التي كان يدين بها وَعُدَّ من كبار أساتذتها والمبشرين بها في الطائف قبل الإسلام وأنه صاحب القول المأثور:

كل دينٍ يوم القيامة عند الإله إلاّ دين الحنيفة زورْ[١٩].

والحنيفية تيار ديني قوي ظهر في الجزيرة والحجاز قبل الإسلام، سمت نفوس رجالاتها وهم من قبائل متفرقة عن عبادة الأصنام، واتفقوا في الدعوة إلى الإصلاح. كما أنهم لم يجنحوا إلى اليهودية أو النصرانية، وقالوا بوحدانية الله وأن الدين عند الله الحنيفية ملة ابراهيم عليه السلام. جاء في التنزيل[٢٠]:

«ماكان ابراهيم يهودياً ولانصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»[٢١].

---

(١٨) ـ الحنيفية: نسبة إلى الأحناف أو الحنفاء. وهم جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ولم تكن من اليهود ولا النصارى، بل نُعتوا بأنهم كانوا على دين ابراهيم ولم يشركوا بربهم أحداً. ويقول علماء اللغة أن الأصل في لفظة حنيف وحنفاء وأحناف فعل حَنَف بمعنى مال. والحنف هو ميل عن الضلال إلى الاستقامة وبالعكس. أما الحنيف فهو الذي يميل إلى الحق أو المستقيم الذي أسلم في أمر الله فلم يلتو في شيء.

وللمستشرقين بحوث في أصلها ومعناها. منهم من يرى أن اللفظة من أصل أرامي، والبعض قال أنها من أصل عبراني، بينما أطلق السريان لفظة حنفه على الصابئة حيث وردت في النصوص العربية الجنوبية بمعنى صبأ أي مال وتأثر بشيء ما.

ومن المعتقد أن لفظة حنيف هي في الأصل بمعنى صابئ أي خارج على ملة قوم تارك لعبادتهم. ويؤيد هذا الرأي ماذهب إليه علماء اللغة عندما قالوا أنها الميل عن الشيء وتركه. ثم صارت علماً على من تنكر لعبادة قومه وخرج على الأصنام. وأن الإسلام أطلقها في بادئ الأمر على نابذي عبادة الأصنام، أولئك الذين دعاهم بأنهم على دين إبراهيم. عن المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: الدكتور جواد علي، المجلد السادس، الفصل الخامس والسبعون، الصفحة: ٤٤٩ ومابعدها.

(١٩) ـ الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، تحقيق وضبط علي محمد البجاوي المجلد الأول، الصفحة: ٢٥١ ، طبعة دار الجيل بيروت لعام ١٩٩٢ .

(٢٠) ـ سورة آل عمران: الآية رقم: ٦٧

(٢١) ـ لقد وردت لفظة حنيفاً في عشر مواضع من القرآن الكريم. البقرة الآية رقم: ١٣٥ . سورة آل عمران: الآية رقم: ٦٧ والآية رقم ٩٥ . سورة النساء: الآية رقم: ١٢٥ . الأنعام: الآية ←

وكان من بين أهم رجالات هذا التيار الديني جد الرسول عبد المطلب بن هاشم، وزيد بن عمرو بن نفيل، وكعب بن لؤي بن غالب (من أجداد النبي أيضاً) وأرباب بن رئاب، وسويد بن عامر المصطلقي، ووكيع بن زهير الإيادي، وخالد بن سنان العبسي، وحنظلة بن صفوان، والملتمس بن أمية الكناني، وعلاّف بن شهاب التميمي، وزهير بن ابي سلمى الشاعر، وسيف بن ذي يزن، وعبيد بن الأبرص... وغيرهم.

وذكر رجال الأخبار أن بين هؤلاء أيضاً من عُدَّ من الأحناف وكان نصرانياً أومات على دين النصرانية. مثل: عدي بن زيد العبادي، وعثمان بن الحويرث الملقب بالبطريق ابن عم ورقة بن نوفل وخديجة بنت خويلد، وقس بن ساعدة الأيادي الذي نسب إلى النبي قوله فيه: «هذا رجل من إياد تحنف في الجاهلية»[٢٢]. وقوله فيه ايضاً: «يحشر أمة وحده»[٢٣]. والراهب بحيرة، وورقة بن نوفل القرشي رئيس كنيسة مكة النصرانية وابن عم خديجة زوج الرسول، وعبيد الله بن جحش بن رئاب الأسدي بن أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي، مات نصرانياً في أرض الحبشة تاركاً امرأته ام حبيبة التي تزوجها الرسول من بعده.

هذا الأمر جعل بعض المستشرقين يعتبرون الحنفاء شيعة من شيع النصرانية كيَّفَت النصرانية بعض التكييف وخلطت فيها بعض التعاليم إضافة إلى ماجاء في بعض الأشعار الجاهلية التي فُسرت على ان المراد بهم شيعة من شيع النصرانية. علماً أن القرآن الكريم قد نص نصاً صريحاً كما رأينا على أن الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولانصارى وأنهم ينتمون في عقيدتهم إلى ابراهيم.

وعلى الرغم من أن الصورة التي رسمها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الحنفاء تخص الناحية الخلقية والسلوكية أكثر فإن الناحية الدينية ظلّت غير واضحة وبقيت غامضة ومطموسة. إلا أن الدكتور جواد علي يشير إلى أهم العلامات الفارقة التي ميزت الحنفاء عن غيرهم وهي: الإختتان، وحج البيت، والاغتسال من الجنابة، واعتزال الأوثان، والامتناع عن أكل الميتة والدم وماذُبح للأصنام، والإيمان بإله واحد بيده الخير والشر وأن

← رقم ٧٩ . والآية رقم: ١٦١ . سورة يونس: الآية رقم: ١٠٥ . سورة النحل الآية رقم: ١٢٠ والآية رقم: ١٢٣ وسورة الروم: الآية رقم: ٣٠ . كما وردت لفظة حنفاء في موضعين: الحج الآية رقم: ٣١ البينة: الآية رقم: ٥ .

(٢٢) ـ الطبقات الكبرى لابن سعد، المجلد الأول، الصفحة ٣١٥ .

(٢٣) ـ كتاب الأغاني، مصدر سابق، المجلد الرابع عشر الصفحة: ٤٠ .

كل مافي الكون محتوم مكتوب[٢٤]. مما يؤكد ماذهبنا إليه من ان الجاهلية ليست جهالة وظلامية واضاليل كما يحلو للبعض فيروج عنها مثل هذه الافتراأت والادعاآت الظالمة.

ويروي صاحب الأغاني عن مصعب بن عثمان قال: «كان أمية بن أبي الصلت قد نظر في الكتب وقرأها، ولبس المسوح تعبداً، وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية، وحرم الخمر وشك في الأوثان والتمس الدين وطمح في النبوة لأنه قرأ في الكتب أن نبياً ينبعث من العرب كان يرجو أن يكونه»[٢٥]. ولكن ماتلك الكتب وماأسماؤها هل هي التوراة والإنجيل؟ ولكن أي تورات وانجيل، هل التي كانت بين أيدي الناس وكان الحنفاء يرون فيها تحريفاً، أم غيرها؟ ثم ماهي كتب ابراهيم، وماهي عبادته؟ أمور حتى الآن المعطيات التاريخية التي بين أيدينا لاتجيب عنها بشكل قاطع وواضح. ومن القصائد المنسوبة لأمية في هذا الدين قوله[٢٦]:

لك الحمدُ والنعماء والملك ربنا ... فلاشيء أعلى منك مجداً وأمجد[٢٧]
مليك على عرش السماء مُهيمنٌ ... لعزَّته تعنو الوجوه وتسجدُ[٢٨]
عليه حجابُ النور والنور حولهُ ... وأنهارُ نورٍ حوله تتوقدُ
ملائكةٌ أقدامهم تحت عرشه ... بكفَّيه لولا الله كلوا وأبلدو[٢٩]
وسبطٌ صفوفٌ ينظرون قضاءهُ ... يصيخون بالأسماع للوحي رُكَّدُ[٣٠]
أمين لوحي القدس جبريل فيهم ... وميكالُ ذو الروح القوي المسدَّدُ[٣١]

---

(٢٤) ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: الدكتور جواد علي، المجلد السادس الصفحة: ٤٥٢ ومابعدها.

(٢٥) ـ كتاب الأغاني: مصدر سابق المجلد الرابع، الصفحة: ١٢٢ .

(٢٦) ـ موسوعة الشعر العربي، الشعر الجاهلي: اختيار وشرح مطاع الصفدي، ايليا حاوي اشراف الدكتور خليل حاوي، تحقيق وتصحيح أحمد قدامة شركة خياط ـ لبنان عام ١٩٧٤ .

(٢٧) ـ يمجد الشاعر عظمة الله ويؤكد وحدانية، فيحمده دون سواه، فهو خالق الحياة ومافيها.

(٢٨) ـ مليك على عرش السماء قوى جبار، يُخرُّ الجبابرة سُجَّداً له.

(٢٩) ـ يقول أقدامهم تحت عرشه، ولولا عناية الإله بهم لهدهم التعب والكلال.

(٣٠) ـ سِبطٌ: صفوف. تراهم صفوفاً أمامه ينظرون إلى قضائه، مصيخين أسماعهم يتلقون وحيه، وهم في ركونٍ وهدوء.

(٣١) ـ جبريل: أحد رؤساء الملائكة. وقد ورد ذكره مراراً في الأسفار الإلهية، وجبريل معرب عن العبرانية معناه فيها: قوة الله. وميكال: أحد رؤساء الملائكة.

وحُرَّاسُ أبواب السماوات دونهم قيام عليها بالمقاليد رُصَّدُ[٣٢]
فسبحان من لايعرف الخلقُ قدره ومن هو فوق العرش فردٌ موحّدُ[٣٣]
ومن لم تنازعه الخلائق ملكهُ وإن لم تفرّده العباد فمفردُ[٣٤]
مليك السماوات الشداد وأرضها وليس لشيءٍ عن قضاه تأوُّدُ[٣٥]
هو الله باري الخلق والخلقُ كلهمُ إماءٌ له طوعاً جميعاً وأعبُدُ
وأنىّ يكون الخلق كالخالقِ الذي يدوم ويبقى، والخليقة تنفدُ[٣٦]
وليس لمخلوق من الدهر جدَّةٌ ومن ذا على مرّ الحوادث يخلُدُ[٣٧]
ونفنى ولايبقى سوى الواحد الذي يُميت ويحي، دائباً ليس يهمدُ[٣٨]
ألست ترى فيما مضى لكَ عبرةً فَمَهْ لاتكن ياقلب أعمى يلدَدُ[٣٩]
فكن خائفاً للموت، والبعث بعده ولاتك ممن غرّهُ اليومُ أو غدُ[٤٠]
فإنك في دنيا غرورٍ لأهلها وفيها عدوٌّ كاشحُ الصدر موقدُ[٤١]

---

(٣٢) ـ ولأبواب السماء حراس يقومون عليها منفذين مايؤمرون به، وهم دون جبرائيل وميكال في المكانة.

(٣٣) ـ يُسبح الشاعر بقدرة الله الخفية التي لاتطولها أيدي خلقه، فهو الواحد الأحد لايشاركه الملك أحد.

(٣٤) ـ سبحان من خلق الأرض والسماء ومافيها دون أن يشاركه أحد في خلقه، لأنه واحد وإن أنكر البعض وحدانيته، فأشركوا به آلهة عبدوها.

(٣٥) ـ التأود: الميل والانعطاف. يقول: الله مليك السموات السبع والأرض وهو فاعل مايشاء، ولاقدرة لأحد على الإنحراف عن قضائه.

(٣٦) ـ الخليقة: الخلق. تنفذ: تنتهي، تزول. ولايقارن الخلق بالخالق. الأول ضعيف زائل، والآخر دائم كليّ القدرة.

(٣٧) ـ يريد أن لكل حيٍّ زمناً يعيشه، ولن يخلد أحد. فليس للمخلوق مايُجَددُ به حياته السائرة به نحو الهرم والموت.

(٣٨) ـ ونفنى ولايبقى سوى الله الذي يُميت ويحي، ويستمر في وجوده حيٌّ خلاق.

(٣٩) ـ مَهْ: اسم فعل بمعنى كفَّ. يلدد: يتحير. يخاطب الشاعر قلبه فيقول: آن لك أن تبتعد عن غيّك وضلالك، ولاتكن كأعمى يسير على غير هدى.

(٤٠) ـ واعمل لآخرتك فقد تموت فجأة. ويوم الحساب تؤخذ كل نفس بما عليها ولاتغرك لذائذ الحياة.

(٤١) ـ حذار من غرور الدنيا ولك فيها شيطان يغريك يبهرجها الزائل.

وعلى الرغم من أن أمية حضر البعثة لم يرض بالدخول في الإسلام لأنه كان يأمل أن تكون له النبوة ويكون مختار الأمة وموحدها. ومات سنة تسع للهجرة بالطائف كافراً بالأوثان والإسلام.

كتب الدكتور جواد علي يقول(٤٢):

«وفي أكثر ماتُسبَ إلى هذا الشاعر من آراء ومعتقدات ووصف ليوم القيامة والجنة والنار تشابه كبير وتطابق في الرأي جملة وتفصيلاً لما ورد عنها في القرآن الكريم، بل نجد في شعر أمية استخداماً لألفاظ وتراكيب واردة في كتاب الله والحديث النبوي، فكيف وقع ذلك؟، أما ماقبل المبعث فلا يمكن بالطبع أن يكون أمية قد اقتبس من القرآن، لأنه لم يكن منزلاً يومئذ. وأما مابعد السنة التاسعة الهجرية فلا يمكن ان يكون قد اقتبس منه أيضاً لأنه لم يكن حياً فلم يشهد بقية الوحي. ولن يكون هذا الفرض مقبولاً معقولاً في هذه الحالة إلاّ إذا اثبتنا بصورة جازمة أن شعر أمية الموافق لمبادىء الإسلام ولما جاء في القرآن قد نظم في هذه المدة المذكورة، أي بين المبعث والسنة التاسعة من الهجرة... ولكن من في إستطاعته تثبيت تواريخ شعر أمية وتعيينه وتعيين أوقات نظمه؟... ولكننا لانستطيع أن نفعل ذلك بالغالبية منه، وهي غالبية لم يتطرق الرواة إلى ذكر المناسبات التي قيلت فيها... ثم إن أحداً من الرواة لم يذكر أن أمية كان ينتحل معاني القرآن الكريم وينسبها إلى نفسه. ولو كان قد فعل لما سكت المسلمون عن ذلك ولكان الرسول اول الفاضحين له».

وعن ربِّ الحنيفية الخلاق قال أمية(٤٣):

الحمدُ لله مُمسانا ومُصبحنا … بالخير صبحنا ربيّ ومسّانا
ربُّ الحنيفة لم تنفد خزائنها … مملوءةً طبق الأفاق سلطانا
ألا نبيٌّ لنا منا فيخبرنا … مابعد غايتنا من رأس محيانا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا … أن سوف يلحقُ أُخرانا بأولانا

ويقال أن النبي: «لما سمع بشعر أمية السابق في الدين والحنيفية ومطلعه:

«الحمدُ لله مُمسانا ومُصبحنا … بالخير صبحنا ربي ومسّانا

قال: إن كاد أمية ليسلم»(٤٤).

---

(٤٢) ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: مصدر سابق، المجلد السادس، الصفحة: ٤٩ ومابعدها

(٤٣) ـ كتاب الأغاني: مصدر سابق، المجلد الرابع، الصفحة: ١٢٩

(٤٤) ـ ديوان المعاني: أبو هلال العسكري، الجزء الأول، الصفحة: ٢٦

وكتب ابن حجر العسقلاني يقول[٤٥]:

«... أخرج عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم، أُنْشِدَ قول أمية:

زُحلٌ وثورٌ تحت رجل يمينه والنسرُ للأخرى وليثٌ مُرصد

فقال: صدق، هكذا صفة حملة العرش».

وكتب صاحب الإصابة أيضاً[٤٦]:

«... ومثل هذا في شعره كثير مثل قوله:

يارب لاتجعلني كافراً أبداً واجعل سريرة قلبي الدهر إيمانا[٤٧]

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: آمن شعره وكفر قلبه».

هذه الروايات إذا صحت تثبت أن الرسول لم يكن يستنكر شعر أمية حين سماعه له، بل كان يمتدحه ويوافق عليه، مثل قوله السابق:

«صدق هكذا صفة حملة العرش».

---

(٤٥) الإصابة في تمييز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، تحقيق وضبط على محمد البجاوي، المجلد الأول، الصفحة: ٢٤٩ طبعة دار الجيل بيروت لعام ١٩٩٢

(٤٦) ـ المصدر السابق، المجلد الأول،الصفحة: ٢٥١

(٤٧) ـ ديوان أمية ابن أبي الصلت، الصفحة: ٦٢ المكتبة الأهلية، طبع عام ١٩٣٤

الفصل الأول

رقيق حرب الفتوح وأثره في بنية المجتمع العربي الإسلامي

موقف الشريعة من الرق

مع انطلاقة الفتوحات العربية الإسلامية التي دكت معاقل الامبرطوريات القديمة وفتحت المدن ومسحت حدود الدول والممالك، رفع الفاتحون العرب المسلمون شعار لاحرب إلاّ ضد الذين يشهرون السلاح ويرفضون الصلح، وشعار لا إكراه في الدّين. وماعدا ذلك فقد أباحوا استرقاق الأسرى من الكفار رجالاً كانوا أم نساءً وأطفالاً، واعتبرت بلاد الشعوب المهزومة في الحرب ـ الأرض ومافيها من كنوز وخيرات وماعليها من سكان ـ بعد أن يدخلها الفاتحون المسلمون عنوة وبدون شروط مسبقة للفتح غنيمة وملكاً للفاتح المنتصر.

وكان الكفر والوقوع في الأسر سببان للإسترقاق، وهذا يعني أن الإسلام وإن لم يشرع الرق إلاّ أنه ظهر في بيئةٍ استقر فيها عرف الإسترقاق فتأثر بهذا العُرف وأباحه، أو أجازه ولم يُحرِّمه. فمن كان عبداً عند اهتدائه أو مولوداً من أبوين عبدين يبقى عبداً لأن اعتناق الدين الإسلامي لايؤدي بالضرورة إلى العتق. وبالمقابل لايجوز استرقاق المسلم لأن المسلم الحر أصلاً لايجوز استعباده.

علماً أن التاريخ الإسلامي قد عرف خروقات لهذه القاعدة فكان يحدث أن تعلن الدولة ذات الصفة الإسلامية عن بعض العصاة المناوئين لسلطتها أنهم غير مسلمين بعد أن تتهمهم بالزندقة ليحلّ لها استرقاقهم واستعبادهم[1].

---

(١) ـ أهل الإسلام: لويس غارديه، ترجمة صلاح الدين برمدا، الصفحة: ١٠٩

لقد عرف الإسلام رقَّ السبي في غارات القبائل، ورقَّ الغزوات والفتوحات. كما عرفت الشريعة الإسلامية رقَّ البيع والشراء الذي هو نتيجة حتمية لرق السبي في المعارك والفتوحات. حيث عُدَّ الرقيق مالاً شأنه شأن المتاع كالآلات الحربية والنقود والخيل وغيرها...

وعرف المسلمون أيضاً رقَّ الاستدانة أو وفاء الديون حتى نزول أيات الربا التي نسخت سنة النبي التي قضت باسترقاق شخصٍ يسمى «سُرَّق» عجز عن الوفاء بدينه لدائنه[٢]. فحرم هذا النوع من الاسترقاق فقط، بينما استمر النوع الأول (رقُّ الغزو والفتوح) ومانجم عنه من رق البيع والشراء حيث كان للرسول وللخلفاء الراشدين والعشرة المبشرين بالجنة وغيرهم من كبار الصحابة والأئمة وعامة المسلمين عبيداً وإماءً حتى ألغي الرقُّ في العصر الحديث بقوانين وضعية دنيوية أو علمانية. وتأخر هذا الإلغاء في بعض الدول الإسلامية الحديثة إلى أواخر العقد السادس من هذا القرن.

ولايعني هذا الإلغاء المتأخر أنه قد تم بفضل قرار من الشريعة الإسلامية، بل كما ذكرنا بفضل قوانين علمانية إنسانية فرضتها ظروف المجتمع الدولي الحديث الذي ألغى الرِّق كنظام. وأصبح من غير المعقول أو المحتمل أن تستمر اية دولة إسلامية في إقرار نظام الرق رسمياً إلاَّ إذا أرادت الخروج على إرادة المجتمع الدولي وهو أمر مستحيل في أيامنا هذه.

ولكن إذا مافرضنا وتوافرت شروط صحيحة من وجهة نظر الشريعة كما نظمها وأقر قواعدها الفقهاء الأوائل لامتلاك الرقيق، مثل وقوع أسرى كانوا يحاربون ضد الإسلام لاستئصال شأفتة وأصروا على عقيدتهم الإلحادية الكافرة، فإن الشريعة ستكون ملزمة بالاعتراف بشرعية هذا الاسترقاق المستوفي للشروط وستحمي حقوق المالك والعبد حمايتها لها منذ ثلاثة عشرة قرنا؟!.. وأكبر مثال على ذلك مايشاع ومايجري في دولة السودان ذات الصفة الإسلامية.

هذا الواقع لايمكن أن ينفي أبداً أن الإسلام إتجه فعلاً نحو تحديد آثار الرق والتخفيف من سلبياته. فعمل على تقييد مصادر امتلاك العبيد والى تحسين أحوالهم والحث على تحريرهم بوسائل متنوعة دينية ومدنية وجعل من تحرير العبد المسلم حسنة حيث اعتبرت الآية: **«إنما**

---

(٢) ـ الربا والفائدة في الإسلام: للمستشار محمد سعيد العشماوي، الصفحة: ٤٣

الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله...»[٣]، والآية: «.. **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبلَ المشرق والمغرب ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب...»**[٤]، أن عتق العبد المسلم أحد أوجه الإنفاق من مال الله أو صدقات الفرد.

جاء في التنزيل[٥]:

«وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاّ خطأً ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنه ودية مُسلَّمةٌ إلى أهله إلاّ أن يصَّدَّقوا فإن كان من قوم عدوٍ لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فديةٌ مُسلَّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً».

لقد قضت هذه الآية بأن تحرير الرقاب كان وسيلة من وسائل العقاب الديني وتكفيراً عن بعض الذنوب التي يرتكبها الفرد المسلم وجلَّ من لايذنب، وكذلك الآيات التالية:

جاء في التنزيل[٦]:

«والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير».

وجاء أيضاً[٧]:

«فلا أقتحم العقبة. وماأدراك مالعقبة. فكُّ رقبة».

كتب ابن كثير يقول[٨]:

---

(٣) ـ سورة التوبة: الآية رقم: ٦٠

(٤) ـ سورة البقرة: الآية رقم: ١٧٧

(٥) ـ سورة النساء: الآية رقم: ٩٢

(٦) ـ سورة المجادلة: الآية رقم: ٣

(٧) ـ سورة البلد: الآيات رقم: ١١ ـ ١٢ ـ ١٣

(٨) تفسير القرآن العظيم: للإمام الحافظ اسماعيل بن كثير، المجلد الرابع، الصفحة: ٥١٣

«.. فلا اقتحم أي دخل، العقبة، قال: جبل في جهنم. وقال كعب الأحبار (فلا اقتحم العقبة) هو سبعون درجة في جهنم... وقال ابن زيد (فلا اقتحم العقبة) أي فلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير.. ثم أخبر تعالى عن اقتحامها فقال: (فك رقبة).... وقال قتادة عن سالم بن ابي الجعد عن معدان بن أبي طلحة عن أبي نجيح - يعني عمرو بن عبسة السلمي - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **«أيما مسلم أعتق رجلاً مسلماً فإن الله جاعل وقاء كل عظم من عظامه عظماً من عظامه محرراً من النار، وأيما امرأة مسلمة اعتقت امرأة مسلمة فإن الله جاعل وقاء كل عظم من عظامها عظماً من عظامها من النار»**.

وسمحت أحكام الشريعة بالمكاتبة بين السيد وعبيده، بمعنى التعاقد مع مالكهم على تحريرهم مقابل أداء خدمات معينة أو دفع مبلغ معين يحدده السيد يقوم العبد أو الجارية بدفعه مُنجماً لسيدهم كل شهر مقابل عتقهم كما جاء في التنزيل: **«.. والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم منهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم..»**[٩]. فإذا استوفى المولى المبلغ المتفق عليه أصبحت الجارية حرة من أحرار المسلمين وكذلك العبد. لهما ما لهم وعليهما ما عليهم ولاسبيل لأحد عليهما إلاّ سبيل الولاء الشرعي. أما إذا عجزا ولو عن الدرهم الفرد بقيا على حكم العبودية.

كما اعترفت هذه الأحكام ببعض الحقوق للرقيق، كحق الزواج، وحق الأم أن لاتنفصل عن ولدها وقت بيعها كرقيق، وحق الزوجين في التساكن. وأقرت معظم المذاهب الفقهية شرعية زواج رسمي بين شخصين أحدهما حرٌ والآخر عبد. ونصت على معاملة منصفة للعبد، حيث كان سوء المعاملة يؤدي مباشرة إلى الاعتاق وعلى المحتسب أن يسهر على تنفيذ ذلك.

وسمحت الشريعة الإسلامية للعبد المسلم أن يمارس في الحاضرة وظائف تنفيذية لاقضائية، وأن يؤم المسلمين في الصلوات عدا صلاة ظهر الجمعة[١٠]. أما العبيد الذين كانوا يعملون في أملاك ومشاريع الدولة وفي الممتلكات الريفية الكبرى أو في الأعمال الصناعية فكانت حالهم أقسى جداً من حال العبيد المنزليين.

---

(٩) - سورة النور: الآية رقم: ٣٣

(١٠) - أهل الإسلام: لويس غاردييه ترجمة صلاح الدين برمدا، الصفحة: ١٠٨

كتب ويل ديوارنت يقول[١١]:

«... ولم يكد يمضي على موت عمر بن الخطاب مائة عام حتى جمع أفراد الطبقات العليا من العرب ثروات طائلة و عاشوا في ضياع مترفة يقوم بالعمل فيها مئات الأرقاء... وكان الفلاح يعمل طوال ساعات النهار ولا يكسب إلّا مايكفي لابتياع خرقة تستر حقويه أو إقامة كوخ يعيش فيه أو الحصول على طعام لايكاد يقيم أوده».

أثر حرب الفتوح في بنية البيت العربي

وكنتيجة حتمية لحرب الفتوح حُملت إلى بلاد المسلمين مغانم كبرى ومتنوعة من خيرات بلاد الشعوب المهزومة، وحُمل من جملة ماحُمل الكثير الكثير من الرقيق الذي لايُحصى له عدد، حتى حصل كل جندي تقريباً على عدد من العبيد والإماء يستخدمهم في حوائجه ويستولد الإماء منهم إذا شاء. وغيرت عملية التسري بالجواري وما نجم عنها من أولاد طبيعة البيت العربي فلم يعد مع مرور الزمن بيتاً عربياً صرفاً.

كتب الدكتور أحمد أمين يقول[١٢]:

«... إن البيت العربي دخلت فيه عناصر أخرى فارسية أو رومانية أو سورية أو مصرية أو بربرية. فلم يعد البيت العربي بيتاً عربياً بل بيتاً مختلطاً ورب البيت هو العربي».

وتنوعت أصناف السبايا والجلبيات التي حملتها حرب الفتوح فضمت في جموعها الجواري والإماء من كل صنف وجنس وسن وعرق ولون ومن مختلف الشعوب والديانات والثقافات والطبقات الإجتماعية.

كتب الدكتور جبور عبد النور يقول[١٣]:

«.. أن بعض الجند العربي الزاحف على بلاد فارس أيام عمر قد أسر بنات يزدجرد بن

(١١) ـ قصة الحضارة في العالم: ويل ديورانت، ترجمة محمد بدران، الجزء الثاني المجلد الرابع، الصفحة: ١١١

(١٢) ـ فجر الإسلام: الدكتور أحمد أمين، الصفحة: ٩١

(١٣) ـ الجواري: الدكتور جبور عبدالنور، سلسلة أقرأ العدد رقم: ٥٩ الصفحة: ٢٤ وما بعدها

شهريار بن كسرى وسبوهن وارسلوهن مع من أرسلن إلى المدينة. فأمر الخليفة ببيعهن فأعطاهنّ إلى دلال ينادي عليهن في السوق. وكان من عادة النبيلات الفارسيات أن يحجبن وجوههن. فكشف الدلال عن وجه إحداهن فلطمته لطمة شديدة على وجهه، فصاح: واعمراه! ورفع أمرها إلى الخليفة فدعاهُن إليه وأراد أن يضربهنّ بالدُّرة[١٤] فحال علي دونهن قائلاً: ياأمير المؤمنين إن الرسول قال: **أكرموا عزيز قوم ذلّ، وغني قوم افتقر. إن بنات الملوك لايُبعن، ولكن قوموهنّ. فقومهن واعطاه أثمانهن، وقسمهن بين الحسين بن علي، ومحمد بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر. فولدن ثلاثة من مشاهير العرب هم علي بن الحسين المعروف بزين العابدين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله».**

وبدأ عدد الجواري يرتفع ويزداد في مجتمع الدولة العربية الإسلامية بشكل كبير جداً حتى بلغن مئات الألوف، لاسيما بعد أن توجهت حرب الفتوح نحو شمال أفريقية والأندلس، حيث غمرت العالم الإسلامي بفيض عظيم من الرقيق.

كتب بن الأثير في تاريخه يقول[١٥]:

«... بلغت غنائم موسى بن نصير فاتح المغرب سنة ٩١ هجرية ثلاثمائة ألف راس سبي، بعث خمسها إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، أي ستين ألفاً».

وكتب أيضاً يقول[١٦]:

«.. أن موسى هذا عندما جاء إلى دمشق استقدم معه ثلاثين ألف عذراء من الأسر القوطية النبيلة».

ويشير ويل ديورانت ـ بعد أن يؤكد على الوقائع السابقة ويضيف إليها أنه كان في بيت الخليفة المقتدر كما يقول الرواة ١١٠٠٠ من الخصيان ـ إلى أن هذه الأرقام مبالغ فيها كثيراً كما هي عادة المؤرخين العرب. ثم يتابع حديثه عن موسى بن نصير فيقول:«... وباع الجميع في أسواق الرقيق»[١٧].

(١٤) ـ الدُّرة: جمعها دُرر وهي السوط والعصا كان يحملها بيده الخليفة عمر ويضرب بها.

(١٥) ـ الكامل في التاريخ: على بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، المجلد الرابع الصفحة: ٢٥٩

(١٦) ـ المصدر السابق، المجلد الرابع، الصفحة: ٢٧٢

(١٧) ـ قصة الحضارة في العالم. مصدر سابق، الجزء الثاني المجلد الرابع، الصفحة: ١١٢

وكان من عادة أمراء الجند والولاة أن يختاروا من السبايا أصْبَحُهُنّ وجوهاً وأجملهنّ أشكالاً، وأعذبهنّ أصواتاً، ويرسلونهن إلى الخليفة فينتقي منهنّ لنفسه من تميل اليهن نفسه وتشتهيهن صبواته ورغباته. ويهب مابقي منهن لخلصائه ورجال دولته. حتى أن بعض الولاة كانوا يجعلون في خراج المناطق التي يحكمونها جماعات من السبايا يوجهونهن إلى الخليفة.

كتب القاضي الرشيد بن الزبير يقول[١٨]:

«.. وكان من جملة ماقدم به عبيدة بن عبد الرحمن القيسي والي أفريقيا وسائر المغرب إلى هشام بن عبد الملك من هداياه في سنة اربع عشر ومئة للهجرة عشرون ألف عبد وأمة ومن صفايا الجواري المتميزة سبع مئة جارية، ومثل ذلك من الخصيان».

مصادر الرقيق وأنواعه ودور النخاسين في إعداده.

كانت حروب الفتوح مصادر كبيرة ومتنوعة للرقيق، كما أنها كانت بمثابة منابع من الذهب بالنسبة للتجار من النخاسين الذين كانوا يسيرون وراء الجيوش وفي حوزتهم كل مايحتاجون إليه من امكانات لتدبير شؤون السبي. فإذا ماأسفر القتال أقبلوا على المنتصر واشتروا منه الرجال والنساء والأولاد، ووضعوا القيود في الأرجل والاعناق وقادوهم إلى أسواق الرقيق حيث يبيعونهم بابهظ الأثمان.

ولكن بعد أن خفَّتْ حرب الفتوح وتوقفت المعارك، وأصبحت الحاجة ملحة أكثر للحصول على الجواري والرقيق المتنوع الصفات والخصال عمد بعض النخاسين الجوابين في أطراف المعمور إلى التوغل في أوربا وبشكل خاص الشرقية منها وروسيا وبادية تركستان وأسيا التركية ذات السهوب الواسعة وفي أفريقيا السوداء بهدف شراء الرقيق لتغذية العالم الإسلامي. وكان معظم هؤلاء النخاسين من اليهود. فكانوا يحملون من هناك الجواري

(١٨) ـ الزخائر والتحف: مصدر سابق: الصفحة: ١٥

السلافيات والجرمانيات اللواتي عرفن في بلاد العرب باسم «الصقلبيات». وقد صادف هذا النوع من الجواري سوقاً رائجة لبياض بشرتهن وطول أجسامهن.

وكان من بين هذا الرقيق المتعدد الأجناس الجواري والإماء الفارسيات والهنديات والسنديات وفيهن القندهاريات والتركيات والأرمنيات والروميات والبربريات والزنجيات والحبشيات والبجاويات وغيرهن.... وقد اختصت كل طائفة منهن بلون من جمال وميزة من حسن وتفرد البعض منهن بكريم الخصال.

لقد عُرف عن الفارسيات أنهن جواري ولد كما قال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتخذ جارية للولد فليتخذها فارسية. ولوحظ على الهنديات حسن القوام وسمرة الألوان وحظاً وافراً من الجمال مع صفرة وصفاء بشرة وطيب نكهة، ولين نعمة وانهنَّ يصلحن للولد أيضاً إلا أن الشيخوخة تُسرع إليهن بينما الجواري السنديات فإنهنَّ يشبهن الهنديات إلاّ أنهن ينفردن بدقة الخصور وطول الشعور.

واعتبر العرب الجواري القندهاريات ـ نسبة إلى قندهار التي كان يجلب منها الرقيق الهندي ـ في معنى الهنديات والسنديات وأنهن ينفردن أيضاً بدقة الخصور وطول الشعور. وأن الروميات بيضٌ شقر سباط الشعور زرق العيون عبيد طاعة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء وأمانة. والبربريات جواري متعة وأنهن مطبوعات على الطاعة نشيطات للخدمة ويصلحن للتوليد لأنهن أحدب الإناث على ولد. وأن الجواري التركيات يجمعن الحسن والبياض والنعومة وأن عيونهن مع صغرها ذات حلاوة، وقدودهن مابين الربع والقصر، والطول فيهن قليل، وهُنَّ كنوز الأولاد ومعادن النسل.

وعرف عن البجاويات أنهن جواري متعة، مذهبات الألوان حسناوات الوجوه ملس الأجسام، ناعمات البشرة. ويغلب على الحبشيات نعومة الأجسام ولينها وضعفها، وانهن لايصلحن للغناء والرقص، دقاق لايوافقهن غير البلاد التي نشأن فيها. وأن الرقص والإيقاع فطرة لدى الجواري الزنجيات وطبع فيهن، ولكن يغلب عليهن سوء الأخلاق وكثرة الهرب. بينما لصق العرب بالجواري الأرمنيات أقبح الأوصاف وأشنع الصفات.

قال أبو نواس يصف مايفضل من ميزاتهن الجسدية[١٩]:

أبصرتُ في بغداد روميّه تقصُر عنها كلُّ أمنيّة
قصريّةَ الطرْفِ شأميةُ الحلوة في نكهةٍ زنجيّة[٢٠]
صُغْديةُ الساقين تُركيةُ الساعد في قدّ طخاريّة[٢١]
هنديةُ الحاجب نوبيةُ الفخذين في زهو عباديّة[٢٢]
حيريّةُ الحسنِ، كيانيةُ الأرداف في أليةٍ عاجيه

ومن الأصناف التي اشتهرت بين الإماء والقيان الجواري المدنيات والمكيات والطائفيات واليمانيات، ومولدات البصرة والكوفة اللواتي ولدن في بلاد الإسلام من آباء عرب وأمهات جليبات من غير العرب ونشأن نشأة محلية، فحملن جزء من طباع أبائهن، وجزءً من طباع امهاتهن، وجزءً من خصائص شخصياتهن، وتحلين بالمحبب من الخصال، والجميل من الفنون وجمعن إلى مناعة العربيات من حيث دوام جمالهن إلى دلِّ الأعجميات من حيث السرعة في أسر قلوب من ينظر إليهن. فكن الجواري الأشهر والنجوم الألمع التي تلألأت في مجالس الأدب والسمر والغناء.

واشتهر بعض النخاسين بجلب الفتيات الصغيرات إلى ديار الإسلام بعد شرائهن من أبائهن لأنهن يكنَّ قابلات للتعليم والحفظ. فكانوا ينقلوهن إلى سمرقند «وهي مدينة من مدن خراسان، يقال أنها بنيت أيام الأسكندر وتولى ذلك شمر بن أفريقس. فقيل عنها شمرقند، وعربت فقيل سمرقند. وكانت مدينة حسنة كبيرة على جنوب وادي الصغد، وقصبة الصغد سمرقند.... لها شوارع ومبان وقصور سامية وفنادق وحمامات وعليها سور تراب متسع يطيف به خندق وهي كثيرة الخصب والنعم والفواكه ولها أربعة أبواب، ويدخل المدينة ماء يُجلب إليها، يدخل على باب كبير ويعم أكثر قصورها، ولهذا النهر حفظة

---

(١٩) ـ ديوان أبي نُواس: تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي، الصفحة: ٣٠٧

(٢٠) ـ قصرية الطرف: نسبة إلى القصر بمعنى جارية من جواري القصور، وربما المقصود هنا قاصرة الطرف، فلا تمده إلى غير مالكها؟

(٢١) ـ صُغدية: نسبة إلى صُغد من أعمال سمرقند ولعلَّ نساءها يمتزن بجمال السيقان. طخارية نسبة إلى طخارستان.

(٢٢) ـ عِبادية: نسبة إلى «عِباد» وهم قبائل شتى اجتمعوا على النصرانية في الحيرة.

وحراس لئلا يصل إليه شيء من الفساد»[٢٣].

وكانت هذه المدينة في حينه تُعتبر أهم مركز لتجارة الرقيق الأبيض، وللعناية بشؤون الجواري وتهذيبهن على مايحب أسياد بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط وقرطبة الذين كانوا يدفعون فيهنّ باهظ الأثمان. وكان شأن هؤلاء الجواري شأن المولدات اللواتي ينحدرن من الرقيق وينشأن نشأة عربية خالصة. فيحذقن اساليب التعبير بعد صقل أذهانهن وتطويع السنتهن وتليين حركاتهن. حيث بشيء من العناية والتدريب يتحولن إلى فنانات بارعات وشواعر موفقات ويتخلقن بعادات المكيات والبصريات والمدنيات والكوفيات والقرطبيات والدمشقيات.

وصف أبو عثمان الدلّال النموذج المفضل والمثل الأعلى المرتجى في أصل الجارية وطريقة إعدادها، قال: «... إذا اجتمع للبربرية مع جودة الجنس أن تُجلب وهي بنت تسع حجج ثم كانت بالمدينة ثلاث حجج، وبمكة ثلاث حجج، ثم جاءت إلى العراق ابنة خمس عشرة، فتأدبت به. جمعت إلى جودة الجنس شكل المدنيات وخنث[٢٤] المكيات، وآداب العراقيات واستحقت أن تخبأ في الجفون وتوضع على العيون»[٢٥].

وهكذا غصت دور الخلفاء والأمراء والقواد والتجار بالسراري والإماء والقيان المتعددات المصادر والأجناس والألوان والمختلفات في الدين. «وكان مواليهم يحترمون دينهن ويسهلون لهن القيام بالطقوس والفروض الخاصة في المواسم والأعياد. وكثيراً ماكانت تقام الشعائر النصرانية واليهودية والمجوسية في قصور الخلفاء»[٢٦].

كما كانت تتردد أصداء اللغات الأجنبية، وتتجاوب اللهجات الغريبة في ردهات القصور في بغداد ودمشق وقرطبة وأشبيلية. كتب الدكتور أحمد أمين يصف قصر الخلد الذي كان يعيش فيه الخليفة هرون الرشيد والذي يشبه في حينه مدينة صغيرة بما يحتوي عليه من أجنحة متعددة قال: «... فكان القصر يموج بالفتيان والفتيات والكبار والصغار... هذه

---

(٢٣) ـ الروض المعطار في خبر الأقطار: محمد بن عبد المنعم الحميري، تحقيق الدكتور إحسان عباس الصفحة: ٣٢٢

(٢٤) ـ الخنث: وصف للأنثى، بمعنى التكثر والتثني واللين

(٢٥) ـ الجواري: مصدر سابق، الصفحة: ٣٢

(٢٦) ـ مقدمة كتاب الموشى أو الظُرفُ والظرفاء، لأبي الطيب محمد الوشاء، تحقيق كمال مصطفى.

جارية فارسية تتكلم الفارسية، وهذه يونانية تتكلم باليونانية، وهذه حبشية تتكلم بالحبشية، وهذه بربرية تتكلم بالبربرية... وكانت جواري الرشيد فيما يقولون تبلغ نحو الفيّ جارية مختلفة الأجناس، لكل منهن صفة وفن وميزة في الأدب والموسيقى والطرب»[٢٧].

أولاد الرشيد من سراريه والموقف من أولاد الجواري

كتب ويل ديورانت عن زوجات الرشيد وسراريه اللواتي أنجب منهن أولاده فقال: «.. ويقال أنه تزوج من سبع نساء، وكان له عدد من السراري رزق منهن بأحد عشر ولداً وأربع عشرة بنتاً كلهم وكلهنّ من الجواري عدا الأمين إبنه من الأميرة زبيدة»[٢٨].

ويعدد الطبري اسماء ابنائه من الجواري فيقول[٢٩]:

«عبد الله المأمون وأمه أم ولد يُقال لها مراجل، والقاسم المؤتمن وأمه أم ولد يقال لها قصف، ومحمد ابو اسحاق المعتصم وامه أم ولد يقال لها ماردة، وعلي وأُمُّهُ أَمَةَ العزيز، وصالح وأمه أم ولد يقال لها رئم، ومحمد أبو عيسى وأمه ام ولد يقال لها عرابة، ومحمد ابو يعقوب وامه ام ولد يقال لها شذرة، ومحمد ابو العباس وأمه أم ولد يقال لها خبث، ومحمد ابو سليمان وأمه أم ولد يقال لها رداح، ومحمد ابو علي وأمه أم ولد يقال لها دواج، ومحمد أبو أحمد وأمه أم ولد يقال لها كتمان».

ثم يعدد اسماء بناته من الجواري وهُنَّ[٣٠]:

«..سكينة وامها قصف وهي أخت القاسم، وأم حبيب وأمها ماردة وهي أخت أبي اسحاق المعتصم، وأروى أمها حلوب، وأم الحسن وأمها عرابة، وأم محمد وهي حمدونة، وفاطمة وامها غُصص واسمها مصفى، وأم أبيها وأمها سكر، وأم سلمة وامها رحيق، وخديجة امها

---

٢٧) ـ هرون الرشيد: الدكتور أحمد أمين، كتاب الهلال العدد رقم: ٣ ، الصفحة: ٨٥

(٢٨) ـ قصة الحضارة في العالم، مصدر سابق، الجزء الثاني، المجلد الرابع، الصفحة: ٩١

(٢٩) ـ تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، المجلد الثامن، الصفحة: ٣٦٠ .

(٣٠) ـ المصدر السابق، المجلد الثامن، الصفحة: ٣٦٠ .

شجر، وام القاسم وامها خزق، ورملة أم جعفر وأمها حلى، وأم علي امها أنيق، وأم الغالية أمها سمندل وريطة وأمها زينة».

وليس هذا بالأمر المستغرب إذا علمنا أن أمهات الخلفاء العباسيين السبعة والثلاثين كنّ إلاّ ثلاثة منهنّ جواري. وأن خلفاء الأندلس من الأمويين لم يكن منهم مَن أُمُّهُ حرة أصلاً.

كتب الدكتور جبور عبد النور يقول[٣١]:

«.. لم يَلِ الخلافة في الصدر الأول من أُمُّهُ أَمَةً حاشا يزيد وابراهيم إبني الوليد، ولا وليها من بني العباس من أمه حرة حاشا السفاح والمهدي والأمين، ولم يلها من بني أمية بالأندلس من أمة حرة اصلاً».

ونقل عن الخليفة **عمر بن الخطاب** في مدح أولاد السراري وتفضيلهم على غيرهم إذ قال: **«ليس قوم اكيس من أولاد السراري لأنهم يجمعون عزَّ العرب ودهاء العجم»**[٣٢]. بينما عرف عن خالد بن صفوان أنه كان يرغب السفاح ويشجعه على اتخاذ الإماء والتسري بهن.

قال خالد بن صفوان[٣٣]:

«وحرمت نفسك التلذذ بالسراري واستظراف الجواري ومعرفة اختلاف حالاتهن، وأجناس التمتع بما يشتهي منهنَّ، فمنهنَّ ياأمير المؤمنين، الطويلة العيناء، والبضة البيضاء، والعتيقة الأدماء، والذهبية السمراء، والبربرية العجزاء، والمولدات المدنيات اللواتي يفتنَّ بمحاورتهنَّ ويخلبن بحلاوتهن. ولو رأيت ياأمير المؤمنين السمراء واللعساء من مولدات البصرة والكوفة ذوات الألسن العذبة والقدود المهفهفة والأوساط المختصرة، والثديِّ النواهد المحققة وحسن زيهن وشكلهن لرايت فتناً ومنظراً حسناً...».

لقد ولد هذا الوضع لدى الناس وبشكل خاص العرب منهم احتقاراً وكرهاً عميقاً لأبناء الجواري الذين أصبحوا ابناءً شرعيين للخلفاء وافراد الطبقة الأرستقراطية الإسلامية التي بدأ

---

(٣١) ـ الجواري: الدكتور جبور عبدالنور، سلسلة إقرأ العدد رقم: ٥٩ الصفحة ٣٨ نقلاً عن كتاب نقط العروس للإمام ابن حزم الأندلسي.

(٣٢) ـ الكامل في اللغة والأدب: أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد المجلد الأول، الصفحة: ٣١٣ .

(٣٣) جمال المرأة عند العرب: الدكتور صلاح الدين المنجد، الصفحة: ٦٦ .

يزداد عددها على الدوام. فملكوا الثروة والجاه والسلطة واصبحوا اسياد الناس في المجتمع العباسي، مما دفع بالشاعر الرياشي لأن يقول مستنكراً(٣٤):

إن أولاد الســـراري كــثــروا يــاربِّ فــينا
ربِّ أدخـلــنـي بــلاداً لا أرى فــيــهــا هــجــينا

والهجين عند العرب كما يقول المبرد هو: «الذي أبوه شريف وأمه وضيعة والأصل في ذلك ان تكون أَمَةً. وإنما قيل هجينٌ من أجل البياض، وكأنهم قصدوا قصد الروم الصقالبة ومن اشبههم، والدليل على أن الهجين، الأبيض ان العرب تقول مايخفى ذلك على الأسود والأحمر أي العربي والعجمي، ويسمون الموالي وسائر العجم الحمراء»(٣٥).

حتى أن محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن بنِ علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية(٣٦) كتب إلى أمير المؤمنين المنصور يعيره بأنَّ أُمَّهُ أَمَةٌ ويغمز في قناته ويقول: «واعلم

---

(٣٤) الكامل في اللغة والأدب مصدر سابق، المجلد الأول، الصفحة: ٣١٤

(٣٥) ـ المصدر السابق، المجلد الأول، الصفحة: ٣١٤

(٣٦) ـ محمد بن عبد الله بن الحسن: هو الإمام الشهيد أبو عبدالله محمد النفس الزكية، الملقب بالمهدي أمه هي هند بنت أبي عبيدة بن عبدالله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسيد بن عبد العزى بن قصي. كان يقال له صريح قريش لأنه لم يقم عنه أم ولد في جميع آبائه وامهاتهم. وكان أهل بيته يسمونه المهدي ويقدرون أنه الذي جاءت فيه الرواية، بينما علماء آل أبي طالب يرون فيه النفس الزكية لزهده وتنسكه. عن مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصفهاني تحقيق السيد أحمد صقر، الصفحة: ٢٠٦

ولد في المدينة سنة ٩٣ للهجرة/٧١٢ ميلادية. ونشأ فيها. كان من أفضل أهل بيته، وأكبر أهل زمانه في زمانه في علمه بكتاب الله وحفظه له وفقهه في الدين. يُعَدُّ من أئمة الشيعة الزيدية، بايعهُ الهاشميون وفيهم السفاح والمنصور يوم كانوا يعدون للثورة على الأمويين. ولما آل الأمر إلى العباسيين تخلف هو وأخوه ابراهيم عن الوفود إلى السفاح ثم إلى المنصور. فلما طلبهما تواريا فقبض على أبيهما واثنى عشر من أقاربهما وعذبهم حتى ماتوا. لما علم بموت أبيه خرج من مكمنه ثائراً بصحبة ٢٥٠ رجلاً، فقبض على أمير المدينة وبايعه أهلها بالخلافة وأيده أحفاد الصحابة والتابعين وجمهور من النُّسَّاك والقراء، كما أيده الفقهاء والأئمة. فكتب إليه المنصور يحذره، ثم أرسل إليه ولي عهده عيسى بن موسى على رأس طائفة من الجند لمقاتلته. فقتله وأرسل رأسه إلى المنصور عام ١٤٥ للهجرة /٧٦٢ ميلادية.

أني لستُ من أولاد الطلقاء، ولا أولاد اللعناء، ولا أعرقت فيَّ الإماء، ولا حضنتني أمهات الأولاد»[٣٧].

ومن طريف مايرويه لنا الجاحظ عن كره العرب لأبناء الجواري واحتقارهم حتى ولو اصبح أحدهم خليفة للمسلمين[٣٨] الحادثة المعبرة التالية:

كتب الجاحظ يقول[٣٩]: «.. **قلتُ لعبيد الكلابي وكان فصيحاً فقيراً: أيسرك أن تكون هجيناً ولك الف جريب[٤٠]؟ قال: لاأحب اللؤم بشيء. قلتُ: فإن أمير المؤمنين ابن أمة. قال: أخزى الله من أطاعه».**

---

(٣٧) ـ الكامل في اللغة والأدب: مصدر سابق، المجلد الأول، الصفحة: ٣١٣

(٣٨) ـ كان بنوا أمية في بداية حكمهم لايسمحون لأبناء السراري ارتقاء سدة الخلافة. لكن هذه القاعدة خرقت في أواخر العهد الأموي حيث وصل إلى سدة الخلافة يزيد بن الوليد ١٢٦هـ/ ٧٤٤ م ـ ١٢٦ هـ/٧٤٤ م. وابراهيم بن الوليد: ١٢٦هـ ـ / ٧٤٤ م ـ ١٢٧هـ/٧٤٤م.

(٣٩) ـ ضحى الأسلام: الدكتور أحمد أمين، المجلد الأول، الصفحة: ٢٦ نقلاً عن الجاحظ

(٤٠) ـ الجريب: من الجرباء، وهي الأرض المحلة.

الفصل الثاني

الجواري وشرعنة ذكورية المجتمع البطريركي

الحس الجمالي عند العربي

من المنصف حقاً القول بأن تذوق العربي للحسن والجمال تفلت نسبياً من التخصص، وتجلى على شكل احساس ذاتي داخلي فردي غامض يفيض بالعذوبة واللطافة، ويشرق بالحلاوة والملاحة والصباحة، فلا يقيد حسّه الجمالي دقة في الحدود، ولايحصره وضوح في التخوم. إلاّ أن هذا الإحساس الفردي لم يلغِ بعض القواعد والأصول التي تعارف العرب عليها حول جمال المرأة ومايجب ان تتمتع به من سجايا وخصال خلقية ونفسية، مثل لطف الحركة وايحائية النظرة، وعذوبة الحديث، ورجاحة العقل، وطاهر الخلق وكرم المحتد، وأن تكون ليّنة الأطراف ثقيلة الأرداف، لونها كالرق، وثديها كالحق، ذات بطن مخطف، وخصر مرهف، وجيد أتلع، ونسب مشبع تتثنى تثني الخيزران، وتميل ميل السكران لا الطول أزرى بها ولا القصر[1].

كتب الجاحظ يقول[2]:

«... وقيل لإعرابي أتحسن صفة النساء؟

قال: نعم إذا عذب ثناياها، وسهل خداها، ونهد ثدياها وفعم[3] ساعداها، والتفّ فخذاها،

---

(١) ـ المحاسن والأضداد: للجاحظ، تحقيق فوزي العطوي، الصفحة: ١٣٠

(٢) ـ المحاسن والأضداد، مصدر سابق، الصفحة: ١٢٤

(٣) فَعَمَ: مُفاعمة وفعومة: الساعد امتلأ. ويُقال فَعْمُ الأوصال: ممتلئ الأعضاء

وعرض وركاها وجدل ساقاها[٤] فتلك همّ النفس ومناها».

وكتب المنذر الأكبر في صفة جارية اهداها إلى أنوشروان[٥] يصف وصفا رائعاً ودقيقاً لصفاتها الجسدية، وما تتمتع به من سجايا وخصال خلقية ونفسية حتى قيل أن أنوشروان أعجب بهذه الصفات المكتوبة للنساء، وأمر باثباتها في دواوينه، وكانوا يبعثون بموجب هذه الوثيقة من يبحث لهم عن المرأة التي بهذه الصفات فإذا وجدت حملت إليهم.

كتب المنذر يقول[٦]:

«إني وجهت إلى الملك جارية معتدلة الخلق، نقية اللون والثغر، بيضاء وطفاء[٧] كحلاء[٨] دعجاء[٩] حوراء[١٠]، أسيلة الخد شهية المقبل جثلة[١١] الشعر، عريضة الصدر، كاعب[١٢] الثدي حسنة المعصم لطيفة الكف، سبطة البنان، ضامرة البطن، خميصة الخصر فعمة الساق، مشبعة الخلخال، لطيفة الكعب والقدم، قطوف المشي، مكسال الضحى، بضة المتجرد، سموعاً للسيد، رقيقة الأنف عزيزة النفس لم تغذَّ في بؤس، حيية رزينة، حكيمة ركينة، كريمة الخال، تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها، وتستغني بفصيلتها دون جماع قبيلتها، قد أحكمتها الأمور في الأدب فرأيها رأي أهل الشرف، وعملها عمل أهل الحاجة، صناع الكفين، قطيعة اللسان، تزين الولي وتشين العدو، إن أردتها اشتهت وإن تركتها

---

(٤) ـ المقصود جودة العصب والقد وحُسن الخرط وقلة الاسترخاء.

(٥) ـ أنوشروان: هو كسرى الأول ابن قباذ ملك ساساني حكم من ٥٣١ ـ ٥٧٩ للميلاد. بسط حكمه على بلخ وشبه جزيرة العرب وأجزاء من أرمينيا والقوقاز. حارب بوستينياس واحتل انطاكية ولاذق. أجبر على عقد هدنة مع البيزنطيين عام ٥٥٥ للميلاد. استولى على اليمن عام ٥٧٠ ميلادية، واشتهر بعدله واصلاحاته التي من أهمها مسح الأراضي واصلاح نظام الضرائب وتحسين وسائل الري وطرق المواصلات والجيش وتشجيع التعليم وبناء المدن.

(٦) ـ الحياة الاجتماعية عند العرب: ظافر القاسمي، الصفحة: ٣٥ وما بعدها نقلاً عن الأغاني.

(٧) ـ الوطف: كثرة شعر الحاجبين والعينين والأشفار مع استرخاء وطول.

(٨) كحلاء: العين الشديدة السواد.

(٩) ـ دعجاء: شدة سواد العين مع سعتها.

(١٠) حوراء: من حور. والعين الحوراء التي اشتد بياض بياضها وسواد سوادها.

(١١) الجثل: من جثَلَ وجَثُلَ جثالةً وجُثولة، الشعر كثر والتف واسود فهو جثْلٌ وجثيلٌ

(١٢) الكاعب: من كعَبَ كعُوباً وكعوبة وكِعابةً: الجارية نهد ثديُها أي انتبر وأشرف فهي كَعَابٌ وكاعِبٌ.

انتهت، تحملق عيناها، وتحمر وجنتاها، وتبادرك الوثبة إذا قمت، ولاتجلس بأمرك إلاّ إذا جلست».

ربما يعود سبب ذلك إلى أن المرأة لم تكن في نظر العربي إلاّ متاعاً حلواً جميلاً أثيراً، خلق للحب واللهو العاطفي، وأن هذه النظرة استمرت في الإسلام. فقد روى في المأثور عن الرسول أنه قال: «**إنما النساء لعب فإذا تزوج أحدكم فليستحسن**»[١٣]. وروى أيضاً أنه قال: «**خير نسائكم التي إذا خلعت ثوبها خلعت معه الحياء وإذا لبسته لبست معه الحياء**»[١٤]. يعني مع زوجها. وأخرج الديلمي عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**إن الله يحبُ المرأة الملقة**[١٥] **البرعة**[١٦] **مع زوجها الحصان عن غيره**»[١٧].

والعربي ولوع بالمرأة شديد الإحساس بجمالها، وكان يستهل شعره بالتشبب بها والحنين إليها، ووصف محاسنها وماتتميز به من نضارة وجمال ثم ينتقل إلى الغرض الذي أنشأ شعره من أجله. وفي الشعر الجاهلي نجد وصفاً دقيقاً لجمال المرأة كوصف **امرىء القيس** لمحبوبته **فاطمة**، ووصف **النابغة الذبياني للمتجردة** زوجة **النعمان بن المنذر**، ووصف **الأعشى** لمحبوبته **هريرة**. حيث تضمنت هذه القصائد وغيرها وصفاً دقيقاً لأعضاء المرأة التامة الخلق.

وفي المرحلة الإسلامية تبدل نموذج الجمال قليلاً فانصرف الذوق عن المراة السمينة ذات النهود الضخمة إلى البضة المعتدلة القامة ذات الخصر الضامر والنهد الذي يشبه حق الكافور و... و... وظهر هذا التعديل الطفيف في عناصر جمال المرأة في وصف الشعراء الأسلاميين لمحبوباتهم، كعمر بن ابي ربيعة، والحارث المخزومي، وجميل بثينة، وكثير عزة، وتوبة، والعرجي والأحوص وغيرهم. ويمكن اعتبار قصيدة دوقلة المنبجي التي عرفت باليتيمة ومطلعها:

---

(١٣) ـ المحاسن والأضداد، مصدر سابق، الصفحة: ١٢٩

(١٤) ـ شقائق الأترنج في رقائق الغُنج: للعلامة جلال الدين السيوطي، تحقيق عادل العامل، الصفحة: ٤٠ . ويقول محقق الكتاب أنه لم يعثر على هذا القول في كتب الحديث.

(١٥) ـ الملقة من الملق، والمرأة المالق، كثيرة التودد والتذلل مع اللطف الشديد.

(١٦) ـ البرعة: التي تفوق أقرانها.

(١٧) ـ المصدر السابق، جلال الدين السيوطي، الصفحة: ٣٣ .

هل بالطلول لسائل ردُّ   أم هل لها بتكلم عهد[18]

النموذج الأمثل للجمال كما تعشقه العربي حيث جمعت عناصر الحسن التي وردت في قصائد هؤلاء الشعراء عندما وصف جمال دعد التي اشتهرت بالجمال والكمال، وأعلنت أنها لاتتزوج إلا من يصف أعضاءها عضواً عضواً، وهذا مافعله الشاعر عندما ابتدأ من شعرها حتى اخمص قدميها. وقد جاء هذا الوصف في ستة وعشرين بيتاً من قصيدته التي تقع في أكثر من ستين بيتاً.

أجل لقد أكدت روائع الشعر العربي هذه على وصف حسان النساء على اعتبار أنهن كائنات طيعة جميلة، يرتاح الرجل اليهن ويلهو بهنَّ متى يريد ويزور عنهن حين يشاء. ومن المستحسن ذكر احدى هذه الروائع وهي أبيات من قصيدة للمنخل اليشكري[19] يصف فيها إقتحامه الحذر على فتاته، وما يلتهب به جسمه من حرور يشفُّ عن رغبته الجامحة، ونزوته العارمة وفحولته المشتعلة التي تسعد بها فتاته.

قال المنخل[20]:

ولقد دخلت على الفتا   ةِ الخدرَ في اليوم المطير[21]
الكاعب الحسناء ترفل فـ   ـي الدمقس وفي الحرير[22]
فدفعتها فتدافعت   مشيَ القطاة إلى الغدير[23]

---

(١٨) ـ أحلى ٢٠ قصيدة حب في الشعر العربي اعداد وتقديم وشرح فاروق شوشة. الصفحة: ١٥١ وما بعدها.

(١٩) ـ المنخل اليشكري: هو المنخل بن الحارث اليشكري شاعر جاهلي قديم، قيل أنه كان من أجمل العرب، وكان نديماً للنعمان بن المنذر. أتهم بحب المتجردة زوج النعمان وكانت من أجمل نساء عصرها، ذات جمال فتاك. قيل أن النعمان قتله، وقيل أغرقه أو دفنه حياً أو أخفاه، فغمض خبره ولم تعلم له حقيقة إلى اليوم. ويضرب به المثل لمن هلك ولم يعرف له خبر. مات كما يُروى سنة ستمائة وثلاث ميلادية.

(٢٠) ـ المصدر السابق، فاروق شوشة، الصفحة: ٢٠

(٢١) ـ اليوم المطير اختاره الشاعر لأنه يوم المؤانسة وفراغ البال، لا صيد فيه ولا إغارة، ولا زيارة.

(٢٢) ـ الكاعب: التي بدأ ثديها في النهود. الدمقس: الحرير الأبيض.

(٢٣) ـ القطاة: نوع من الطير يشبه الحمام، وقيل الحمام.

ولـثـمـتـهـا فـتـفـسَـتْ كـتـفـس الـظـبـي الـغـريـرِ[٢٤]
فـدنـت وقـالـت يـامـنـخـل مـابـجـسـمـك مـن حـرورِ[٢٥]

وعُرف عن العربي كره المرأة النحيلة الدقيقة الجسم الخفيفة الوركين لأن نحافة الوركين من الصفات المكروهة في النساء، وبالتالي فهي في نظر خبراء الجمال منهم تنقص من أثمان الجواري والإماء. بينما أحب المرأة النحيلة الأعلى الجسيمة الأدنى، أعلاها قضيب، واسفلها كثيب، واعتبرت عجيزتها من حيث الأهمية الجمالية بمكانة وجهها.

قالت العرب[٢٦]: «العجيزة أحد الوجهين»

وقال المغني والشاعر اسحق الموصلي[٢٧]:

ظـبـاءٌ كـالـيـعـافـيـر كـنـوس فـي المقاصيـر[٢٨]
وأدبـرنَ بـأعـجـازٍ كـأوســاط الـزنـابـيـر

أجل لقد أحب العربي المرأة البضة[٢٩] العبلاء بمعنى المجدولة الجسم التي هي في منزلة بين السمينة والممشوقة، كاسية العظام والعروق في غير ترهل، ملساء الجلد تزلق اليد عنها.

وصف أعرابي إحداهنّ قال[٣٠]:

(٢٤) ـ الغرير: ولد الظبي وهو صغير.

(٢٥) ـ الحرور: شدة الحرارة والتوهج.

(٢٦) ـ مجمع الأمثال: لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المجلد الثاني، الصفحة: ٥٥

(٢٧) ـ إسحق الموصلي: هو اسحق بن ابراهيم الموصلي الموسيقار النديم ابن النديم والأنيس الجليس. ولد في الريِّ عام ٧٦٧ للميلاد وتوفي في بغداد عام ٨٥٠ ميلادية. من مغني العصر العباسي الأول. تعلم الحديث والقرآن والأدب والغناء. وكان منقطعاً إلى الرشيد والبرامكة. ولم يسبقه أحد في صنعة الغناء والضرب على العود. اشتهر بأدبه وظُرفه. من مؤلفاته الكثيرة التي صنعها وألفها «كتاب أغانيه التي غنى فيها» و «كتاب النوادر والأخبار» و «كتاب الندماء» وغيرها...

(٢٨) ـ اليعافير من الأعفر: نوع من الظباء وهو أضعفها عدواً. واليعافر جمع عفراء مؤنث الأعفر. كنوس: من كنس الظبي بمعنى إستتر في كناسه. والكناس بيت الظبي. والكُنَّسُ صفة للجواري، يقولون: «الجواري الكنس، بمعنى الجواري التي تشبه النجوم وبقر الوحش».

(٢٩) ـ البَضَّة: من إمرأة باضة وبضة وبضيضة: كثيرة اللحم تارة في نصاعة وقيل هي الرقيقة الجلد الناعمة إن كانت بيضاء أو أدماء، قيل: كل رداح بضةٍ بضاض.

(٣٠) ـ المحاسن والأضداد: مصدر سابق، الصفحة: ١٢٤

«.. جلد من لؤلؤ رطب، مع رائحة المسك الأذفر، في كل عضوٍ شمس طالعة».

وقيل لأعرابي في حلقة يونس بن حبيب[٣١] أي النساء افضل عندك؟ قال: «البيضاء العطرة اللينة الخفرة، العظيمة المتاع الشهية للجماع، التي إذا ضُوجعت أنَّتْ وإذا تُركت حنَّتْ»[٣٢]

وكتب الزجاجي[٣٣] في أماليه قال:

«.... أخبرنا أبو عبد الله نفطويه[٣٤] قال: أخبرنا أحمد بن يحي عن إبن الأعرابي[٣٥] قال: تقول العرب: **الملاحة في الفم والحلاوة في العينين، والجمال في الأنف**»[٣٦].

وعلى الرغم من أن غالبية أمهات الفاتحين وزوجاتهم وأخواتهم وبناتهم كُنَّ سمراً تسبي عيونهن الجميلة العقول، ويلهمن معظم الشعراء إلّا أن العربي الأسمر كان في الغالب يفضل البيض من الجواري.

قالوا[٣٧]: **«البياضُ نصف الحسن»**.

---

(٣١) - يونس بن حبيب: هو يونس النحوي، علامة بالأدب، وإمام نُحاة أهل البصرة في عصره. أخذ عنه سيبويه والكسائي والفرّاء. من كتبه معاني القرآن، واللغات والنوادر. ولد سنة ٩٤ للهجرة وتوفي سنة ١٨٢ هجرية.

(٣٢) - شقائق الأترنج في رقائق الغُنج، مصدر سابق، الصفحة: ٣٦ وما بعدها.

(٣٣) - الزجّاج: هو أبو القاسم عبدالرحمن بن اسحق الزجاجي. ولد في مدينة العُميرة وهي بلدة بين ديار الجبل وخوزستان. قضى صباه بين ربوعها، ثم انتقل إلى بغداد ثم إلى بلاد الشام فأقام في حلب مدة ثم سافر إلى دمشق ويُقال أنه توفى فيها سنة ٣٣٧ للهجرة. كان رواية للأخبار واللغة. وله مؤلفات عديدة في النحو والأدب والفقه.

(٣٤) - نفطويه: هو ابراهيم بن محمد بن عرفة الملقب بـ نفطويه. أخذ عن ثعلب والمبرد وكان فقيهاً على مذهب داوود الظاهري. ولد سنة ٢٤٤ وتوفي سنة ٣٢٣ للهجرة.

(٣٥) - ابن الأعرابي: هو محمد بن زياد اللغوي. ولد في الكوفة عام ٧٦٧ ميلادية وتوفي بسامراء سنة ٨٤٤ للميلاد. أخذ عن المفضل الضبي زوج أمه. واشتغل في التدريس ببغداد. عُرف باللغة والنحو ورواية الشعر، وقيل أن أباه من أصل هندي وأنه تثقف بالثقافة العربية، ونشر الأفكار الهندية.

(٣٦) - أمالي الزجاج: لأبي القاسم عبدالرحمن، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، الصفحة: ١٠٩

(٣٧) - مجمع الأمثال: مصدر سابق، المجلد الأول، الصفحة : ١٢١

وكان يفضِّلُ بشكل خاص الرقيقات البشرة الصافيات اللون لاسيما اللواتي يضرب لونهنَّ بالغداة إلى الحمرة وفي العشي إلى الصفرة.

قالت العرب[٣٨]:

«إن الجارية الحسناء تتلون بلون الشمس فهي بالضحى بيضاء وفي العشيّ صفراء».

قال ذو الرّمة[٣٩]:

بيضاءُ صفراءُ قد تنازعها لونان من فضةٍ ومن ذهب[٤٠]

وقالت العرب أيضاً[٤١]: **«الحسن أحمر».**

لأن اللون الأحمر هو الأبيض، وهو في اللغة من الأضداد[٤٢]. وكانت العرب تسمي الموالي من عجم الفرس والروم الحمر لغلبة البياض على ألوانها. كما أن الرسول صلوات الله عليه وسلم كان يُلقب زوجته عائشة[٤٣] بالحميراء لغلبة البياض على لونها. ويقال أنها

(٣٨) ـ العقد الفريد: مصدر سابق، المجلد السابع، الصفحة: ١٠٩

(٣٩) ـ ذو الرمَّة: غيلان بن عقبة العدوي المتوفي سنة ١٧ للهجرة /٧٣٤ ميلادية. يُكنى بأبي الحارث، ولُقِّبَ بذي الرِمَّة. شاعر عاش في البادية وتردد على اليمامة والبصرة والكوفة. بدأ حياته الأدبية بالرجز ثم تحول إلى الشعر. عشق مَيَّةَ وتغزل بها على الرغم من عدم حبها له لدمامته وقصره الشديد.

(٤٠) ـ المصدر السابق: المجلد السابع، الصفحة: ١٠٩

(٤١) ـ مجمع الأمثال: مصدر سابق، المجلد الأول، الصفحة: ١٩٩

(٤٢) ـ الأضداد في اللغة: محمد بن القاسم الأنباري، تصحيح وضبط أحمد الشنقيطي، الصفحة: ٣٠٣

(٤٣) ـ عائشة بنت أبي بكر الصديق: أمها أم رومان الكنانية، ولدت بعد المبعث بأربع سنين. دخل النبي بها في السنة الثالثة من الهجرة وهي بنت تسع سنين. وتوفي عنها وهي بنت ١٧ أو ١٨ سنة. «كانت تحضره إذا بايع النساء أو صلى بهن أو جلسن إليه يسألنه في أمور الدين وأداب الزوجية، ويتفق كثيراً أن يُعرض عن الجواب حياءًفيوكلها بالتفسير والاسهاب حيث يعز الفهم على بعض سائلاته اللواتي يستقصين في السؤال». عن كتاب الصديقة بنت الصديق: عباس محمود العقاد، سلسلة كتاب الهلال، العدد رقم ٦٩ ، الصفحة: ٩٠

وكان لها نشاطاً سياسياً واسعاً خاصة بعد وفاة الرسول. فقادت المقاتلين ضد الإمام علي بن أبي طالب في موقعة الجمل، وكانت جهورية الصوت ويقال أنها: كانت تخطب ←

كانت نحيلة أقرب إلى الطول ثم مالت بعد سنوات من زواجها إلى شيء من السمنة(٤٤). وكانت أقرب نسائه إلى قلبه حيث لم ينكح بكراً سواها(٤٥)، ولم تنس قط أن تتحلى بما يروقه من مرآها، فتلبس المعصفر والمضرج، وتتحرى مايعجبه من الطيب والحلية(٤٦). وهي القائلة: «كنت أغتسل أنا وهو في إناء واحد ولم يكن يصنع ذلك بأحد من نسائه غيري، وكان يُصلي وأنا معترضة بين يديه دون غيري، وكان ينزل عليه الوحي وهو معي، ولم ينزل وهو مع غيري، وقُبض وهو بين سحري ونحري وفي الليلة التي كان يدور علي فيها ودفن في بيتي»(٤٧).

نكاح المتعة وتعدد الزوجات

إن مبدأ تعدد الزوجات إلى غير حد كان سائداً في العصر الجاهلي وفي المرحلة التي سبقت ظهور الإسلام. وهو مبدأ ينسجم ويتوافق مع النظام الأبوي الذي كان يسود القبائل الرعوية على وجه العموم. وأعطى نظام الأسرة البطريركية في المجتمع القبلي وفي الأسرة العربية الأولوية للرجل (الزوج) وبوأه مركز السيادة المتعالي كرب للأسرة. فكان يملك عدداً من الزوجات الحرائر بالإضافة إلى السراري (ملك اليمين). والزوج بصفته رب الأسرة فهو مالكهم وسيدهم، وهو الذي يجلب الرزق لهم عن طريق المتاجرة حيناً وعن طريق السلب

← في العسكر من هودجها في ساحة الحرب فيسمع خطابها، كما قيل أنها دَلَّتْ قميص النبي لما جاء عثمان ليخطب بالناس وقالت: «يامعشر المسلمين هذا جلباب رسول الله لم يُبل وقد أبلى عثمان سنته». المصدر السابق: عباس محمود العقاد، الصفحة ٥٧ والصفحة: ١٤٣ ويروى عن ابن عباس أبياتاً من الشعر قالها في أم المؤمنين عائشة.

قال ابن عباس:

تجمَّلتِ تبغَّلتِ ولو عشتِ تفيَّلتِ
لك التسع من الثمن وبالكلِّ تصرَّفتِ

يشير ابن عباس في هذه الأبيات إلى ركوبها الجمل في حرب الجمل، و ركوبها البغلة يوم منعت دفن الحسن بجانب جده. عن كتاب ثم أهتديت محمد التيجاني السّماوي، الصفحة: ١٦٦

(٤٤) ـ الصديقة بنت الصديق: عباس محمود العقاد، كتاب الهلال العدد رقم ٦٩ الصفحة: ٥٦

(٤٥) ـ المصدر السابق: الصفحة: ٨٤

(٤٦) ـ المصدر السابق: الصفحة: ٨٨

(٤٧) ـ المصدر السابق: الصفحة: ٨٥

والنهب الذي يتم في الغارات في غالب الأحيان. وهو الذي يحميهم (الزوجات والأولاد) ويدافع عنهم لو دوهمت القبيلة ـ واسرته جزء منها ـ من قبل قبيلة اخرى.

هذا الواقع جعل من الزوجة مملوكة ومسودة ومربوبة لبعلها، واجتث من نفسها أي شعور بالاعتداد أو المكانة، أو حتى أي احساس بالكينونة والتميز (في محيط الأسرة) وغرس فيها بذور الاستكانة والاستسلام والطاعة والتبعية المطلقة والرضى بالوظيفة التي حددها لها الزوج (البعل) وهي المتعة الجسدية والإنسال إلى جانب الخدمة وتربية الأطفال في الأوساط الفقيرة.

لقد عرف عن العربي ولعه النهوم بالنساء وعدم استساغته لمبدأ تحديد عدد الزوجات. ولما جاء الإسلام عمل على تعميق عملية تحويل النظام الإجتماعي بقضائه على بقايا النظام الأمومي وتأكيد النظام الأبوي نظام الأسرة البطريركية. فاحترم رغبة العربي واحتواها وأقرّ مبدأ تعدد الزوجات لكن ثمّة قيود.

جاء في التنزيل[48]:

﴿وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ذلك أوفى ألاّ تعولوا﴾.

وبذلك جاء متوافقاً تمام الموافقة مع موقف عرب ماقبل الإسلام ومؤكداً على تعزيز مسار الأسرة البطريركية التي حلّت محل بقايا النظام الأمومي الذي كان شائعاً بين العرب في العهود القديمة ويستدل عليه من بعض الشواهد التي يظهر منها أن الأولاد كانوا ينتسبون إلى أمهاتهم ويسمون بأسمائهن، وأن بعض القبائل كانت تنسب أيضاً إلى أمها مثل بنو خندف وبنو مزينة وظاعنة وجديلة ومرة وغيرها... أو كما كتب الباحث العلامة بندلي الجوزي.

كتب بندلي الجوزي يقول[49]:

﴿ومن الأدلة الواضحة على شيوع الأمومة عند العرب قبل استحكام نظام الأبوة عندهم كلمة بطن التي تستعملها العرب اليوم بمعنى العائلة أو القبيلة، فلا ريب أن هذه الكلمة

---

(٤٨) ـ سورة النساء: الآية رقم: ٣

(٤٩) ـ دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب، بندلي صليبا الجوزي، جمع وتقديم جلال السيد ناجي علوش، الصفحة: ١٥٨

بمعناها الأصلي تشير إلى عقد من الزمن كانت الامرأة فيه مصدر العائلة ومحورها».

علماً أن من بين المفسرين للآية السابقة من يقول وهو رأي له وزنه واستشرافاته، بأن مفهوم التعدد في هذه الآية مطلق وغير محدد ولا يعني الوقوف عند أربع زوجات فقط. لأن صيغة ماطاب لكم من النساء تفيد العموم، وأن (مثنى وثلاث ورباع) كلمات معدول بها عن أعداد مكررة إلى غير نهاية، ذكرت بعد صيغة العموم على سبيل البيان بالمثال، لاعلى سبيل التحديد، وأن مجيئها على الوجه المذكور يفيد رفع الحرج عن المسلم في زواج من شاء من النساء إلى غير حد»[٥٠]. بينما ذهب مفسرون أخرون إلى أن مثنى وثلاث ورباع يفيد الجمع وهو تسعة فيباح للرجل أن يجمع بين تسع زوجات، وحجتهم في ذلك أن النبي جمع بين تسع نساء.

ولكن ما أجمعت عليه الأمة وأكد عليه معظم المفسرين هو حصر التعدد في الإكتفاء بأربع زوجات من الحرائر في وقت واحد، وبعدد لاحصر له من ملك اليمين أي الجواري أو الإماء أو السراري إضافة إلى نكاح المتعة الذي مازالت تبيحه الشيعة الإمامية إلى الآن والذي ألغي بعد تحليله بوقت قصير بأمر من النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أكّد على الغائه وتحريمه الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب.

ونكاح المتعة أو مايسمى بالزواج الموقت تعريفاً يمثل عقد رجل على إمرأة لمدة محددة وبأجر معلوم وبدون اشهار وشهود. وقد تكون مدته لنصف ساعة، وقد تكون يوماً أو أياماً، وقد تكون أكثر... حيث يمكن تجديد العقد بعد انتهاء مدة العقد الأول أو تمديد المدة لأجل معلوم حسبما يقترح الرجل وتقبله المرأة ويتفقا عليه. الرجل في زواج المتعة في حل من نفقة الزوجة، كما أن الزوجة لاترث الزوج والفرقة تقع عند إنقضاء الأجل المحدد من غير طلاق. ويجوز للرجل أن يتزوج متعة ماشاء من النساء، بمعنى ان يجمع بين أعداد لاتحصى لأنهن بمنزلة الإماء.

وزواج المتعة مسالة خلافية بين المذاهب الإسلامية، وهو برأينا لاأساس له في القرآن. وأن الذين أقروا به اعتمدوا على ألفاظ معدودات جاءت في آية من آيات التنزيل وحيدة، يقول منطوق هذه الآية: **«... فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن فريضةً ولاجناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليماً حكيماً»**[٥١].

---

(٥٠) ـ الزواج عند العرب في الجاهلية والاسلام دراسة مقارنة: الدكتور عبد السلام ترمانيني، الصفحة ٢٤٧

(٥١) ـ سورة النساء: الآية رقم: ٢٤ .

وعند الرجوع إلى ماجاء في كامل الآية والى سياقها وتسلسلها الموضوعي وما سبقها، بمعنى الرجوع إلى الآية التي قبلها (٢٣) والآية التي جاءت بعدها (٢٥) نرى أن منطوق هذه الآية والآية التي سبقتها والآية التي أتت بعدها لايخرج عن نطاق الإحصان بمعنى الزواج الشرعي الدائم المصطلح عليه اليوم والمتفق عليه بين جميع المذاهب. والتأكيد على المحرمات المتعلقة بالزواج الشرعي (الإحصان) مع السماح في التسري بملك اليمين. وأنها تنفي قطعاً زواج المتعة. وأن كلمات **«فما استمتعتم به منهن فأتوهن أجورهن»** لايدل على زواج المتعة ولاتقول بتحليله بدليل أن كلمة أجور فسرت من قبل معظم مفسري القرآن بكلمة مهور.

إلاً أن هناك عدداً من الأحاديث إذا صحت تفيد بأن النبي صلى الله عليه وسلم أحل لأصحابه ولاشك نكاح المتعة ثم نهى عنه، لكنهم اختلفوا على زمن اعطاء هذه الرخصة ومتى تم النهي عنها. منهم من قال: أن نكاح المتعة أحلَّ يوم أوطاس أي بعد فتح مكة، لكن الرسول نهى عنه بعد ثلاثة ايام(٥٢). بينما قال آخرون أن النبي نهى عن المتعة يوم خيبر(٥٣).

وقال النووي: أن المتعة رخصت لأول مرة يوم خيبر لكن الرسول نهى عنها في اليوم ذاته وأحلها ثانية يوم الفتح الذي لايفرقه الحديث عن يوم أوطاس لأنهما متقاربان جداً في الزمن ثم حرمها بعد ثلاثة ايام إلى يوم القيامة(٥٤).

وفي حديث عن جابر بن عبد الله أنه لما سئل عن المتعة أجاب: «نعم كنا نستمتع بالقبضة من التمر والدقيق الأيام على عهد رسول الله وأبي بكر حتى نهى عنه عمر»(٥٥). لكن أهم حديث يتعلق بهذا الموضوع ماجاء منقولاً عن ابن عباس، فقد روى عنه أنه قال: **«ماكانت المتعة إلا رحمة من الله تعالى رحم بها عباده، ولولا نهى عمر عنها مازنا إلا شقيّ»**(٥٦). علماً أنه روى عن بعضهم أن ابن عباس تاب وهو على فراش الموت ورجع عن قوله بالمتعة؟!

---

(٥٢) ـ صحيح مسلم: الجزء الأول، الصفحة: ٣٩٦

(٥٣) ـ المصدر السابق: الصفحة: ٣٩٦

(٥٤) ـ دراسات في اللغة والتاريخ الأقتصادي والاجتماعي عند العرب، مصدر سابق هامش الصفحة: ١٣٧

(٥٥) ـ صحيح مسلم مصدر سابق: الجزء الأول الصفحة: ٣٩٥

(٥٦) ـ تفسير القرطبي. عند تفسيره للآية ٢٤ من سورة النساء.

كما حاول البعض أن ينفي نسخ هذه الرخصة بعدما كانت محللة على القرآن الكريم إستناداً إلى الآيات التالية.

جاء في الذكر الحكيم[٥٧]:

«قد أفلح المؤمنون. الذين هم لفروجهم حافظون. إلاّ على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون».

وجاء أيضاً[٥٨]:

«والذين هم لفروجهم حافظون. إلاّ على أزواجهم أو ماملكت ايمانهم فإنهم غير ملومين. فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون».

إن منطوق هذه الآيات يعتبر المتعة غير مباحة لأنها لم تكن نكاحاً (زواجاً شرعيا) ولا ملك يمين. وحتى تكون هذه الآيات ناسخة كان من المفترض أن تكون أحدث بمعنى أنها نزلت بعد الآية رقم ٢٤ من سورة النساء المدنية التي يدعي القائلون بزواج المتعة أنها سمحت به. وهذا يناقض الواقع لأن آيات السورتين المذكورتين نزلت جميعها في مكة أي قبل سورة النساء. ولايمكن من كان سابقاً أن ينسخ ماجاء لاحقاً لعدم وجوده في السابق أصلاً، وهذا يعني أن القرآن لم يسمح بالمتعة ولم ينسخها، بل كان دائماً يؤكد على الزواج الشرعي الإحصاني وملك اليمين.

ونكاح المتعة أو مايسمى بالزواج المؤقت بل ربما سمي أيضاً بنكاح الذواق أو بالنكاح إلى أجل، كان معروفاً في الجاهلية وشائعاً بين العرب قبل الإسلام، وغالباً مايعقده التجار في أسفارهم والغزاة في غزواتهم دون شروط، القصد منه الاستمتاع بالمرأة مدة من الزمن، ويحل من نفسه دون طلاق بانتهاء أجله أو إذا أراد ذلك أحد الطرفين لأنه لم يعد يجد فيه لذة وارتياحاً. وقد عرف أيضاً عند كثير من الجماعات كالأسكيمو وهنود أمريكا الشمالية وزنوج أفريقيا الغربية والتيبت وغيرها[٥٩]...

ووجود مثل هذه العادة في أخلاق عرب الجاهلية وطباعهم المألوفة هو ما ساعد الرسول

---

(٥٧) ـ الآيات: (١ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧) من سورة المؤمنين: جميع أياتها نزلت في مكة وعددها (١١٨)

(٥٨) ـ الأيات رقم (٢٩ ـ ٣٠ ـ ٣١) من سورة المعارج، جميع أياتها نزلت في مكة وعددها ٤٤ آية.

(٥٩) ـ الزواج عند العرب.. ترمانيني، مصدر سابق، الصفحة: ٤٨

على السماح بها عند الضرورة، ولاسيما في أول الغزوات المتواترة يوم لم يكن الجيش يستصحب معه نساءه. ولولا ذلك لاستحال وجود نساء يعن أعراضهن بدريهمات أو بقبضة من دقيق أو تمر أو ثوب ويقدمون على الاستمتاع بكل سهولة ولالأحد يستغرب ذلك منهن.

جاء في صحيح مسلم(٦٠):

«قال سبرة الجهني: أذن لنا رسول الله بالمتعة يوم كان في مكة بعد أن فتحها في السنة الثانية للهجرة، فانطلقت أنا ورجل إلى إمرأة من بني عامر(٦١) كانت بكرة عيطاء. فعرضنا عليها أنفسنا فقالت مانعطي فقلت ردائي، وقال صاحبي ردائي، وكان رداء صاحبي أجود من ردائي، وكنت أشب منه. فإذا نظرت إلى رداء صاحبي أعجبها، وإذا نظرت اليّ أعجبتها ثم قالت أنت وردائك يكفيني، فمكثت معها ثلاثاً ثم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من كان عنده شيء من هذه النساء التي يتمتع بها فليخل سبيلها».

لقد استطاع الرجل المسلم الإفلات وتجاوز قيد تعدد الزوجات وحَصْرِه بأربع وهو قَيْدٌ كما ذكرنا لم يستسغه العربي ولا رغب في الخضوع له والوقوف عنده. وجاء نجاحه في التخلص من هذا القيد عن طريق الزواج والطلاق كوسيلة للتعدد. حيث أكدت النصوص الشرعية على حق المسلم في أن يطلق ويتزوج ويطلق ويتزوج إلى ماشاء شرط أن لا يجتمع لديه في وقت واحد أكثر من أربع زوجات. لذلك وجدنا بين المبشرين بالجنة وعدداً من الصحابة والتابعين وغيرهم من المسلمين من تزوج أعداداً وفيرة من الزوجات بخلاف ملك اليمين، وكان في مقدمتهم الخلفاء الراشدين.

فعلى سبيل المثال تزوج **الصديق أبو بكر** أول خليفة للمسلمين بعد الرسول أربعاً من النساء إثنتين في الجاهلية واثنتين في الإسلام هنّ: قتيلة بنت عبد العزي، وأم رومان بنت عامر أم عائشة أم المؤمنين، واسماء بنت عميس، وحبيبة بنت خارجة بن زيد توفي عنها وهي حامل.

وتزوج **عمر بن الخطاب** تسعاً من النساء هُنَّ: ١ ـ زينب بنت مظعون بن حبيب، ٢ ـ أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، ٣ ـ أم كلثوم بنت جرول بن مالك وفرّق الإسلام بينهما،

(٦٠) ـ صحيح مسلم: مصدر سابق، الجزء الأول، صفحة: ٣٩٥

(٦١) ـ لقد عرف عن نساء بني عامر أنهن كن يطفن حول الكعبة عراة حاسرات يرددن اشعاراً سفيهة؟!

٤ ـ جميلة بنت ثابت بن أبي الأفلح، ٥ ـ لُهيَّة أم ولد أنجبت له ابا المجبر، ٦ ـ أم ولد أنجبت له عبد الرحمن الأصغر، ٧ ـ أم حكيم بنت الحارث بن هشام، ٨ ـ فكيهة أم ولد أنجبت له زينب، ٩ ـ عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وهي بنت عمه.

وتزوج **عثمان بن عفان** تسعاً، هنَّ: ١ ـ رقية بنت الرسول محمد، ٢ ـ أم كلثوم بنت الرسول محمد لذلك سمي ذو النورين، وقيل: لم يتزوج في تاريخ البشرية كلها رجل من إبنتي نبي سواه، ٣ ـ فاطمة بنت غزوان، ٤ ـ أم عمرو بنت جندب، ٥ ـ فاطمة بنت الوليد بن عبد شمس، ٦ ـ أم البنين عيينه بن حصن، ٧ ـ رملة بنت شيبة بن ربيعة، ٨ ـ نائلة بنت الفرامضة بن الأحول، ٩ ـ وأم ولد أنجبت له أم البنين.

وتزوج الإمام **علي بن أبي طالب** أيضاً تسعاً من النساء هُنَّ: ١ ـ فاطمة بنت النبي محمد، ٢ ـ خولة بنت جعفر بن قيس، ٣ ـ أم البنين بنت حزام، ٤ ـ ليلى بنت مسعود بن خالد، ٥ ـ أسماء بنت عميس، ٦ ـ الصهباء أم حبيب بنت ربيعة، ٧ ـ أمامة بنت أبي العاص أمها زينب بنت النبي محمد، ٨ ـ أم سعد بنت عروة بن مسعود الثقفي، ٩ ـ ومحياة بنت امرىء القيس بن عدي. ولقد أقصرت حديثي على ذكر الزوجات الحرائر وأمهات الولد فقط، ولم أعدد الجواري والسراري اللاتي اتخذن للمتعة والتسري بهنَّ.

وبسبب اتساع الفتوحات التي حولت الغزو من داخل القبائل العربية إلى الخارج، حدث فيض كبير من النساء المخطوفات بالقوة كما ذكرنا سابقاً وهنَّ السبايا أو الأسيرات اللواتي كن يُجلبن من أصقاع المعمورة إلى مركز دولة الخلافة الإسلامية المنتصرة وأسيادها. هذا الفيض الهائل ساعد على الإنتشار الواسع للجواري وعلى زيادة عددهن. فضمت أكثر الخدور العربية ألواناً وأشكالاً من الجمال المتنوع، من بياض ممزوج بالحمرة إلى سمرة تقرب من البياض، إلى صفرة سندية وصينية ومنغولية... مما جعل حديقة الجمال التي رتع العربي في ظلّ فيئها، ونعم بدفء خدرها مترامية الأطراف شاسعة الأبعاد زاهية الأفواف فواحة الأريج يأخذ منها مايروق ذوقه العام ورغبته الطارئة، تسعفه كما بينا أحكام شرعية أدركت مافي دخيلة العربي من ولع أثير بالمرأة، ونزوع نهوم إلى الجنس. فساعدت هذه الأحكام على تنظيم فرص إشباع الغريزة الجنسية بالنسبة للرجل عن طريق الزواج المتعدد، وفرضت على المرأة الزواج الأحادي، فلا يحق للمرأة الدخول في زواج ثانٍ مادامت مسجلة شرعاً على ذمة رجل، ومالم يتم قانونياً فسخ عقد الزواج وانقضاء العدة.

وطالبت هذه الأحكام الزوجة بحسن التبعل، بمعنى أقرت سيادة مركز الزوج كما كان قبل ظهور الإسلام، ورفعته إلى مكانة المالك والرب والسيد. «لو كنت آمراً أحداً أن يسجد

لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها»[٦٢]. وجاء في الأثر أن" خير ماتقدم الزوجات لأزواجهن حسن تبعلهن. أخرج **البيهقي** في شعب الإيمان عن **علي** رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **جهاد المرأة حسن التبعل لزوجها**[٦٣].

وأخرج أيضاً عن أسماء بنت يزيد الأنصارية[٦٤] أنها قالت: يارسول الله إنكم معاشر الرجال فضلتم علينا بالجمعة والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحجّ وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسن تبعل إحداكنَّ لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله»[٦٥]. ولكن ماذا يعني حُسن التبعل؟!

كتب شهاب الدين التيفاشي[٦٦] في قادمة الجناح[٦٧] يقول:

---

(٦٢) ـ الجامع لأحكام القرآن في تفسير سورة الصافات للإمام القرطبي.

(٦٣) ـ شقائق الأترنج في رقائق الغُنج، مصدر سابق، الصفحة: ٣٤

(٦٤) ـ أسماء بنت يزيد الأنصارية: يقال لها فكيهة وتكنى أم سلمة، شهدت اليرموك، وروت أحاديث عن الرسول.

(٦٥) ـ شقائق الأترنج في رقائق الغُنج، مصدر سابق، الصفحة: ٣٥

(٦٦) ـ التيفاشي: هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يوسف التيفاشي القيسي، ولد في عام ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م في قرية تيفاش من قرى حفصة التونسية، ونشأ في كنف والده الذي كان قاضياً هناك. دخل تونس العاصمة وهو صغير السن فأخذ عن شيوخها وسافر إلى القاهرة ثم إلى دمشق وقضى مدة طويلة في الشرق ليعود بعدها إلى وطنه متولياً منصب القضاء في ظل الدولة الحفصية ومن ثم إلى مصر لتولي المنصب عينه فيها. قام التيفاشي بجولات طويلة إلى أرمينية والعراق وفارس لتقصي المعادن والأحجار قبل أن يُصنف كتابه الشهير «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار». ومن مؤلفاته الهامة (سجع الهديل في أخبار النيل» و «متعة الأسماع في علم السماع» وهو كتاب في الرقص والموسيقى عند الشعوب، وغيرها من المؤلفات. إلى جانب موسوعته الكبيرة «فصل الخطاب في مدارك الحواس لأولي الألباب» التي يعتقد أنها تضم جميع مؤلفاته. قال عنها ابن منظور أنها تتألف من أربعين مجلداً.

عُرف التيفاشي بمؤلفاته عن الجنس مثل: «نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب» و «قادمة الجناح في النكاح» ويعتقد أن «رجوع الشيخ إلى صباه في القوة على الباه» من مؤلفاته أيضاً. لقد أخذت مؤلفات التيفاشي طابعاً متنوعاً وموسوعياً غنياً غنى العصر الذي عاش فيه. وتُثير الحيرة حول كنه طاقته الإبداعية وسعة اطلاعه الجغرافي والتاريخي والطبي وثقافته الأدبية ومعرفته الحميمة بحياة الناس اليومية في عصره. توفي في القاهرة عام ٦٥١ هـ /١٢٥٣ م.

(٦٧) ـ المقصود مؤلف التيفاشي قادمة الجناح في أداب النكاح. وهو كتاب جنسي في الجماع ويعتبر من أثار التيفاشي المفقودة اليوم.

«..أجمع علماء الفرس وحكماء الهند من العارفين بأحوال الباءة على أن إثارة الشهوة واستكمال المتعة لاتكون إلاّ بالموافقة التامة من المرأة وتصنعها لبعلها في وقت نشاطه مما تتم به شهوته وتكملُ متعته من التودد والتملق، والاقبال عليه، والمثول بين يديه في الهيئات العجيبة والزينة المستطرفة التي تحرك الشهوة من ذوي الإنكسار والفتور وتزيد ذوي النشاط نشاطاً. قال: فالمرأة الفطنة الحسنة التبعل تراعي جميع هذه الأحوال وما سواها مما تتم به متعة الزوج»[٦٨].

باختصار مفيد أن حسن التبعل في الأسرة البطريركية، يعني خدمة الزوج وتأمين متعته وتحقيق لذته بأفضل الدرجات. أما عن المرأة الإنسان عن مشاعرها، عن لذتها، عن دورها كطرف متكافىء في العلاقة الزوجية فقد حولها حسن التبعل والعقلية الذكورية إلى رحم كفء منتقى يستوعب نطف الرجل كما نُقل عن عائشة إذا صحّ الحديث أنها قالت: ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تخيروا لنطفكم فأنكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم»[٦٩].

أو كما قال أبو هريرة: «قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي النساء خير (يعني الزوجات)، قال: التي تَسرُه إذا نظر وتطيعه إذا أمر ولاتخالفه في نفسها ومالها بما يكره»[٧٠].

واعتبرت حالة العزوبية براي بعض المفسرين والمشرعين، أو العزوف عن الزواج بالنسبة لمالك المهر القادر على النفقة إثماً كبيراً.

كتب صاحب العقد الفريد يقول[٧١]:

«... قال مَكْحول عن عِطية بن بشر عن عكّاف بن وادعة الهلالي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: ياعكّاف ألك إمرأة؟ قال: لا. قال: فأنت إذن من أخوان الشياطين، إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم، وإن كنت منا فانكح[٧٢] فإن سنتنا النكاح».

---

(٦٨) ـ تحفة العروس ومتعة النفوس: محمد بن أحمد التيجاني، تحقيق جليل العطية، الصفحة: ١٣٠

(٦٩) ـ سنن الدار قطني، الجزء الثالث، الصفحة:٢٩٩

(٧٠) ـ سنن النسائي، طبعة القاهرة مصطفى البابي، الجزء السادس، الصفحة: ٦٨

(٧١) ـ العقد الفريد: مصدر سابق، المجلد السابع، الصفحة: ٧٦

(٧٢) ـ أنكح: بمعنى تزوج، النكاح الزواج. وعن أبي حنيفة: «النكاح أفضل من العبادة» عن المحاضرات والمحاورات للسيوطي.

وجاء في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: **«تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة»**، وجاء عنه أيضاً **«إذا قضيتم غزوكم فالكَيْسَ الكَيْسَ»** يعني النكاح، وقال صلى الله عليه وسلم **«مسكين مسكين رجل لازوجة له، مسكينة مسكينة إمرأة لابعل لها»**(٧٣).

وعن سفيان بن عيينه عن ابراهيم بن ميسرة عن عبيد بن معمر قال: قال **رسول الله** صلى الله عليه وسلم **«من أحب فطرتي فليستنَّ بسنتي، ومن سنتي النكاح»** وعن ابن أبي نجيح قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **«من كان موسراً فلينكح فمن لم ينكح فليس منا»**(٧٤).

لذلك أصبح لدى معظم الأغنياء والصالحين الميسورين من المسلمين القادرين مالياً على الإنفاق وشراء النساء زوجات متعددات وبنين وبنات مما ساعد كما قال ويل ديورانت على «أن قلَّ البغاء ايام النبي والخلفاء الراشدين»(٧٥).

غير أن عدوى مبدأ تعدد الزوجات استشرى بشكل واسع يدعو إلى الاستغراب ويلفت النظر، حيث وصل إلى حدود المبالغة وفاق كل تصور. فقد قيل ان الحسن تزوج من تسعين امرأة(٧٦) خلال عمره البالغ خمسين عاماً. ويُنسب إلى **سلمان الفارسي**(٧٧): قوله فيه:

---

(٧٣) ـ رسائل الجاحظ: كتاب مفاخرة الجواري والغلمان، تحقيق عبد الأمير علي مهنا المجلد الثاني، الصفحة: ٦٩ .

(٧٤) ـ تحفة العروس ومتعة النفوس، مصدر سابق، الصفحة: ٥١ .

(٧٥) ـ قصة الحضارة في العالم: مصدر سابق، الجزء الثاني، المجلد الرابع، الصفحة: ١٣٩ .

(٧٦) ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ١٩١ .

(٧٧) ـ سلمان الفارسي: ولد في فارس بالقرب من اصفهان من أسرة فارسية نبيلة، ولم تعرف سنة ولادته. جذبته إلى المسيحية نزعة الزهد فتنصر بعد أن هجر المزدكية. يقال: أنه جَدَّ في البحث عن العقيدة الحقة فرحل إلى الشام ثم إلى يثرب. وفي طريقه إليها خانه بعض الأعراب الأدلاء من بني كلب وباعوه عبداً في وادي القرى أولاً ثم في يثرب لرجل يهودي من بني قريظة، ومن بعد إلى إمرأة ربما كانت من قبيلة جهنة فقام بحراسة أعنابها.

التقى بالنبي محمد بعد الهجرة فاعتنق الإسلام وأضحى من خواص الصحابة فكان أحد الثلاثة السابقين إلى الإسلام من غير العرب هو وصهيب الرومي وبلال الحبشي. أعتق من عبوديته عن طريق المكاتبة مع سيده نظير غرس ثلثمائة وَدِيَّةٍ من النخل وأربعين أوقية من الذهب واشترك في دفع هذه الفدية أخوانه في الدين الجديد. أشار على الرسول بحفر خندق في الأماكن ←

«بأبي وأمي صاحب الجفنة والخوان نكّاح النساء الحسن بن علي»[٧٨]. وأن الوليد بن عبد الملك «كان كثير النكاح والطلاق يُقال أنه تزوج ثلاثاً وستين امرأة غير الإماء»[٧٩]. ويُنقل عن المدائني ان الخليفة المذكور: «تزوج هذا العدد من النساء في خلافته التي دامت تسع سنين وكان يبنهنَّ واحدة اسمها عاتكة بنت عبد الله فلما دخل بها وأراد أن يخرج أخذت بثوبه فقال لها: ماتريدين؟، قالت: إنا إشترطنا على الحمالين الرجعة فما رأيك؟. قال: تقيمين... وأمسكها أربعة اشهر ثم طلقها»[٨٠]. وأمّا ابن الطيب وهو صباغ في بغداد عاش - كما يقول ويل ديورانت - إلى أن بلغ الخامسة والثمانين من العمر وتزوج من تسعمائة زوجة»[٨١].

ويروي إبن الأثير[٨٢]: «أن مجد الدولة البويهي ملك الري تجاوز حدود الشرع في تعدد الزوجات فجمع بين خمسين إمرأة حرّة»[٨٣]. وفي تاريخ بغداد كتب البغدادي عن أحد

← الضعيفة للمدينة فحماها من هجوم الأحزاب في غزوة الخندق. اشتهر بالزهد والتقشف وكان لا يأكل إلا من كد يمينه ويتصدق بالفائض، قال الرسول عنه: «سلمان منا آل البيت».

ولاه عمر عاملاً على المدائن، فاهتم بالصناع وتنظيمهم والدفاع عن حقوقهم مما ضايق الأغنياء والتجار فشكوه إلى عمر وشرحوا الإجراآت التي أتخذها وأضرت بمصالحهم. فعزله عمر عن منصبه ولم يوله منصباً بعد ذلك. (عن الحركات الاجتماعية في الإسلام، الدكتور أميل توما، الصفحة ٦٠). بقي سلمان بعد وفاة الرسول، الصاحب الصدوق لآل البيت أعني أتباع علي والمدافع عن حقوقهم المشروعة إلى أن توفى في المدائن في العراق سنة ٣٥ للهجرة/ ٦٥٥ ميلادية. ويُعرف قبره هناك بقبر سلمان باك، يعني سلمان الطاهر.

(٧٨) - المستطرف الجديد، مصدر سابق، الصفحة: ١٨٢

(٧٩) - الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: أسد حيدر، المجلد الأول، الجزء الأول الصفحة ١١٣ نقلاًعن الإنافة في مآثر الخلافة.

(٨٠) - المستطرف الجديد. مصدر سابق، الصفحة: ١٨٤ وما بعدها.

(٨١) - قصة الحضارة في العالم: مصدر سابق، الجزء الثاني، المجلد الرابع، الصفحة: ١٣٩

(٨٢) - ابن الأثير: إسم لثلاثة أخوة أصلهم من جزيرة ابن عمر برزوا في ميادين الفقه والتاريخ والأدب. والمقصود هنا عزالدين أبو الحسن علي (١١٦٠ - ١٢٣٤ م)، مؤرخ وكاتب عربي درس في الموصل وتوفي فيها. رحل إلى دمشق وبيت المقدس ثم عاد فاستقر في الموصل وانقطع للعلم والتأليف. له «الكامل في التاريخ» منذ الخليقة إلى ١٢٣١ ويعتبر من مصادر تاريخ القرون الوسطى في الشرق. و «أولي الأبصار» وهو تاريخ أتابكة الموصل. و «اسد الغابة في معرفة الصحابة» و («تحفة العجائب وطرفة الغرائب» و «الجامع الكبير» و «اللباب» وهو مختصر «الأنساب» للسمعاني

(٨٣) - الكامل في التاريخ. إبن الأثير، المجلد التاسع، الصفحة: ٣٧٢

المحدثين الذي أسرف في استنفاد رخصة تعدد الزوجات قال: «أن المحدث مكي بن ابراهيم البرجمي تزوج ستين امرأة»[٨٤]. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تُحصى.

ومن طريف ما رواه القالي[٨٥] في أماليه عن مبدأ تعدد الزوجات أو الزواج من أربع نساء عدا ملك اليمين ومدى إنعكاس ذلك على الحياة السوية للناس وما يشكل من تناقض أو صراع بين المتع الشرعية المسموح بها وواقع حياة الناس، وكيف أن توجهات هذا التناقض أو الصراع كانت تسير دائماً وأبداً في سمت الزواج الأحادي ولصالحه لأن سلامة المجتمع واستقرار الأسرة وسعادة الناس والسلوك الخلقي السوي كان دائماً أقوى من كل وازع إلى متعة شرعية.

كما وأن هذا الأمر ينطبق بكامل توجهاته على نكاح المتعة أيضاً. لأن التعاليم الشرعية كانت وستظل أبداً نتاج التفاعل بين الوحي الإلهي المطلق والفهم البشري المحدود باطاره التاريخي المعين. وهي بديهية تؤكد أيضاً على ان فهم المسلمين لمصادر التشريع الإلهية لابُدَّ أن يختلف باختلاف الزمان والمكان، لابُدَّ أن يختلف بدرجة تطور المجتمع وارتقاء الوعي المعرفي للمسلمين.

من طريف ما رُوِيَ حول ذلك ما كتبه أبو علي القالي في ذيل أماليه[٨٦]:

«... قال الحجاج[٨٧] يوماً وعنده اصحابه. أما إنه لايجتمع لرجل لذة حتى تجتمع اربع

---

(٨٤) ـ تاريخ بغداد للبغدادي، المجلد (١٣) الصفحة: ١١٦ .

(٨٥) ـ أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي: لغوي ولد بديار بكر عام ٩٠١ للميلاد ومات بقرطبة عام ٩٦٧ ميلادية. دخل بغداد عام ٩١٥ وانتقل إلى الموصل ثم عاد إلى بغداد وخرج منها عام ٩٣٩ ميلادية قاصداً المغرب فدخل قرطبة عام ٩٤٢ ميلادية. درس اللغة والأدب والقرآن والحديث على ابن دريد والزجاج والأخفش الأصغر وابن مجاهد وغيرهم...

عرف بسعة حفظه للغة والشعر واتباعه المدرسة البصرية في النحو. شرح المعلقات السبع، وألف: «مقاتل الفرسان» و «الإبل» و «الخيل» و «فعلت وأفعلت» و «الأمثال» و «المقصور والممدود» وغيرها. طبع له «الأمالي» و «النوادر» ويجمعان مختارات قيمة من الأخبار والأدب والشعر والمحاورات والفقه.-وأعظم كتبه «البارع»في اللغة.»

(٨٦) ـ ذيل الأمالي: لأبي علي القالي، دار الجيل لبنان، الصفحة ٤٧

(٨٧) ـ الحجاج بن يوسف الثقفي: قائد أموي مشهور ولد في الطائف سنة ٣٩ هـ/٦٦٠ ميلادية وتوفي في واسط المدينة التي أسسها في العراق سنة ٩٥ هـ/٧١٤ ميلادية. اشتغل ←

حرائر[٨٨] في منزله يتزوجهن. فسمع ذلك شاعر من اصحابه يقال له الضحاك، فعمد إلى كل مايملك فباعه وتزوج اربع نسوة، فلم توافقه واحدة منهن، فأقبل إلى الحجاج فقال: سمعتك ــ أصلحك الله ــ تقول: لايجتمع لرجل لذة حتى يتزوج اربع حرائر، فعمدتُ إلى قليلي وكثيري فبعته وتزوجت اربعاً فلم توافقني واحدة منهن: أما واحدة منهن فلا تعرف الله ولاتصلي ولاتصوم والثانية حمقاء لاتمالك، والثالثة مذكرة متبرجة[٨٩]، والرابعة ورهاء[٩٠] لا تعرف ضرَّها من نفعها، وقد قلت فيهن شعراً.

قال: هاتِ ماقلت لله أبوك. فقال:

تزوجتُ ابغى قُرَّةَ العين أربعاً ... فياليتني والله لم أتزوج[٩١]
وياليتني أعمى أصمُّ ولم أكن ... تزوجتُ بل ياليتني كنتُ مُخْدَجْ[٩٢]
فواحدة لاتعرف الله ربَّها ... ولم تدرِ ما التقوى ولاَ ما التحرجُ
وثانية حمقاء تزنى مخافةً ... تُواثبُ من مَرَّتْ به لاتُعْرِجُ
وثالثة ما إن تُوارى بثوبها ... مذكرةٌ مشهورةٌ بالتبرج
ورابعة ورهاءُ في كل امرها ... مفركةٌ هوجاءُ من نسل أهوج[٩٣]
فهنَّ طلاقٌ كُلُّهنَّ بوائنٌ ... ثلاثاً بتاتاً فاشهدوا لا أجلجُ[٩٤]

فضحك الحجاج وقال: ويلك كم مهرتهُنَّ؟ قال: اربعة آلاف ايها الأمير، فأمر له باثنى عشر ألف درهم».

← بالتعليم ثم انتقل إلى دمشق. عرف بولائه للبيت الأموي. تولى مكة والمدينة والطائف والعراق. وسع حدود الامبراطورية العربية. أدخل عدة إصلاحات في نظم النقد وشؤون الري والزراعة. اشتهر بالخطابة والقسوة في الحكم. قال عنه عمر بن عبد العزيز: «لو جاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم».

(٨٨) ـ المقصود أربع نساء شريفات لسن من الجواري.

(٨٩) ـ متبرجة: كثيرة التزين.

(٩٠) ـ ورهاء: كثيرة الشحم

(٩١) ـ قرة العين: أي ما تقر به العين وتُسَرُّ

(٩٢) ـ مخدج: ناقص الخلقة: في هذا البيت وما يليه من أبيات اقواء، وهو اختلاف حركة الروي في الاعراب، ويدرج في علم العروض ضمن عيوب القافية.

(٩٣) ـ المفركة: المرأة التي يكرهها الرجال.

(٩٤) ـ بوائن: أي طلاق نهائي لارجعة عنه. لا أجلج: لا أتردد.

كما أن الشاعر هذيل بن ميسرة من فزارة، يؤكد على أن الزواج من إمرأتين في وقت واحد تراجيديا حياتية

قال هذيل(٩٥):

تزوجتُ اثنتين لفرط جهلي ... بما يشقى به زوجُ اثنتينِ
فقلت أصير بينهما خروفاً ... أُنعَّمُ بين أكرم نعجتين
فصرتُ كنعجةٍ تُضحي وتُمسي ... تُداولُ بين اخبث ذئبتين(٩٦)
رضا هذي يُهيجُ سُخطَ هذي ... فما أعرى من احدى السخطتين(٩٧)
وألقى في المعيشة كُلَّ ضَرٍ ... كذاك الضُرُّ بين الضُرتين
لهذي ليلةٌ ولتلك أخرى ... عتابٌ دائم في الليلتين
فإن أحببت أن تبقى كريماً ... من الخيرات مملوء اليدين
فعِشْ عزباً، فإن لم تستطعه ... فضرباً في عراضِ الجحفلين(٩٨)

أجل لقد كان مبدأ تعدد الزوجات وملك اليمين ومازال تراجيديا اسرية ومجتمعية، ومعولاً عمل على زعزعة أسس العلاقات الأسرية السوية. وقد بدأ المجتمع العربي الإسلامي يلفظه تدريجياً على الرغم من مغريات المتعة الشرعية الذكورية. أو كما يقال: (مااحله الله للرجل) حتى غدت العلاقة الأسرية الأحادية هي السمة الغالبة لمنحى التطور الأسري الحالي وفي المستقبل. لأن الإقتصار على زوجة واحدة يعني توازن الحياة الأسرية وانضباطها واستقرارها وصفاءها على كافة الصعد، يعني نجاحها. ونجاح الحياة الأسرية يعني تأكيداً للذات في مجتمعيتها مما يساعد أكثر فأكثر على بناء المجتمع الأفضل وتغذيته بكل ماهو إيجابي ومثمر، ويسهم في تحديد هويته الإجتماعية بشكل ما، لأن العلاقة الزوجية ليست مجرد اتصال جنسي يهدف المتعة فقط، بل عبارة عن مؤسسة تشمل المجتمع بأسره.

---

(٩٥) ـ كتاب الأمالي: لأبي علي اسماعيل بن القاسم القالي، الجزء الثاني، الصفحة: ٣٨

(٩٦) ـ تداول: تعاقب، أي تنتقل من واحدة لأخرى.

(٩٧) ـ أعرى: أتخلص، أنجو.

(٩٨) ـ الجحفلين: الجحفل: الجيش الكثير ويقول شارح الأمالي: عراض: مصدر عارض، وعارض الجحفل معارضةً وعراضاً: إذا التقيا. يقول سيتعرض للموت والشهادة كي يستريح من الزوجتين.

اسطورة تطبيق حد الزنى

لقد بينا كيف أن التعاليم الشرعية فتحت أكثر من نافذة أمام الرجل لإشباع غريزته الجنسية، وأعطت الذين في أنفسهم غايات وميولاً شهوية شبقية حصراً ـ وما أكثرهم ـ إمكانية استغلال ماهو ظاهري من النص القرآني وماكان توضيحاً له من النص النبوي، وما أقرّه جمهور الفقهاء.

جاء في المصحف(٩٩):

«وإن خفتم ألّا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ذلك أدنى ألاّ تعولوا».

وجاء في السنة النبوية(١٠٠):

«من نكح (تزوج) فقد حَصَّن نصف دينه، فليتق الله في الشطر الآخر»، و «النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فقد رغب عني».

وعلى الرغم من أن القرآن ربط بين غياب العدل وتعدد الزوجات وأكدً على عدم امكانية تحقيق المساواة بين زوجة وأخرى: **«ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم...»**(١٠١). وفضل الإكتفاء بزوجة واحدة لتكون العلاقة الزوجية أسلم من حيث الخصوصية والحيوية والتكامل الزوجي في إطار من المودة (الحب العميق) والتواصل الإنساني اللذان يطهران الجسد المادي ويلبسانه اللذة الروحية ونشوة الاستقرار والدعة وراحة البال، وصفاء النفس «هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها..»(١٠٢). و **«من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون»**(١٠٣). وجعل من طرفي هذه العلاقة كلاً

---

(٩٩) ـ سورة النساء: الآية رقم: ٣

(١٠٠) ـ الزواج الإسلامي السعيد وأداب اللقاء بين الزوجين للإمام أبي حامد محمد الغزالي، الصفحة: ١٦ والصفحة: ٢٩

(١٠١) ـ سورة النساء: الآية رقم: ١٢٩

(١٠٢) ـ سورة الأعراف: الآية رقم: ١٨٩

(١٠٣) ـ سورة الروم: الآية رقم: ٢١

متوحداً، بمعنى كل طرف مطابق للطرف الآخر ومساوي له ومتكامل معه ومعزز لموقفه من خلاله حيث الحياة تزهو وتتأنسن من خلالهما: «هُنَّ لباس لكم وأنتم لباس لهُنَّ»[١٠٤].

إلاّأن الشريعة اعطت للرجل مجالاً واسعاً كما ذكرنا في مسألة تعدد الزوجات عندما أكدت على ماهو ظاهري مرحلي أو استثنائي في فهم النص لأن الأصل في الإسلام هو عدم التعدد.

فقد رُوي في المأثور[١٠٥]:

«.. ان النبي صلى الله عليه وسلم غضب حين علم أن علي بن أبي طالب هَمَّ أن يجعل لفاطمة ضرة، فقام في المسجد خطيباً وقال: إنما فاطمة بضعة مني، يريبني مايريبها، ويؤذيني مايؤذيها. فلما سمع علي ذلك امتنع ولم يتزوج إلا بعد وفاة فاطمة».

لكن الشريعة بتأكيدها كما قلنا على الظاهري المرحلي سمحت للرجل المسلم بالزواج من عدة نساء بينهن من يعتنقن ديانات كتابية أخرى[١٠٦]. **« اليوم أحلّ لكم الطيباتُ وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم وطعامكم حلٌّ لهم والمحصناتُ من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولامتخذي أخدان»**[١٠٧].

وكما ذكرنا سمحت كذلك بالتسري بالجواري والاماء والسبايا من مختلف الأجناس والأشكال والألوان ويجيء هذا السماح بشكل خاص لذوي النفوذ وأصحاب الشأن الذين تتوفر لديهم الإمكانات المادية في أن يطأوا ما لانهاية له من النساء. هذا ما يجعل الزوجة تفقد الشعور بالأمن والطمأنينة والاستقرار في منزل الزوجية، كما ويجعلها تعاني من عقدة الخوف الدائم على حياتها ومصيرها في مجتمع أثبت تبعيتها المعنوية والاقتصادية للرجل، وولد لدى البعض إنطباعاً خلبياً مفاده الاستغناء عن العلاقات الجنسية غير المشروعة كالبغاء والزنى كما سبق وذكر ويل ديورانت.

---

(١٠٤) ـ سورة البقرة: الآية رقم ١٨٧

(١٠٥) ـ سير أعلام النبلاء، الجزء الثاني، الصفحة: ٨٨

(١٠٦) ـ لقد سمحت الشريعة للرجل المسلم بالزواج من كتابية دون أن يَفرُضَ عليها التخلي عن دينها. وهذا يعني أن يكون للأولاد أم وجد وجدة وأخوال وخالات من ديانة كتابية أخرى وما يتبع ذلك من علاقات أسرية واجتماعية. بينما حرمت على المرأة المسلمة الزواج من كتابي إلّا إذا تخلى عن دينه وأعلن اسلامه.

(١٠٧) ـ سورة المائدة: الآية رقم خمسة.

ولكن هل من ضرورة تستوجب على الرجل القادر مالياً وجسدياً أن يسعى بعد كل ذلك وراء الرغبات الجنسية غير المشروعة بعد أن إئتزرت هذه الرغبات إزار الشرعية وجيرت النص الديني لصالح شهوة الرجل فحولت المرأة إلى فاكهة لذة أو عكاك جماع كما كان يحب أن يسميها الخليفة الأموي العاشر هشام بن عبد الملك؟!

كتب الجاحظ يقول(١٠٨):

«كتب هشام بن عبد الملك إلى عامله على المدينة: **أما بعد فاشتر لي عِكاك النيك**(١٠٩).

قال: وكان له كاتب مديني ظريف فقال له: ويحك ماعكاك النيك؟!

قال: الوصائف، فوجه إلى النخاسين فسألهم عن ذلك،

فقالوا: عكاك النيك الوصائف البيض الطوال، فاشترى منهنّ حاجته ووجه بهن إليه».

هل هناك ضرورة للزنى في مجتمع تحصّن وراء صلابة الفهم الذكوري للنص الديني، وجعل من جسد المرأة غذاءً شهوياً لاهباً يؤجج رغبات الجسد الذكوري ويطفىء ظمأه الجنسي في آن واحد بعد أن حول الأنثى إلى سلعة جنسية يتم تبديلها أو تغييرها كأي سلعة أخرى من قبل الرجل صاحب حق المبادرة في عقد القران وفي فسخه، كما كان يقال عن الحسن بن علي بن أبي طالب أنه ربما عقد على أربع في وقت واحد وطلق أربعاً في وقت واحد واستبدل بهنّ»(١١٠).

أو كما قيل عن المغيرة بن شعبة(١١١)، أنه كان يجمع بين أربع نساء فإذا ملهُنّ جمعهن وقال لهن: أنتن حسنات الأخلاق طويلات الاعناق، ولكنني رجل مطلاق، فأنتن الطلاق،

---

(١٠٨) ـ رسائل الجاحظ، كتاب مفاخرة الجواري والغلمان، مصدر سابق الجزء الثاني الصفحة: ٩١

(١٠٩) ـ عكاك النيك: حرارته.

(١١٠) ـ تاريخ الخلفاء للإمام السيوطي، الصفحة: ١٩١

(١١١) ـ المغيرة بن شعبة: هو المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي ويكنى بأبي عبدالله، كان رجلاً طويلاً أعور أصهب الشعر من كبار الصحابة؟. شهد بيعة الرضوان وشهد اليمامة وفتوح الشام واليرموك والقادسية وولاه عمر على البصرة. وكان من أولي المكيدة والدهاء، قيل في وصف دهائه: لو أن مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بمكرٍ لخرج من أبوابها كلها. توفي في الكوفة وهو أمير عليها بالطاعون سنة خمسين للهجرة في خلافة معاوية.

ويتزوج اربعاً غيرهن ثم يطلقهن معاً حتى بلغ عدد من تزوج من النساء سبعين امرأة(١١٢).

أعتقد أن من يقترف الزنى رغم هذا كله فهو شاذ الطبيعة يحتاج إلى علاج أكثر من حاجته إلى عقاب، يحتاج إلى مصح لمعالجة إدمان بهيمية نزواته وشبقه أكثر من الحاجة إلى تطبيق حدّ الزنى بحقه، وهو حَدٌّ كما نعلم يستحيل تطبيقه بدون شهود أربعة يرون العملية الجنسية تتم كالميل في المكحلة والرشأ(١١٣) في البير. ولو شهد ثلاثة منهم وشهد الرابع خلاف ذلك أو تراجع أحدهم عن شهادته أقيم على الشهود الباقين حَدّ القذف وحرموا من حقوقهم المدنية: «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولاتقبلوا لهم شهادةً ابداً وأولئك هم الفاسقون»(١١٤).

وهذا ماجرى مع الصحابي أبي بكرة وأصحابه عندما شهد أمام الخليفة عمر بن الخطاب على المغيرة بن شعبة بالزنى، بأنه رآه بين رجلي امرأة تُدعى أم جميل إبنة الأفقم من بني عامر بن صعصعة كانت غاشية للمغيرة وتغشى الأمراء والأشراف، رآه وهو يدخله ويخرجه كالميل في المكحلة. وشهد بمثل ذلك شبل بن معبد البجلي ونافع بن كدة. أما الشاهد الرابع ويقال له زياد فشهد أنه رآه بين رجلي امرأة، ورأى قدمين مخضوبتين تخفقان، واستين مكشوفين، وسمع حفزاناً شديداً لكنه لم ير كالميل في المكحلة، ولاتعرف على المرأة بل أشبهها بامرأة المغيرة حيث ادعى المغيرة بأنه كان مع زوجته. فأمر عمر بجلد الثلاثة حَدّ القذف(١١٥).

ومن طريف ماكتبه عن هذا الموضوع صاحب العقد الفريد قال(١١٦):

«استشهد أعرابي على رجل وامرأة زنيا فقيل له: أرأيته داخلاً وخارجاً كالمرود في المكحلة؟ فقال: والله لو كنت جلدة أستها مارأيت ذلك»

---

(١١٢) ـ الزواج عند العرب في الجاهلية والاسلام دراسة مقارنة: مصدر سابق الصفحة: ٢٥٨ نقلاً عن سير أعلام النبلاء.

(١١٣) ـ الرشأ: الحبل.

(١١٤) ـ سورة النور، الآية رقم: ٤

(١١٥) ـ تاريخ الطبري: محمد بن جرير الطبري، محمد أبو الفضل ابراهيم، المجلد الرابع، الصفحة: ٦٩ وما بعدها

(١١٦) ـ العقد الفريد: مصدر سابق، المجلد الثامن، الصفحة: ١٣٣

الجواري في الشرع وحرمة النسب

لقد عمل الإسلام كما ذكرنا على تصفية ماتبقى من رواسب النظام الأمومي الذي كان سائداً لدى القبائل العربية في فترة ماقبل الإسلام لصالح النظام القبلي القائم على الأسرة البطريركية. بمعنى أن تعاليمه جاءت تأكيداً على إنتصار البطريركية على الماتريركية وتثبيتاً لدعائم نظام الأسرة الأبوية. وبذلك فقدت كل علاقات القرابة من جهة الأم قوتها، وصار يعترف فقط على العلاقة المحددة من جهة الأب التي أصبحت محور القرابة وعمود الصلة لمعرفة حامل استمرارية نسب الأب، ومن أجل تقرير وارث أملاكه «أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله»(١١٧).

واعتبرت آيات التنزيل أن الإنكار على امرئ (رجل أو امرأة) نسبه هو بمثابة قذف أو اتهام وهو جريمة لها حدٌّ معلوم يُعاقب بموجبه القاذف أو المتهم كما مرَّ معنا في الآية رقم ٤ من سورة النور بعقوبة أصلية هي ثمانون جلدة ثم عقوبة تبعية هي عدم قبول شهادته أبداً. بمعنى حرمانه من حقوقه المدنية وتحويله إلى مواطن من الدرجة الثانية لمجرد أنه قال لشخص ما ياابن الزانية أو من خلال قذف أمه بالزنى.

وأن معنى القذف في هذه الآية لايقتصر على النساء فحسب، بل إن قذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى كما أجمع الفقهاء. لأن عقاب القذف يكون في أمرين، الأمر الأول أن يقذفها أو يقذفه بوطء يلزم فيه الحد وهو الزنى أو اللواط. وثانياً: بنفيه من أبيه مع عجز القاذف على إثبات ذلك بأربعة شهود.

يُروى «عن الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المسلمون عدول بعضهم على بعض إلاَّ محدوداً في القذف»(١١٨).

والفاقد للعدالة فاقد بالتالي للكفاية والأهلية وموسوم بالفسق طوال حياته حتى ولو تاب إلى الله تعالى، فهذه التوبة برأي الأحناف تنفعه في الآخرة إذ يُسقط عنه الذنب أما في الدنيا

---

(١١٧) ـ سورة الأحزاب: الآية رقم: خمسة.

(١١٨) ـ أحكام القرآن للإمام أبي بكر الجصاص، الجزء الثالث، الصفحة: ٢٦

فعلى الحاكم أو القاضي أن يقيم عليه الحد مع كافة توابعه.

وأكدت السنة النبوية أيضاً على أهمية النسب حين ساوت بين من ادَّعى إلى غير أبيه وبين من ارتكب أكبر الكبائر ومارس أخبث الفواحش، إذ حرمتهما ليس فقط من دخول الجنة، بل ومن امكانية تنسم ريحها.

جاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل[١١٩]:

«عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من ادعى إلى غير أبيه فلن يُرح رائحة الجنة، وريحها يوجد من مسيرة سبعين عاماً».

ويقال أن عمر بن الخطاب كان يتشدد في أمر التأكيد على أهمية النسب إلى الأب، ويكفر من ينفيه عن نفسه أو يتنصلُ منه. وأن آية كانت توجد في القرآن تحكم بذلك ثم أُسقطت أو نُسخت، وأن عدم وجودها في المصحف لايعني أن الأسلام تساهل في هذا الأمر، بمعنى أن الرجم حكم قرآني نُسخ تلاوة وبقي حكماً.

روى ابن عباس أن عمراً قال وهو على المنبر[١٢٠]:

«.. ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله آية الرجم فقرأناها، وعقلناها ووعيناها، فلذا رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده. فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله مانجد آية الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فضيلة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال[١٢١]... ثم إناً كنا نقرأ فيما نقرأ من كتاب الله: أن لاترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم، أو أن كفراً بكم أن ترغبوا عن آبائكم».

واعتبرت الأحكام الشرعية أن مايستولده الرجل الحر من السبايا والجواري والإماء من أولاد

(١١٩) ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل: تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، الحديث رقم: ٦٨٤٧

(١٢٠) ـ عن صحيح البخاري الجزء الثامن، الصفحة: ٢٦ ، وعن صحيح مسلم، الجزء الخامس الصفحة: ١١٦ ، وعن مسند الإمام أحمد الجزء الأول، الصفحة: ٤٧

(١٢١) ـ ذكر اليعقوبي عن عمر قوله: «والله لقد قرأت في كتاب الله: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عليم حكيم فلا تهلكوا عن الرجم وقد رجم رسول الله ورجمنا ولولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتهما بيدي فقد قرأتها في كتاب الله» عن تاريخ اليعقوبي، المجلد الثاني، الصفحة: ١٦٠

هم أبناء أحرار وشرعيون. لأن أولاد الأمة إذا اعترف بهم المولى المسلم هم كأولاد الحرة متساوون في الحقوق والواجبات ويرثون والدهم أسوة بأخوتهم وأخواتهم الذين ولدوا من الحرائر. بمعنى يُصبحون ملكاً للأب وينسبون إليه حتى ولو كان مجيئهم سفاحاً عن طريق علاقة غير مشروعة تحرمها الشريعة الإسلامية.

كتب ابن قيم الجوزية يقول(١٢٢):

« عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حين نزلت آية الملائكة: أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس فيهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رؤوس الأولين والاخرين»

وجاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل(١٢٣):

«عن محمد بن زياد قال: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت أبا القاسم يقول: **الولد لرَبِّ الفراش وللعاهر الحجر»**.

فإذا فقد الشخص نسبه لم تعد له أدنى قيمة في مجتمعه. أما إذا كان له نسب معلوم فالأمر على خلاف ذلك ولا اعتبار كما رأينا لشرعية العلاقة بين الرجل والمرأة. وهذا أمر يعود إلى تقديس النسب في العرف القبلي العربي السابق للإسلام، وأن الإسلام وافق ذلك العرف.

وهنا لابُدَّ لنا قبل الإسترسال في هذا الموضوع من توضيح معنى كلمة أو مفهوم جارية من وجهة نظر الشريعة الإسلامية؟!.. بمعنى على مَنْ من النساء تطلق هذه التسمية ومتى...؟ وماهي القواعد والأسس التي تنظم علاقة هذه المخلوقة مع المجتمع وفق مايتطلبه سياق البحث فقط؟!.

لقد وضع أصحاب المذاهب الفقهية والمشرعون قواعد وأسس يتوضح بموجبها مصطلح أو مفهوم «جارية» وكل مايساعد على تنظيم حياة الجواري وأحوالهن الشخصية من رق وعتق وزواج وطلاق وغيرها... في المجتمع العربي الإسلامي. وبموجب هذه القواعد نجد أن الجارية بموجب الشرع الإسلامي هي:

---

(١٢٢) ـ أخبار النساء لإبن قيم الجوزية شرح وتقديم عبد الأمير علي مهنا، الصفحة: ١٤٢

(١٢٣) ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر، الحديث رقم: ١٠٢٢

أولاً: كل امرأة أُخذت أسيرة في حرب وقعت بين المسلمين والكفار. أو نقلت قسراً من بلاد العدو شريطة أن لا تكون مسلمة، لأنه لايجوز لأي سبب من الأسباب أن تُسبى المسلمة وتُسترق، كما لايجوز أن يُسترق أي كافر إلاّ إذا كان عدواً محارباً للمسلمين.

ثانياً: كل أنثى تلدها أمة مملوكة ويكون أبوها عبداً أو غير مالك لها، مسلمة كانت أم كتابية. بمعنى كل من كانت أمة قبل الإسلام ظلّ أنسالها كذلك بعد الإسلام.

ثالثاً: كل أنثى تؤخذ شراءً من اسواق الرقيق عن طريق النخاسين الذين يأتون بالرقيق من البلدان الغربية ويتاجرون به سواء أكانت مسلمة أم كتابية.

وأقرّ الشرع حق استفراش الإماء من قبل مالكيهن من المسلمين ولو كُنَّ مشركات أو وثنيات أو عبدة كواكب لأن آيات القرآن أباحت استفراش الإماء إباحة مطلقة. وإذا لم تلد الأمة من سيدها وباعها أو وهبها فيكفي أن تعتدَّ بحيضة واحدة لاستبراء الرحم. لأن الأمة المستفرشة من قبل سيدها لاتُعدُّ محصنة فلا يقع عليها طلاق ولايُطبق عليها حَدُّ الزنا **«ليس على أمة حَدٌّ حتى تحصن»**[١٢٤]. حديث رواه ابن كثير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم.

ومنع الشرع على الجواري أن يلبسن الحجاب، بمعنى أن يتحجبن كالحرائر. روى البغوي عن أنس قال: **«مرت بعمر بن الخطاب جارية مقنعة فعلاها بالدرة وقال: يالكاع أتتشبهين بالحرائر ألقِ القناع»**[١٢٥].

وكان من حق المشتري أن يجرد الجارية من بعض ملابسها، وله بعد الإتفاق على عملية البيع الحق أيضاً أن ينظر إلى جميع بدن الجارية للتأكد من عدم وجود عيب جسدي وإلا فله أن يردها إلى بائعها بموجب العيب الذي فيها. أليست عملية بيع وشراء الرقيق «تجارة من التجارات تقع عليه المساومات والمشاراة بالثمن، ويحتاج البائع والمبتاع إلى أن يستشفا العِلق[١٢٦] ويتأملاه تأملاً بيناً يجب فيه خيار الرؤية المُشْتَرَط في جميع البياعات[١٢٧] وإن

(١٢٤) ـ المرأة في القرآن والسنة: محمد عزة دروزة، الصفحة: ١٤٤

(١٢٥) ـ المصدر السابق، الصفحة: ٢٦٠

(١٢٦) ـ العِلْقُ: النفيس من كل شيء.

(١٢٧) ـ البياعات: جمع بياعة، وهي السلعة.

كان لايعرف مبلغه بكيل ولاوزن ولاعدد ولامساحة، فقد يُعرف بالحسن والقبح»[١٢٨].

وساعدت الشريعة على ذلك حيث اعتبرت «مكالمة القيان ومفاكهتهن ومغازلتهن ومصافحتهن للسلام ووضع اليد عليهن للتقليب والنظر حلال مالم يَشُب ذلك مايحرم»[١٢٩]. إنطلاقاً من الآية الكريمة: «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللمَمَ[١٣٠] إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تُزَكُّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى»[١٣١].

كتب ابن كثير في تفسير هذه الآية يقول[١٣٢]:

«قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: مارايت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لامحالة فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمني وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه. «أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الرزاق به. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى أخبرنا ابن ثور، حدثنا معمر عن الأعمش عن أبي الضحى أن ابن مسعود قال: زنا العينين النظر، وزنا الفم التقبيل، وزنا اليدين البطش، وزنا الرجلين المشي ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه فإن تقدم بفرجه كان زانياً وإلاّ فهو اللمم وكذا قال مسروق والشعبي. وقال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي قال: سألت أبا هريرة عن قول الله (إلا اللمم) قال: القبلة والغمزة والنظرة والمباشرة فإذا مسَّ الختان الختان فقد وجب الغسل وهو الزنا».

لذلك كان الخليفة معاوية كما يقول الجاحظ عندما يؤتى بالجارية «يجردها من ثيابها

---

(١٢٨) - رسائل الجاحظ كتاب القيان، تحقيق وشرح عبد الأمير على مهنا، الجزء الثاني، الصفحة: ١٠٧

(١٢٩) - المصدر السابق، الجزء الثاني، الصفحة: ١٠٨

(١٣٠) - اللَّمَمُ: مقاربة الذنب أو مادون الكبائر من الذنوب. قال عبدالله بن مسعود: «إذا دنا الرجل من المرأة فإن تقدم ففاحشة وأن تأخر فلمم» وقال غيره من الصحابة: القبلة واللمس، وقال آخرون: الإتيان فيما دون الفرج. ويقال أيضاً: هو مقاربة المعصية من غير مواقعة. عن لسان العرب. إبن منظور المصري مادة لمم المجلد الثاني عشر، الصفحة: ٥٤٩

(١٣١) - سورة النجم: الآية رقم: ٣٢

(١٣٢) - تفسير القرآن العظيم: للإمام اسماعيل بن كثير، المجلد الرابع، الصفحة: ٢٥٥ وما بعدها.

بحضرة جلسائه ويضع القضيب على رَكَبها[١٣٣]ثم يقول: إنه لمتاع لو وجد متاعاً ثم يقول لصعصعة ابن صوحان[١٣٤]: خذها لبعض ولدك فإنها لاتحِلُّ ليزيد بعد أن فعلت بها مافعلتُ[١٣٥].

وفرض الشرع بعض القيود في معاشرة الإماء. فحرم على الزوج الاقتراب من أختين والأم وابنتها والعمة وابنة أخيها وغيرهن من ذوي الرحم المحرم جرياً على السُنة المتبعة في النكاح الرسمي. كما حرم على رجلين أن يشتريا جارية فيقتربا منها معاً. ومنع استمتاع الأمة لغير سيدها أو اجبارها على البغاء كما كان شائعاً عند العرب قبل الإسلام. وأقرّ عدم زواج العبد بسيدته، وامكانية تزوج العبد بامرأة حرة. ولكن في حال تملك الحرة لزوجها العبد أقرت الشريعة فسخ عقد النكاح هذا واشترطت إجراء عقد نكاح جديد لعودة حالة الزوجية بينهما.

وتكرمت هذه الأحكام على الأم الجارية أو السبية التي تلد من مالكها ولداً يعترف به سيدها، إذ رفعتها من مرتبة الجارية إلى مرتبة أم ولد. وهذا يعني أن والد ابنها لايجوز له أن يبيعها أو أن يهبها. وأنها سوف تصبح حرة بعد وفاته. فلا يرثها الوارثون ولايستدها الدائنون.

جاء في المأثور[١٣٦]:

«أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أيما امرأة ولدت من سيدها فهي معتقة عن دبر منه» أي بعد وفاته، حديث أخرجه الإمام أحمد وابن ماجة.

---

(١٣٣) ـ الرَكَبُ: بالتحريك، منبت العانة.

(١٣٤) ـ صعصعة ابن صوحان: توفي سنة ٥٦ للهجرة/ ٦٧٦ ميلادية. هو صعصعة بن صوحان بن حجر بن الحارث العبدي. من أهل الكوفة وسيد من سادات عبد القيس. ولد في دارين (قرب القطيف) وكان خطيباً بليغاً عاقلاً له شعر. شهد صفين مع علي، وله مع معاوية مواقف. قال الشعبي: كنت أتعلم منه الخطب. نفاه المغيرة من الكوفة إلى جزيرة «أوال» في البحرين بأمر من معاوية فمات فيها عن نحو سبعين عاماً. نقلاً عن الأعلام للزركلي، المجلد الثالث، الصفحة: ٢٠٥

(١٣٥) ـ رسائل الجاحظ، كتاب القيان: مصدر سابق، الجزء الثاني، الصفحة: ١٠٢

(١٣٦) ـ المرأة في القرآن والسنة، مصدر سابق، الصفحة: ١٩٠

وسمحت هذه الأحكام للسيد أن يزوج أَمَتَه من عبد له وفي مثل هذه الحال يكون الأولاد الناتجون عن الزواج ملكاً للسيد يتصرف بهم وبوالديهم كما يريد شريطة عدم التفريق في حال المبيع بين الزوج وزوجته وأبنائهما. إلاَّ أن هذه الأحكام أعطت الحق كما يُقال لمالك الأمة في أن يستردها إذا اشتهاها بعد أن يكون قد زوجها من عبد له.

جاء في المستطرف الجديد مايلي[١٣٧]:

«... إذا زوَّج الرجل عبده من أمته (جاريته) ثم اشتهاها قال له: اعتزلها.

فإذا طمثت وطئها، ثم يردها عليه إذا شاء».

ولكن ماهو الحل عندما يكون الرجل المسلم الحر غير قادر على الزواج من حرة بسبب فقره وضيق ذات يده، أو على امتلاك الجواري والتسري بهنَّ؟!.. إن التمسك بالعفة والتوكل على الله حتى يغنيه من فضله هو الحل الأمثل لمثل هؤلاء الرجال.

جاء في التنزيل[١٣٨]:

«وليستعفف الذين لايجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله».

أما إذا خشي المسلم الحر الفقير على نفسه عَنَتَ الشهوة، فقد رخصت له الشريعة الزواج من أمة صالحة مؤمنة «الزواج من إماء غير مؤمنات غير جائز» ليست ملكاً لأبويه بعد أن يدفع لسيدها الصداق المتفق عليه شريطة أن لايكون متزوجاً من حرة، وليس لديه مالاً يكفي لصداق حرة. بحيث يكون هذا الزواج أخف مؤونة عليه من زواج الحرائر واحفظ لنفسه ودينه. وكل زواج من هذا النوع لايتم بموافقة مولى الأمة يعتبر لاغياً.

عن أبي داوود والترمزي، عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **«أيما عبد تزوج بغير اذن مواليه فهو عاهر، وفي رواية أخرى نكاحه باطل»**[١٣٩]. وجعلت الشريعة حد الزنا على الأمة المتزوجة بعقد ومهر نصف حدِّ المرأة الحرة الحصان.

---

(١٣٧) ـ المستطرف الجديد: هادي العلوي، الصفحة: ١٧٩ نقلاًعن مفتاح الكتب الأربعة الشيعية.

(١٣٨) ـ سورة النور: الآية رقم: ٣٣

(١٣٩) ـ المرأة في القرآن والسنة: مصدر سابق، الصفحة: ١٨٧

جاء في التنزيل[140]:

«ومن لم يستطع طولاً[141] أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بأيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهُنَّ بـإذن أهلهنَّ وآتوهُنَّ أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا احصنَّ فإن آتين بفاحشة فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت[142] وان تصبروا خير لكم والله غفور رحيم».

ويبدو أن جملة (وإن تصبروا خير لكم) تنطوي على الحثّ على الصبر وعدم التسرع في الزواج من الإماء، ومحاولة تحمل عنت الشهوة ماأمكن. علماً أن هذا الحل قد يتسم بالمثالية الأخلاقية، فهو إلى العفة ومكارم الأخلاق أقرب منه إلى الحياة الواقعية، لأنه في كلا الحالتين غير مريح من الناحية الإنسانية.

حلٌّ قد يترك الذين لايملكون طولاً واللواتي أباؤهن لايملكون شروى نقير فريسة للمؤثرات الاجتماعية وتوترات الكبت الجنسي وانحرافاته في مجتمع يزداد التفاوت الطبقي فيه ويشتد بين الأغنياء والفقراء، ويتعمق التمايز الإقتصادي والإجتماعي بين فئاته وشرائحه الإجتماعية المختلفة.

الجنسانية الذكورية في بعدها الأخروي

هذا على الأرض مع الناس في حياتهم الفانية، أما في دار القرار: **«ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاعٌ وأن الآخرة هي دار القرار»**[143]. فقد تمت الدعوة إلى صيغ دينية تخفف من حدة هذا التناقض القائم على الأرض بين من لايملكون طولاً ومن يملكون، وتساعد على تكثيف عملية الجذب الاغرائي إلى حظيرة الدين والإخلاص لأوامر الله ونواهيه من خلال

---

(١٤٠) ـ سورة النساء: الآية رقم: ٢٥

(١٤١) ـ الطَولْ: السعة والقدرة.

(١٤٢) ـ العَنتْ: المشقة، الشدة، بمعنى يُسمح نكاح الإماء لمن لا يملك مهر الحرة الحصان، وخاف على نفسه الوقوع في الزنى وشقَّ عليه الصبر عن الجماع، مع تفضيل الصبر ومجاهدة النفس. نقلاً عن تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير، المجلد الأول الصفحة: ٤٧٨ .

(١٤٣) ـ سورة غافر: الآية رقم: ٣٩

إبعاد المتقين عن متع دنياهم الرخيصة اللامُطالة ودعوتهم إلى متعٍ أبقى وأكثر إثارة وتنوعاً بهناآتها المطلقة في دار القرار.

خاصة وأن الله كان يعلم أن الأنثى اللعوب الفاتنة العَروب(١٤٤) هي جنة الرجل التي يسعى إلى امتلاكها في دنياه ليخلد إليها ويستمتع بمفاتنها وأنه مستعد تحت تأثير سحر عينيها وتكسير أهدابها، ورخيم صوتها، وعذب حديثها ودفء بوحها، للتضحية بكل شيء مهما كان.

فدعا عباده المتقين إلى «...جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين»(١٤٥). تضم في رحابها العطرة النضرة، وتحت ظلال أفيائها الوارفة الخيرة «كواعب أترابا»(١٤٦)، بمعنى نواهد أي أثدائهنّ نواهد لم تتدلّ كما يقول إبن كثير لأنهنّ أبكار عُربٌ أتراب في سنٍ واحدة(١٤٧)، «**قاصرات الطرف لم يطمثهن انسٌ قبلهم ولاجان**»(١٤٨).

كتب إبن كثير في تفسير هذه الآية يقول(١٤٩):

«قاصرات الطرف: غضيضات عن غير أزواجهن فلا يرين شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهنّ... لم يطمثهن إنس قبلهم ولاجان: أي بل هُنّ ابكار عُرُبٌ أتراب لم يطأهن احد قبل ازواجهن من الإنس والجن».

---

(١٤٤) ـ العَروب: من العُرُب وهي الغِنجَةُ. عن ابن جرير الطبري في تفسيره، العروب هي الشَكِلَة بلُغة مكة، المغنوجة بلغة المدينة. وأخرج بن جرير عن ابن عباس قال: العُرُب: المتحببات المتوددات إلى أزواجهن. وقال اسحاق بن عبدالله بن الحارث النوفلي: العروب من النساء هي الخفرة المبتذلة لزوجها، وانشد:

يَعْرُبْنَ عند بعولهنّ إذا خلوا　　　وإذا هُمُ خرجوا فهُنّ خِفارُ.

عن شقائق الأترنج في رقائق الغُنج للعلامة جلال الدين السيوطي تحقيق عادل العامل، الصفحة: ٢٦ وما بعدها.

(١٤٥) ـ سورة آل عمران: الآية رقم: ١٣٣

(١٤٦) ـ سورة النبأ: الآية رقم: ٣٣

(١٤٧) ـ تفسير القرآن العظيم لإبن كثير، مصدر سابق، المجلد الرابع، الصفحة: ٤٦٥

(١٤٨) ـ سورة الرحمن: الآية رقم: ٥٦

(١٤٩) ـ تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، المجلد الرابع، الصفحة: ٢٧٨

انها الدعوة إلى جنة يستمتع الرجل المسلم فيها بمفاتن الجسد الأنثوي المثير كأنه اللؤلؤ الرطب في بضاضته وبياضه وصفائه، أو كما يُروى عن ابن أبي حاتم... عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة لَيُرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يُرى مخها»[150].

ليس هذا وحسب بل ليستمتع بسحر البكورة الدائمة. كلما وُطِئَتْ المرأة رجعت بكراً، لأن المرأة البكر هي المفضلة دائماً كما جاء في المأثور أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواهاً وأنتق ارحاماً (أكثر ولادة) وأسخَنُ اقبالا (فروجاً)، وأقلُّ خباً (اي خداعاً) وأرضى باليسير من النفقة»[151].

إنها الدعوة كذلك إلى جنة تحافظ الشهوة فيها على عنفوان إيقاعها، واللذة على سُلَّمية ارتقائها، والفحولة على قوة رهصها واندفاعها، والإغراء الأنثوي ذو الصفة الإلهية على جاذبيته من خلال تنوع الأجساد والجمال الطاهر واللذة الصافية الحلال التي تغمر الجسد وتسمو عن وظيفة الاخِصاب للرحم الأنثوي كوظيفة إجتماعية دنيوية.

قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا مصعب بن ابراهيم بن حمزة الزبيري ... عن عاصم ابن لقيط قال: إن لقيط بن عامر خرج وافداً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلتُ: يارسول الله فعلى مانطلع من الجنة؟ قال صلى الله عليه وسلم: **«على أنهار من عسل مصفى وأنهار من خمر مابها صداع ولاندامة، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير أسن وفاكهة لعمر إلهك ماتعلمون خيراً من مثله: وأزواج مطهرة»**. قلت يارسول الله: أو لنا فيها أزواج مصلحات؟ قال: **«الصالحات للصالحين تلذونهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذوا بكم غير أن لاتوالد»**[152].

وجاء في التنزيل[153]:

«إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون. هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون. لهم فيها فاكهة ولهم مايدعون».

---

(١٥٠) ـ المصدر السابق، المجلد الرابع، الصفحة: ٢٧٨

(١٥١) ـ الجنس في القرآن: ابراهيم محمود، الصفحة: ١٣٩

(١٥٢) ـ تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، المجلد الرابع، الصفحة: ١٧٦

(١٥٣) ـ سورة يس: الآيات رقم: ٥٥ ـ ٥٦ ـ ٥٧

كتب ابن كثير في تفسير هذه الآيات يقول(١٥٤):

«قال عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن المسيب وعكرمة والحسن وقتاده والأعمش وسليمان التميمي والأوزاعي في قوله تبارك وتعالى: إن اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون، قالوا شغلهم إفتضاض الأبكار. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عنه (في شُغل فاكهون) أي بسماع الأوتار. وقال أبو حاتم لعله غلط من المستمع وإنما هو افتضاض الأبكار. وقوله عزَّ وجلَّ (هم وأزواجهم) قال مجاهد وحلائلهم (في ظلال) أي في ظلال الأشجار (على الأرائك متكئون) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ومحمد بن كعب والحسن وقتاده والسدي وحصيف (الأرائك) هي السرر تحت الحجال (قلت) نظيره في الدنيا هذه التخوت تحت البشاخين والله سبحانه وتعالى أعلم. وقوله عزَّ وجلَّ (لهم فيها فاكهة) أي من جميع أنواعها (ولهم مايدعون) أي مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ»

أجل لقد وعدت آيات التنزيل عباد الله المتقين أنهم سيدخلون «في جنة عالية، قطوفها دانية»(١٥٥). أو كما قال ابن كثير: (في جنة عالية) أي رفيعة قصورها، حسان صورها، نعيمة دورها، دائم حبورها. (قطوفها دانية) قال البراء بن عازب أي قريبه يتناولها احدهم وهو نائم على سريره وقال الطبراني عن عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم عن عطاء بن يسار عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لايدخل أحد الجنة إلاّ بجواز بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان، ادخلوه جنة عالية قطوفها دانية»(١٥٦).

ولما كانت هذه الجنة «... دانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا»(١٥٧) فهذا يعني أن روادها لايبذلون فيها جهداً ولايتكبدون نصباً في سعيهم وراء لقمة العيش بعد أن اختفت منها ظاهرة العمل.

كتب ابن كثير في تفسير هذه الآية يقول(١٥٨):

---

(١٥٤) ـ المصدر السابق، المجلد ٣، الصفحة: ٥٧٥

(١٥٥) ـ سورة الحاقّة، آية ٢٣ ، ٢٤

(١٥٦) ـ المصدر السابق، المجلد الرابع، الصفحة: ٤١٥

(١٥٧) ـ سورة الإنسان: الآية رقم: ١٤

(١٥٨) ـ تفسير القرآن العظيم، المجلد الرابع، مصدر سابق الصفحة: ٤٥٦

«ودانية عليهم ظلالها، أي قريبة إليهم اغصانها. وذُلّلت قطوفها تذليلا، أي متى تعاطاه دنا القطف إليه وتدلى من أعلى غصنه كأنه سامع طائع. وقال مجاهد: (وذللت قطوفها تذليلا) إن قام ارتفعت معه بقدر وإن قعد تذللت له حتى ينالها، وإن اضطجع تذللت له حتى ينالها فذلك قوله تعالى (تذليلا)».

بل يعيش هؤلاء الرواد في رغد لامثيل له تحت ظلال أفيائها «متكئين على الأرائك لايرون فيها شمساً ولا زمهريرا»[١٥٩]. وقد اختلف كما يقول ابن كثير ـ حول الإتكاء على الأرائك (السرر)، هل هو الأضطجاع أو التمرفق أو التربع أو التمكن في الجلوس. (لايرون فيها شمساً ولا زمهريرا) أي ليس عندهم حر مزعج ولا برد مؤلم بل هي مزاج واحد دائم سرمدي لايبغون عنه حولاً»[١٦٠].

و«يطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً»[١٦١]. بمعنى يطوف عليهم للخدمة ولدان من ولدان الجنة «بالحور العين لايبن بعضهم بعضاً، بل في الخيام»[١٦٢]. مخلدون أي «على حالة واحدة مخلدون عليها لايتغيرون عنها، لاتزيد أعمارهم عن تلك السن بمعنى لايكبرون. وقوله تعالى (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا) أي إذا رايتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن»[١٦٣].

وإعلاءً من شأن المتقين يطاف عليهم في الخدمة من قبل هؤلاء الولدان بـ «... آنية من فضةٍ وأكواب كانت قواريراً قواريراً من فضةٍ قدرُوها تقديرا»[١٦٤]. بمعنى أن هؤلاء الخدام يطوفون عليهم بأواني الطعام وهي من فضة وأكواب الشراب وهي الكيزان التي لاعُرى لها ولا خراطيم ـ كما يقول ابن كثير ـ أما ماهو المقصود بـ (قوارير من فضة)، قال ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغير واحد، بياض الفضة في صفاء الزجاج والقوارير لاتكون إلاّ

(١٥٩) ـ سورة الإنسان: الآية رقم: ١٣

(١٦٠) ـ المصدر السابق، المجلد الرابع، الصفحة: ٤٥٦

(١٦١) ـ سورة الإنسان: الآية رقم: ١٩

(١٦٢) ـ المصدر السابق، المجلد الرابع، الصفحة: ٢٨٧

(١٦٣) ـ المصدر السابق، المجلد الرابع، الصفحة: ٤٥٦

(١٦٤) ـ سورة الإنسان: الآيتان رقم: ١٥ ـ ١٦

من زجاج، فهذه الأكواب هي من فضة وهي مع ذلك شفافة يرى مافي باطنها من ظاهرها وهذا مما لانظير له في الدنيا»(١٦٥).

ولكن ما الذي سيشربه هؤلاء المتقون بهذه الآنية من الأكواب والقوارير؟!.. إنهم يشربون بها «... ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمرة لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى»(١٦٦). وسوف يتفكهون بـ «فاكهة مما يتخيرون»(١٦٧).

كتب ابن كثير في تفسير الآية رقم ١٥ من سورة محمد يقول(١٦٨):

«.. من ماء غير أسنٍ قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقتاده يعني غير متغير. وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراساني غير منتن، والعرب تقول أَسَنَ الماء تغير ريحه وفي حديث مرفوع أورده ابن أبي حاتم غير آسن يعني الصافي الذي لاكدر فيه. (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) أي في غاية البياض والحلاوة والدسومة وفي حديث مرفوع «لم يخرج من ضرع الماشية». (وأنهار من خمرة لذة للشاربين) أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا بل حسنة المنظر والطعم والرائحة والفعل. وفي حديث مرفوع «لم يعصرها الرجال باقدامهم». وأنهار من عسل مصفى) أي وهو في غاية الصفاء وحسن اللون والطعم والريح، وفي حديث مرفوع «لم يخرج من بطون النحل».

وكتب أيضاً في تفسير الآية رقم ٢٠ من سورة الواقعة يقول(١٦٩):

«..وفاكهة مما يتخيرون، أي ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار. وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها... وقال الحافظ ابو القاسم الطبراني: حدثنا معاذ بن المثنى حدثنا علي بن المديني عن... عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى صلى الله عليه وسلم: «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى».

لقد وجد المسلم في رحاب هذه الجنة كل ماترتاح إليه نفسه من ولع نهوم إلى الجمال، وكل ما تصبو إليه ميوله من لذات ورغبات، يستوي في ذلك مالك المهر ومن لايستطيع

---

(١٦٥) ـ تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق المجلد الرابع، الصفحة: ٤٥٦

(١٦٦) ـ سورة محمد: الآية رقم: ١٥

(١٦٧) ـ سورة الواقعة: الآية رقم: ٢٠

(١٦٨) ـ المصدر السابق، المجلد الرابع، الصفحة: ١٧٦

(١٦٩) ـ المصدر السابق، المجلد الرابع، الصفحة: ٢٨٦ وص ٢٨٧

طولاً. يستوي فيها الفقراء والأغنياء فلا يوجد في رحابها الطيبة طبقات، ولابين روادها الأتقياء فئات، ولايعاني سكانها من أي تمايز اقتصادي واجتماعي إلاّ ماجنت أيديهم من صالح الأعمال.

جاء في التنزيل(١٧٠):

«إن المتقين في مقام أمين. في جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق متقابلين. كذلك وزوجناهم بحور عين».

كتب ابن كثير في تفسير هذه الآيات يقول(١٧١):

«... (في مقام أمين) أي في الآخرة وهو الجنة قد أمنوا فيها من الموت والخروج ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصبٍ ومن الشيطان وكيده وسائر الآفات والمصائب. وقوله تعالى: (يلبسون من سندس) وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها، (واستبرق) وهو مافيه بريق ولمعان وذلك كالرياش ومايلبس على أعالي القماش. (متقابلين) أي على السرر لايجلس احد منهم وظهره إلى غيره. وقوله تعالى (كذلك وزوجناهم بحور عين) أي هذا العطاء مع ماقد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان. قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي، حدثنا نوح بن حبيب، حدثنا نصر بن مزاحم العطار، حدثنا عمر بن سعد عن رجل عن انس رضى الله عنه رفعه نوح قال: لو أن حوراء بزقت في بحر لجيٍّ لعذب ذلك الماء لعذوبة ريقها».

---

(١٧٠) ـ سورة الدخان: الآيات رقم: ٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤

(١٧١) ـ تفسير القرآن العظيم: مصدر سابق المجلد الرابع، الصفحة: ١٤٦

الفصل الثالث

مؤهبات تفوّق الأنثى الجارية
على المرأة الحصان

اعتماد وسائل التهييج والأدوية المقوية للباه

إن إنتشار الغنى الفاحش نتيجة لتمركز الثروات لدى بعض الشرائح الاجتماعية والفئات والطبقات ساعد كما ذكرنا على انتشار مبدأ تعدد الزوجات إعتماداً على الطلاق، كون الزواج والطلاق من مسوؤلية الرجل وهو المبادر دائماً، وساعد أيضاً على سيرورة ظاهرة التسري بالجواري المملوكات اللواتي كُنَّ يُفضَّلن على النساء الحرائر الشريفات كما قال عنهن بعض الخلفاء: «الإماء ألذُّ مجامعة وأغلب شهوة وأحسن في التبذل وآنق في التدلل»[1]. فالرجل يستطيع معهن أن يتبذل ويتهتك بحرية أوسع كما جرى عليه العرف في ذلك الزمان.

كتب الجاحظ يقول:[2]:

«... قال بعضهم كنا في مجلس رجل من الفقهاء فقال لي رجل: عندك حرة أو مملوكة؟!

قلت: عندي أم ولد، ولمَ سألتني عن ذلك؟

قال: الحرة لها قدرها فأردت أن أعلمك ضرباً من الوطء طريفاً.

---

(١) - شقائق الأترنج في رقائق الغُنج، مصدر سابق، الصفحة: ٣٧ نقلاً عن كتاب ربيع الأبرار للزمخشري، الجزء الرابع، الصفحة: ٢٨١

(٢) - رسائل الجاحظ، كتاب مفاخرة الجواري والغلمان، مصدر سابق، الجزء الثاني الصفحة: ٩٠ -

قلت: قُل لي

(وشرح له وضعاً في الوطء طلب منه أن يجربه مع جاريته..)[٣]

فلما صار الرجل إلى منزله فعل مايأمره به، وجعلت الجارية تعلو وتسفل

فقالت: يامولاي من علمك هذا؟

قال: فلان المكفوف،

قالت: يامولاي ردَّ الله عليه بصره».

مجمل هذه الأمور أدت إلى الإنهماك في السعي وراء إشباع الغريزة الجنسية عند الرجال والى إنهاك قدرتهم من خلال الإفراط في العمل الجنسي.

كتب المسعودي يقول[٤]:

«ويقال إنه كان للمتوكل أربعة آلاف سرية وطئهن كلهنّ».

وتطلب هذا الإنهاك الاعتماد أكثر فأكثر على التنبيه والتهييج والدربة على مطيبات الجماع مثل شدة الرهز وكثرة الرفع والخفض والنصب والبسط والقبض والتقديم والتأخير والشخير والنخير.. **«قيل لإمرأة أي شيء أوقع في القلوب وقت النكاح؟ قالت: موضع لايُسمع فيه إلاّ النخير والشهيق، يجلب الماء من غشاء الدماغ ومخارج العظام»**[٥].

وجاء في نثر الدر للآبيّ قال[٦]:

«عُرضت على المتوكل جارية فقال لها: ماتحسنين؟

فقالت: عشرين فناً عن الرهز».

لقد تفرغت بعض النساء الخبيرات اللواتي لَهُنَّ دربة وخبرة ووجهات نظر في طرق الجماع

---

(٣) - راجع شرح الوضعية الجنسية بكاملها في المصدر السابق، الجزء الثاني الصفحة: ٩٠

(٤) - مروج الذهب ومعادن الجوهر: علي بن الحسين المسعودي، تحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي، المجلد الرابع، الصفحة: ١١٦

(٥) - شقائق الأترنج في رقائق الغُنج، مصدر سابق، الصفحة: ٤٦

(٦) - المصدر السابق، الصفحة: ٤٤ .

لتعليم النساء مايفعلنه عند الجماع من حركات، ومايُطلقنه من أصوات، حتى قيل أن حُبّى المدينية «علمت نساء أهل المدينة القبع[7] والغربلة[8]، وأنها قالت لإبنها عندما سألها: «يا أمّهْ أيُّ الحالات أعجب إلى النساء من أخذ الرجال إياهُنّ؟ قالت: يابنيَّ إذا كانت مُسنه مثلي فأبركها وألصق خدها بالأرض... وإذا كانت شابة فاجمع فخذيها إلى صدرها فأنت تدرك بذلك ماتريد منها وتبلغ حاجتك منها»[9].

وكتب الجاحظ يقول[10]:

«عن صالح بن حسان قال: رأيت امرأة بالمدينة يقال لها حواء وهي التي علمت نساء المدينة النقع، وهو النخر والحركة والغربلة والرهز، وكانت لها سقيفة تتحدث إليها رجالات قريش، ولم يكن في المدينة أهل بيت إلاّ وتأخذ صبيانهم وتُمصِّهم ثديها أو ثدي إحدى بناتها. فكان أهل المدينة يسمونها حواء ولم يكن بالمدينة شريف ممن يجلس في سقيفتها إلاّ واصل إليها في السنة ثلاثين وسقاً[11] وأكثر من طعام وتمر مع الدنانير والدراهم والخدم والكساء».

وأعطى هذا الواقع أيضاً دوراً كبيراً للفتيات الراقصات اللواتي يتقنَّ الرقص الخليع والمثير، وجعل لهُنَّ شأناً كبيراً في حياة الرجل، وبالتالي في المجتمع العربي الإسلامي وبشكل خاص في العصر العباسي. كما دفع بالعلماء من المسلمين إلى أن يفردوا في كتب الطب الصفحات الطوال التي تتحدث عن الأدوية المقوية للباه وتبين خواصها وفوائدها.

تفشي التخنث والجوع الجنسي والعلاقات الشاذة

لقد ساعد هذا الوضع إضافة إلى ظهور طائفة من المخنثين المحترفين بدأ يزداد عددهم في

---

(٧) ـ القبع: هو النخير عند الجماع.

(٨) ـ الغربلة: هو الرهز عند الجماع.

(٩) ـ رسائل الجاحظ، كتاب مفاخرة الجواري والغلمان، مصدر سابق المجلد الثاني، الصفحة: ١٨٩

(١٠) ـ المحاسن والأضداد: للجاحظ، تحقيق فوزي العطوي، الصفحة: ١٣١

(١١) ـ الوَسَقْ: جمع أوساق: ستون صاعاً (مكيالاً)، حمل بعير.

إضطراد بالمجتمع العربي الإسلامي بما يتناسب وتنامي الثروة وتمركزها على إنتشار حياة الرفاهية ومختلف أنواع التهتك والخلاعة والمجون والسلوك الشاذ.

كتب ويل ديورانت يقول(١٢):

«... ونشأت طائفة من المخنثين المحترفين تشبهوا بالنساء في ثيابهم وعاداتهم، يضفرون شعورهم، ويصبغون أظافرهم بالحناء، ويرقصون الرقص الخليع وعاقبهم سليمان بن عبد الملك باخصاء(١٣) من كان في مكة من المخنثين».

كما أدى إلى التضييق على الحرائر والمحصنات وتناسيهن بعد حجبهنَّ وراء أسوار القصور حيث انتشرت الغُلمة والجوع الجنسي، وتفشت العلاقات الجنسية الشاذة التي بدأت تستهوي الرجل بشكل واسع وعلني، فانتشر اللواط، بينما سقطت المرأة التي حجبها أهلها عن جميع الرجال فيما سقط فيه الرجل فاستشرى السحاق بين النساء بما فيهن زوجات الخلفاء وسراريهن.

كتب ويل ديورانت يقول(١٤):

«... ولكن اللواط والسحاق رغم مافرض عليهما من العقاب الصارم أخذا ينتشران

---

(١٢) ـ قصة الحضارة في العالم، مصدر سابق، الجزء الثاني المجلد الرابع، الصفحة: ١٣٥

(١٣) ـ الخصِّيّ: بمعنى قطع الخصيتين. وهذا يعني أن الرجل المخصي لا ينجب أطفالاً لكنه يظل محتفظاً بقدرته الجنسية. أما إذا كان الإخصاء بمعنى قطع العضو التناسلي، فهذا يعني فقدان العضو، وبالتالي فقد المقدرة على الانتصاب والعمل الجنسي. هذا الأمر يعني أن الإخصاء نفسه كان مختلفاً عليه. وقد ذكر ابن الأثير ماقيل عن مسائل غرامية بين جواري خمارويه وبين الخصيان كانت سبباً في قتل هذا الأمير. وكان لعضد الدولة خادم يسمى شكراً تزوج جارية حبشية ولكن قلْبها علق بغيره فأخبرت خصومه بمكانه. وقد رَدَّ بعض أهل العلم امكانية انجاب بعض الخصيان أطفالاً إلى فزع الصبي عند عملية نزع الخصيتين مما قد يُسبب صعود احداهن فلا توجد عندما تُطلب، وبعد التحام الشق تنزل فإن كانت اليسرى كانت له شهوة ومني، وإذا كانت اليمنى خرجت له لحية. وأن الإمام أبو حنيفة جعل للخصيان فراشاً والحق بهم ما تلد نساؤهم حيث أخذ بقول الرسول صلى الله عليه وسلم الولد للفراش. وجاز أنْ يكون من الخدم الذين بقيت بيضتهم. علماً أن القرآن والسنة شددا في تحريم إخصاء الإنسان أو البهائم. عن الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، ترجمة عبدالهادي أبو ريده، المجلد الثاني، الصفحة: ١٦٠ وهامشها، نقلاً عن ابن الأثير. الجزء التاسع الصفحة: ٣٩

(١٤) ـ قصة الحضارة في العالم مصدر سابق، الجزء الثاني، المجلد الرابع، الصفحة: ١٣٦

إنتشاراً سريعاً حيث كانا كثيري الحدوث في بلاط هرون الرشيد».

وكتب أبو الفرج الأصفهاني يقول(١٥):

«... أخبرني الصولي قال: حدثنا أحمد بن يزيد المهلبي عن أبيه قال: كان المتوكل قد ولى ابن الكلبي البريد(١٦) وأحلفه بالطلاق ألاّ يكتمه شيئاً من أمر الناس جميعاً ولامن أمره هو في نفسه. فكتب إليه يوماً أن امرأته خرجت مع حُبَّتِها(١٧) في نزهة... وأن حُبَّتَها عربدت عليها فجرحتها في صدغها. فقرأ ابراهيم ابن العباس على المتوكل ثم قال له: ياأمير المؤمنين قد صَحَّف(١٨) ابن الكلبي، إنما هو جرحتها في شُرمها. فضحك المتوكل وقال: صدقت ما أظنّ القصة إلاّ هكذا».

وأبصر الهادي كما يقول ويل ديورانت امرأتين تباشران عملية السحاق فأمر بقطع رأسيهما(١٩).

كتب الجاحظ يقول(٢٠):

«وعن علي بن يقطين قال: كنت عند موسى الهادي ذات ليلة مع جماعة من أصحابه، إذا أتاه خادم فسارَّه بشيء فنهض سريعاً فقال: لاتبرحوا، فمضى فأبطأ ثم جاء وهو يتنفس ساعة حتى استراح ومعه خادم يحمل طبقاً مغطى بمنديل فقام بين يده فأقبل يرعد، وعجبنا من ذلك، ثم جلس وقال للخادم: ضع مامعك، فوضع الطبق وقال: ارفع المنديل، فرفعه فإذا على الطبق رأسا جاريتين لم أر والله احسن من وجهيهما قط، ولامن شعورهما، فإذا على رأسيهما الجوهر منظوم على الشعر، وإذا رائحة طيبة تفوح فأعظمنا ذلك.

---

(١٥) ـ كتاب الأغاني: مصدر سابق، المجلد العاشر، الصفحة: ٥٥ وما بعدها.

(١٦) ـ البريد: أو ديوان البريد: يُعتبر رئيس ديوان البريد أو صاحب الخبر كما كان يُسمى أهم شخصية يعتمد عليها الخليفة لحفظ أمن الدولة. فمن شأنه أن يُشرف على نقل الأخبار والأوامر بين عاصمة الدولة والولايات وعلى جميع أمور المراقبة والتجسس في الداخل والخارج. عن طريق أتباعه العلنيين وعملائه السريين من النساء والرجال والأولاد في كل قطر وموقع وحاضرة، ليقوم صاحب الخبر باعلام الخليفة عنها وبأقصى سرعة.

(١٧) ـ حُبَّتها: محبوبتها. الحِبَّةُ: المحبوبة.

(١٨) ـ صَحَّف الكلمة: أخطأ في قراءتها وروايتها، أو حَرَّفها عن وضعها.

(١٩) ـ قصة الحضارة في العالم، مصدر سابق، الجزء الثاني، المجلد الرابع، الصفحة: ١٣٥

(٢٠) ـ المحاسن والأضداد للجاحظ، مصدر سابق، الصفحة: ١٧٢

فقال: أتدرون ماشأنهما؟ قلنا: لا.

قال: بلغني أنهما تحابا، فوكلت هذا الخادم بهما لينهي اليَّ أخبارهما. فجاءني وأخبرني أنهما قد اجتمعا، فجئت فوجدتهما كذلك في لحاف. فقتلتهما. ثم قال: ياغلام ارفع، ورجع في حديثه كأنه لم يصنع شيئاً».

ووصف الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي حالة بعض الجواري اللواتي كُنَّ في حوزة الخليفة المأمون، ويعشن داخل قصره، وكيف كان بعضهن يعانين من الحرمان والكبت الجنسي.

كتب السيوطي يقول[٢١]:

«... سمع المأمون صوتاً في بعض مقاصيره، فقال للخادم: انظر ماهذا؟ فذهب ورجع فقال: مؤنسة تضرب وماجنة ترقص. فجاء المأمون فسمعها تقول:

أيا قصر كم تحوي ... من نيك ومن غُلمَة
متى يرقُعُ طيانٌ ... ضعيفٌ مثتي ثلمَة

فدخل عليها فجامعها وقال: ماكفاك أن جعلتني طياناً حتى جعلتني ضعيفاً.

فقالت: لولا ذلك ما أكملت هذا الرغيف على جوعي».

على جوعي؟! ما أشد وقع هذه الكلمة على السمع وما أغربها وأدقّ تعبيرها، ما أمرَّ علقمها... إنها صرخة الحرمان، صرخة الجوع الجنسي، وأين،.. في قصر الخليفة صاحب ألاف الجواري والغلمان، وبين نسائه وجواريه، ولاعجب في ذلك، فمن يطأ أربعة آلاف جارية!... لن يخلف إلاّ صرخة الجوع الجنسي والعلاقات الشاذة بين نسائه وسراريه وقيانه، مهما استخدم من أدوات التنشيط والتهييج والأدوية المقوية للباه.

ناهيك عما يعني هذا الأمر من دونية لمكانة المرأة كإنسان وتشييء لشخصيتها واستلاب لأنسانيتها، وتحويلها إلى أداة استمتاع وتحريك واشباع لغرائز الرجل وشبقية شهواته فقط دون الأخذ بعين الاعتبار إنسانيتها ورغباتها المسحوقة كما قضى بحقها قضاء ابي حفص عمر بن الخطاب؟!..

---

(٢١) ـ المستظرف من أخبار الجواري: جلال الدين السيوطي، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، الصفحة: ٦٩

كتب ابن قيم الجوزية[٢٢] يقول:

«شكت امرأة إلى زوجها قلة إتيانه[٢٣] إليها.

فقال لها: أنا وأنت على قضاء عمر.

قالت: قضي عمر أن الرجل إذا أتى امرأته في كل طهر فقد أدى حقَّها»[٢٤].

تعدد في المواقع مع تفاوت في النفوذ واختلاف في الادوار

بشكل عام انتشرت الجواري والقيان في كل مكان، وحفلت بهنَّ قصور الخلفاء والأمراء والقادة والأغنياء. أو كما قال الجاحظ حَفِلَتْ بهنَّ قصور أولئك «المستمتعين بالنعمة والمؤثرين للذة، المتمتعين بالقيان والأخوان المعدين لوظائف الأطعمة وصنوف الأشربة أصحاب الستر والستارات والسرور والمرؤات»[٢٥].

وحيث كُنَّ وتواجدن تفشّى اللهو والفساد ولم تسلم من ذلك كما راينا قصور الخلفاء

---

(٢٢) ـ ابن قيِّم الجوزية: هو محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي أبو عبدالله شمس الدين دمشقي المولد والوفاة (٦٩١ ـ ٧٥١هـ). فقيه حنبلي من الكبار ذو اجتهادات، مفسر متكلم جدلي نحوي متحدث. تتلمذ لشيخ الإسلام إبن تيمية ونشر علمه وانتصر له في جميع مايصدر عنه، حتى سجن معه في قلعة دمشق وأهين وعذب بسببه وطيف به على جمل مضروباً بالعصي. وأطلق سراحه بعد موت ابن تيمية.

كان حسن الخلق محبوباً عند الناس، قاوم الفلاسفة وأرباب الملل والنحل وألف تصانيف كثيرة بخطه الحسن منها: «التبيان في أقسام القرآن» و «شفاء الغليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» و «أعلام الموقعين» و «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» في ذكر الجنة. و «اجتماع الجيوش الاسلامية على غزو المعطلة والجهمية» و «أحكام أهل الذمة» جزآن و «أخبار النساء» وغيرها.

(٢٣) ـ قلة اتيانه إليها: أي قلة مضاجعته إياها.

(٢٤) ـ أخبار النساء: لابن قيم الجوزية، شرح وتقديم عبد مهنا، الصفحة: ٧

(٢٥) ـ رسائل الجاحظ، مصدر سابق، الجزء الثاني، الصفحة: ٩٤

والمراء والأشراف. وساد السرف في الترف والبذخ والتبذير وهدر الأموال الطائلة في سبيل الحصول على جارية ما قد أعجبت الخليفة ودخلت في هواه.

كتب أحمد امين يقول[٢٦]:

«حُكي أن الرشيد أمر مرة بشراء جارية مغنية بألاف الدراهم، فاستكثرها يحي البرمكي فأحضر المبلغ وكومه في مكان يطلع عليه الرشيد في ذهابه إلى الوضوء وجيئه. فلما رأى الرشيد المبلغ استكثره ومع ذلك صمم على تنفيذ إرادته وانتقد يحي البرمكي في سره. حتى قالوا أن هذه الحادثة أيضاً من اسباب نكبتهم».

وأن يحي البرمكي هذا الذي استكثر ثمن الجارية «عرض سبعة ألاف درهم (٥٦٠,٠٠٠) دولار أمريكي ثمناً لصندوق لآليء مصنوع من الأحجار الكريمة، وأن صاحبه أبى أن يبيعه بهذا الثمن»[٢٧]. علماً أن كل ثروة تبلغ في عصر الرشيد سبعمئة دينار تعتبر ثروة غير قليلة، وأنه كان يكفي الرجل من عامة الناس هو وزوجته ثلاثمئة درهم في السنة[٢٨].

وفي حوالي عام ٣٢٥ للهجرة «اشترى ابن رائق أمير العراق جارية مولدة كانت لابنة ابن حمدون النديم، وكانت سمراء موصوفة بحسن الغناء، فاشتراها ابن رائق من مواليها بثلاثة عشر ألف دينار وأعطى من دلّه عليها ألف دينار، ويحكى الصولي أن ابن رائق اشتراها بأربعة عشر ألف دينار فاستعظم الناس ذلك»[٢٩]. وكان الدينار في القرن الرابع الهجري يساوي نحو الأربعة عشر درهماً[٣٠].

لقد بالغ الخلفاء في اقتناء الجواري وفي المبالغ التي دفعت لشرائهن حتى أن بعضهم جمع في قصره آلاف الجواري ينفق عليهن ما يكفي للإنفاق على خمسين ألف مسلم. فقد قيل كان للرشيد ٢٠٠٠ جارية[٣١]، منهن ٣٠٠ قينة للغناء والضرب على آلات

---

(٢٦) - هارون الرشيد: الدكتور أحمد أمين، سلسلة كتاب الهلال العدد رقم: ٣ الصفحة: ٣٥

(٢٧) - قصة الحضارة في العالم، مصدر سابق الجزء الثاني، المجلد الرابع، الصفحة: ١١١

(٢٨) - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، مصدر سابق، المجلد الثاني، الصفحة: ٢٠٩ نقلاً عن مصارع العشاق.

(٢٩) - الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، مصدر سابق المجلد الأول، الصفحة: ٢٩٨

(٣٠) - المصدر السابق، المجلد الثاني، الصفحة: ٣٧٧

(٣١) - كتاب الأغاني: مصدر سابق، المجلد التاسع، الصفحة: ٨٨

الطرب[٣٢]. وكان لصاحب ميافارقين ٣٦٠ سرية على عدد ايام السنة[٣٣].

بينما أهمل البعض الآخر من الخلفاء شؤون الرعية وانشغل عن أمور الخلافة بجارية، كما فعلت حبابة[٣٤] مع يزيد بن عبد الملك حيث أخذت عقله وسيطرت على تفكيره حتى مات حزناً عليها بعد موتها فدفن بقربها[٣٥].

أجل لقد لعبت حبابة دوراً خطيراً في السياسة والمجتمع وبلغت من المكانة والتأثير على الخليفة أنها كانت تعزل وتولي من تشاء من الولاة وانقطع يزيد بسببها إلى حياة الشراب والغناء وتولع بها واستمات في غرامها وغنائها.

وقيل أنها غنت مرة أمامه[٣٦]:

«أبلغ حبابة اسقى ربعها المطر ... ماللفؤاد سوى ذكراكم وطرُ
إن سار صحبي لم أملك تذكركم ... أوعرّسوا فهموم النفس والسهر

فطرب يزيد وصاح وأمسك بوسادة وضعها على رأسه وجعل يدور في الدار وهو يرقص...».

وقال المدائني[٣٧]:

---

(٣٢) ـ معجم أعلام الناس: للأتليدي، الصفحة: ٦٧

(٣٣) ـ معجم وفيات الأعيان لإبن خلكان، الجزء الأول، الصفحة: ٥٧

(٣٤) ـ حبابة: جارية من جواري المدينة، تعلمت أصول الغناء على ابن سريج وابن محرز ومعبد وجميلة وغيرهم. فتنت أهل المدينة بغنائها وخلاعتها وعرفت بالجمال والدَّل والاستهواء. اشتراها الخليفة يزيد بعد أن فتنته، وكانت تسمى العالية، فلما اشتراها سماها حبابة. وكانت حبابة أول جارية عربية فتنت خليفة عربياً، فأحبها حتى لم تُبق في نفسه شيئاً لسواها. كانت تملك من مواهب الإغراء ما يفتتن به العابد، خبيرة بطبائع الرجال ووسائل تملكهم. ويقال أنها شرقت بحبة رمان فماتت. فجزع عليها يزيد واعتكف لا يكلم أحداً. ثم اشتاقها بعد دفنها بأيام فأمر بنبشها واخراجها حتى يراها. فأخرجت. وعاش يزيد بعدها أياماً في غمّ وبكاء ونحيب ثم مات حزناً عليها فدفن إلى جانبها.

(٣٥) ـ تاريخ التمدن الاسلامي: جرجي زيدان، الجزء الخامس، الصفحة: ٥٤٩

(٣٦) ـ الجواري المغنيات، مصدر سابق، الصفحة: ١٠٠ ومابعدها.

(٣٧) ـ كتاب الأغاني: مصدر سابق، المجلد الخامس عشر، الصفحة: ١٤٠

«كانت حبابة إذا غنت الخليفة يزيد وطرب قال لها: أطيرُ..؟ فتقول له: فلمن تدع الناس؟

فيقول: إليك»

أما الجارية ذات الخال[٣٨]، فقد «ملكت على الرشيد قياده حتى حلف يوماً أنها لاتسأل شيئاً في ذلك اليوم إلاّ قضاه لها. فسألته أن يولي حموية[٣٩] الحرب والخراج بفارس سبع سنين ففعل وكتب له عهده به وشرط على ولي عهده بعده أن يتمها له إن لم تتم في حياته»[٤٠].

بينما ملكت عريب[٤١] على الخليفة المأمون أحاسيسه بما اشتهرت من جمال وظُرف ولباقة

---

(٣٨) - ذات الخال: جارية لرجل يدعى قرين ويُكنى «أبا الخطاب». اعتنى بها وثقفها فتلقت الغناء على كبار المغنين ومن بينهم ابراهيم الموصلي الذي كان مفتوناً بها. عُرفت بالجمال والدلال ومواهب الإغراء إسمها الحقيقي خنث أو خشف وإنما سميت ذات الخال لوجود خال على شفتها العليا زادها فتنة وسحراً. اشتراها الرشيد بسبعين ألف درهم وتنعم بها وبغنائها. ولكن الغيرة التي عرف بها نغصت عليه سعادته وأقلقت باله فوهبها إلى وصيفه «حمويه» عندما علم بعلاقة لها سابقة مع ابراهيم الموصلي.

ويُقال أنه لما اشتاقها قال لحمويه: ويلك وهبنا لك الجارية على أن تسمع غناءها وحدك؟ فقال: يا أمير المؤمنين مُر فيها بأمرك. قال: نحن عندك غداً. فمضى حمويه وزين الجارية بجواهر قيمتها إثنا عشر ألف دينار استأجرها. ثم أخرجها إليه وقد لعب الشراب برأسه. فلما أبصرها الرشيد قال: ويلك ياحمويه من أين لك هذا وما وليتك عملاً تكسب منه مثل هذا؟. فصدقه الخبر فبعث في احضار أصحاب الجوهر فاشتراها منهم ووهبها لذات الخال. ثم حلف ألّا تسأله في يومه هذا أمراً إلاّ قضاه، فسألته أن يولي حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ففعل.

(٣٩) - حمويه - وصيف من الوصفاء في بلاط هرون الرشيد. رضيَ على نفسه أن يكون «ديوثاً» عندما قبل من الرشيد أن يوهبه ذات الخال التي أبغضها غيرة عندما علم بعلاقة سابقة لها مع ابراهيم الموصلي على الرغم من أنه مازال يشتهيها. ويقال أن الرشيد كان كلما أشتاق إليها طلب من حمويه أن يستعد لاستقباله حتىَ يزورها وأنها طلبت منه هذا الطلب لما قام مرة بزيارتها في بيت زوجها حمويه.

(٤٠) - تاريخ التمدن الإسلامي، مصدر سابق، الجزء الخامس، الصحفة: ٥٤٩، نقلا عن الأغاني.

(٤١) - عَريب: بفتح العين وكسر الراء. جارية إسماعيل المراكبي، برمكية الدم لأنها كما قيل إبنة جعفر بن يحيى البرمكي من جارية تدعى فاطمة تزوجها سراً. كانت مغنية حاذقة وشاعرة رقيقة ومحدثة بارعة مليحة الخط تلم بالنادر من الثقافات العربية كالأدب والشعر والتاريخ وعلوم اللسان والبلاغة والشريعة. اشتهرت بالحسن والجمال والدلال واللباقة والظُرف والميول الخليعة الماجنة والأنوثة الجائعة أبداً للجنس.

ودلال وميول خليعة ماجنة وأنوثة جائعة أبداً للجنس حيث كانت تفخر وتقول: «ضاجعني ثمانية خلفاء ما اشتهيت منهم إلاَّ المعتز لأنه يشبه أبا عيسى بن الرشيد»[٤٢].

لقد كان لهذه الجارية أكثر من حكاية مع الخليفة المأمون الذي قيل عنه أنه بذل الخلافة في سبيلها على السماع قبل أن يراها أو يعاشرها عندما قال لعلوية[٤٣] وقد غناه صوتاً: «ياعلوية خذ الخلافة مني وأعطني صاحبة الصوت»[٤٤].

وبعد أن حصل عليها سُميت بالمأمونية لأنها ملكت على المأمون عقله وذهب في حبها كل مذهب. وكان لشدة شغفه بها يُقبل ساقيها ولقد قالت له مرة حين قبلهما «والله ياأمير المؤمنين لولا ماشرفهن الله بوضع فمك الكريم عليهما تقصد ساقيها وكانت مشهورة بجمالهما ـ لقطعتهما.. ولكن لله علي ألاَّ أغسلهم لغير وضوء أو طهر إلاَّ بماء الورد ماعشت. فكانت تفعل ذلك إلى أن ماتت»[٤٥].

وبلغ الأمر بالخليفة المأمون أنه كان يتجاهل احتيالها وذهابها إلى ملاقاة عشيقها ابن حامد[٤٦] الذي كانت تلقاه كلما سمحت لها الفرص حتى حملت منه وولدت بنتاً، فما كان من المأمون إلاَّ أن زوجه بها[٤٧].

---

(٤٢) ـ نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري، المجلد الخامس، الصحفة: ١٦٠

(٤٣) ـ علوية: هو علي بن عبد الله بن يوسف ويكني أبا الحسن. قال عنه صاحب الأغاني «كان مغنياً حاذقاً ومؤدباً محسناً وصانعاً متفنناً، وضارباً متقدماً مع خفة روح وطيب مجالسة وملاحة نوادر. وكان ابراهيم الموصلي علمه وخرجه فبدع وغنى لمحمد الأمين.ويقال أنه كان أعسر وكان عوده مقلوب الأوتار».. الأغاني المجلد الحادي عشر الصفة: ٣٣٣

(٤٤) ـ كتاب الأغاني، مصدر سابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة ٧٦

(٤٥) ـ الجواري المغنيات، مصدر سابق، الصفحة: ١٨٣

(٤٦) ـ ابن حامد: هو محمد بن حامد القائد الخراساني المعروف بالخشن وقد أحبته عريب حباً عميقاً وقالت فيه أشعاراً كثيرة وغنت بها. وكان ابن حامد أشقر أزرق العينين وفيه تقول:

بأبي كل أزرق ... أصهب اللون أشقر
جنّ قلبي به ... وليس جنوني بمنكر

ويقال أن عريب لم تطق العيش في دار مولاها عبد الله بن اسماعيل المراكبي وهي مدلهة بحب إبن حامد فهربت إليه فتلقاها وحماها وحجبها في منزله. وحاول المراكبي أن يسترجعها فلم يقبل ابن حامد، فشكاه إلى الخليفة المأمون الذي أخذها لنفسه من الاثنين معاً. وكانت عَريب تتحايل وهي عند المأمون فتقابل حبيبها ابن حامد على الرغم من شدة الرقابة عليها وعليه من قبل حراس القصر.

(٤٧) ـ كتاب الأغاني، مصدر سابق المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٦٨

وبمناسبة الحديث عن عريب أرى من المفيد أن أُذَكِّر بقول اسحق الموصلي فيها وفي جمالها وخصالها ومواهبها وامكانياتها المتعددة، وهو قول قد يلخص لنا تلك الرحلة الطويلة التي كان يستغرقها تعليم الجارية وتأديبها وتأهيلها.

قال اسحق[٤٨]:

«... مارأيت امرأة أضرب من عريب ولا أحسن صنعة ولا أحسن وجهاً ولا أخف روحاً ولا أحسن خطاباً ولا اسرع جواباً ولا العب بالشطرنج والنرد، ولا أطمع لخصلة حسنة لم ار مثلها في امرأة غيرها».

ويصف يوسف بن القاسم في أبيات قليلة النموذج والمثال لقيان ذلك الزمان ومدى تسلطهن على قلوب عشاقهن من الرجال من مختلف الفئات وبشكل خاص رموز ذروة الهرم الاجتماعي.

قال ابن القاسم[٤٩]:

زانها منظرٌ وحسنُ حديثٍ ... وغناءٌ يلذُّ في الأسماعِ
طفلة من نساء قيصر لم ... تُغْذَ ببؤس ولم تزل في ارتياعِ
لم أزل مُذ ملكتها طوع ما ... قالت: وماكنتُ قبلُ بالمطواعِ

علماً أن نفوذ الجارية يزداد سطوة وقوة إذا صارت محظية مفضلة للخليفة كما رأينا أو إذا صارت أم ولد كما صارت الخيزران[٥٠] أم الهادي والرشيد وغيرها من أمهات الخلفاء.

أجل لقد قامت هؤلاء الجواري والإماء بادىء ذي بدء بأكثر من دور أو مهمة، وربما قاموا

---

(٤٨) ـ المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصحفة: ٥٤

(٤٩) ـ أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق للصولي تحقيق ج ـ هورت ـ دن، الصفحة: ١٦١

(٥٠) ـ الخيزران: جارية من جواري المهدي يمانية الأصل اعتقها وتزوجها بعد أن ولدت له موسى الهادي وهارون الرشيد. ولما ولى ابنها الهادي انفردت بكبار الأمور وأخذت المواكب تغدو وتروح إلى بابها. ولما حاول منعها من التدخل في شؤون الدولة أرسلت إليه بعض جواريها فجلسن على وجهه حتى مات خنقاً. ويقول الدكتور صلاح الدين المنجد نقلاً عن المسعودي: «أن غلتها بلغت قبل موتها مائة ألف ألف وستين ألف درهم. وقد قدر أحدهم أن هذا المبلغ يعادل نصف خراج المملكة العباسية أنئذ وثلث غلة روكفلر في هذا القرن» نقلاً عن كتاب بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي، الصفحة: ١١

بمهام متخصصة وبأدوار محددة في المنازل التي عاشوا فيها. فمنهن من قمن بدور الزوجة في فراش اللذة، ومنهنَّ من قُمنَ بدور الخادمة أو المرضع أو المربية أو الماشطة(٥١)، وربما استُخْدِمْنَ إلى جانب ذلك في سبيل نيل رتبة أو منصب أو للتجسس. فقد قيل أن الخليفة المأمون كان يدس الوصائف هدية ليطلعنه على أخبار من شاء(٥٢).

أما البعض الآخر فقد بعثن في قصور أسيادهن المرح والفرح بما أتقنَّ من ضروب الرقص والعزف والغناء بفنية عالية ومهارة متقنة. فأحيين الليالي الملاح بصوتهن العذب الصداح، وبما كنَّ ينشدن من شعر ويتقارضن من مساجلات في الأندية ومجالس الشراب.

بينما اللواتي كن يعملن في معارض القيانين وحانات الخمارين فقد تفنَّنَّ في إظهار ملاحتهن من حيث اللباس وتصفيف الشعر والتزويق الفنّي، وقمن بالغناء والرقص وإنشاد الشعر على ألحان معدة سابقة، وبسكب أقداح الراح للزبائن والرواد أو مزجها بالماء. وعملن على التودد إليهم واغرائهم وغوايتهم والتقيد برغباتهم في سبيل الحصول على المال الوفير والهدايا القيمة للتعويض على ماأنفقه صاحب القيان عليهن من زينة ولباس وتثقيف وتدريب.

علماً أن العشاق والمعجبين لم يكتفوا بالنظرة والبسمة ولم يرضوا بالحديث والنجوى وإنما كانوا يسعون إلى القبلة ويطمعون بلمس الأرداف والبطون، وقطف رمان الصدور، وما إلى وراء ذلك من ماتع المرغوب والمحجوب. حتى بتن مقصد كل صاحب ذوق، وعاشق جمال، وطالب متعة. وكلما جمعت الجارية من صفات الجمال والإثارة كلما علت قيمتها في عين قيّمها. وحق للرجل الراغب بها أن يعلن عن جهاديته تجاهها ليتحكم بحركية هذا الجمال على الصعيد الجنسي ويضبط إغراءه الشهوي على المستوى الرغبي الذكوري المشرعن.

ولعل ما قاله خالد بن صفوان لدلّال الجواري، وجواب الدلال له بأنه لن يجد مطلبه إلاّ إذا استفتح أبواب الجنان، يؤكد لنا حقيقة هذا التطور الرغبي الشبقي المؤمثل اللاواقعي، ويشير إلى الأرضية الشهوية التي يفتقدها الرجل ويبحث عنها.

قال خالد بن صفوان(٥٣):

---

(٥١) ـ الماشطة: هي الجارية التي تحسن مشط الشعر وتسريحه وتتخذ من ذلك حرفة لها.

(٥٢) ـ تاريخ التمدن الإسلامي: مصدر سابق، الجزء الخامس، الصفحة: ٥٤٩

(٥٣) ـ المحاسن والأضداد، مصدر سابق، الصفحة: ١٣٠

«.. اطلب لي امرأة بكراً[٥٤] أو كبكر، حصاناً عند جارها، ماجنة عند زوجها، قد أدبها الغنى وذللها الفقر... عاشت في نعمة وأدركتها حاجة. لها عقل وافر، وخلق طاهر، وجمال ظاهر، صلتة الجبين، سهلة العرنين سوداء المقلتين، خَدِلجة[٥٥] الساقين، لفّاء[٥٦] الفخذين، نبيلة المقعد، كريمة المحتد، رخيمة المنطق... لينة الأطراف ثقيلة الأرداف، لونها كالرق، وثديها كالحق، أعلاها عسيب، وأسفلها كثيب، لها بطن مخطف، وخصر مرهف، وجيد أتلع[٥٧]، ولب مشبع تتثنى تثني الخيزران، وتميل ميل السكران، حسنة المآق في حسن البراق، لا الطول أزرى بها ولا القصر».

الجواري الغلاميات

لقد عرف العصر العباسي نتيجة لأفول الذوق العربي وتنامي ذوق جمالي جديد ينسجم والقيم الخلقية والاجتماعية الجديدة نوعاً من الجواري المتشبهات بالفتيان هُنّ الجواري المطموعات الشعر المسميات بالغلاميات، بعد أن اتخذن أزياء الغلمان من حيث اللباس وتصفيف الشعر بقص الزوآبة إلى مستوى الرقبة وبمد الوفرة حول الأذن، وقد يلوينه على أصداغهن في هيئة النون أو هيئة العقرب.

وفيهنّ قال أبو النواس[٥٨]:

أفديكَ خذها من يدي وهاتِ
عذّبني حبُّ غُلاميَاتِ
ذواتِ أصداغٍ معقربات
مقوَّماتِ القدِّ مهضوماتِ[٥٩]
يمشينَ في قُمُصٍ مَزرراتِ

---

(٥٤) ـ «فهلاّ بكراً تلاعبها». حديث عن جابر منسوب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في تفضيل البكر على الثيب من النساء. نقلاً عن تحفة العروس أو الزواج الإسلامي السعيد. محمود مهدي الاستانبولي، الصفحة: ١٥١

(٥٥) ـ خدلجة الساقين: من خَدَلَ خَدلاً وخدالةً وخدولاً. الساق كانت خدلة أي ممتلئة.

(٥٦) ـ لفّاء الفخذين: كثيرة لحم الفخذين.

(٥٧) ـ أتلع: من تلع تلعاً وتلاعة، طالت عنقه.

(٥٨) ـ ديوان أبي نواس: تحقيق وضبط أحمد عبد المجيد الغزالي، الصفحة: ١٦٦

(٥٩) ـ المهضومات: ضامرات البطون رقيقات الخصور.

يصلحن للأطة والزُناةِ
أكني بوصفهنّ عن مولاتي
تلك التي في يدها حياتي

وكتب عنهنّ آدم متز يقول(٦٠):

«.. وقد جرت العادة دهراً طويلاً بأن يلوي الغلمان والجواري شعر أصداغهم على صورة حرف ن أو على صورة العقرب.

ويقول إبن المعتز(٦١):

لوى صدغه كالنون من تحت طُرة   ممسكة تزهي بعاج جبين(٦٢)

ويقول أيضاً(٦٣):

ريم يتيه بحسن صورته   عبثَ الفتورُ بلحظ مقلته
وكأن عقرب صدغه وقفت   لمادنت من نار وجنته

وقد تغنى أبو نُواس بذلك قبل ابن المعتز بمئة عام فقال(٦٤):

أصداغهنّ معقرباتٌ   والشوارب من عبير»

ويعزي الكتاب والمصنفون أمر هذا الزيِّ تاريخياً إلى أم جعفر زبيدة زوجة الخليفة الرشيد وأم الخليفة الأمين حين رأت ابنها يميل إلى الغلمان ويستكثر من الخصيان في قصره، وأنه لما ملك بلغ من كلفه بالخصيان أنه: «طلبهم وابتاعهم، وغالى بهم وصيرهم لخلوته في ليله

---

(٦٠) ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: أدم متز ترجمة عبد الهادي أبو ريدة المجلد الثاني الصفحة ٢٣١

(٦١) ـ ابن المعتز: هو عبد الله بن المعتز بن المتوكل. ولد سنة ٢٤٩ هجرية وتوفي في ٢٩٦ هجرية. خليفة بن خليفة. ويقال أن خلافته امتدت يوماً وليلة... أمير النسيب كما هو أمير الأدب. له ديوان شعر مطبوع وتآليف منها «الزهر والرياض» و«البديع» و«طبقات الشعراء» و«الجامع في الغناء» وغيرها من المؤلفات.

(٦٢) ـ ديوان ابن المعتز: تفسير محي الدين الخياط، الصحفة ٢٥٢

(٦٣) ـ المصدر السابق، الصحفة ٨٨

(٦٤) ـ ديوان أبي نواس: طبعة أصاف، الصفحة ٨٣

ونهاره، وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رُمي بهم»(٦٥).

فاختارت أم جعفر عدداً من الجواري المقدودات الهيفاوات الحسان الوجوه، وعممت رؤوسهن وجعلت لهنّ الطرر(٦٦) والأصداغ والأقفية، والبستهن ألبسة الفتيان من الأقبية(٦٧) والمناطق(٦٨) والقراطق(٦٩)فماست قدودهن، وبرزت أردافهن وبعثت بهنّ إلى ابنها الأمين، فاختلفن بين يديه فاستحسنهنّ واجتذبن قلبه اليهن، فأبرزهنّ للناس من الخاصة والعامة، واقتدى به الكبراء والأمراء وقلده كثير من أهل بغداد، وظلَّ هذا الزيّ سائداً إلى مابعد الخليفة القاهر بالله العباسي الذي ألف جوقاً من الجواري بقدٍّ واحد البسهن القراطق والأقبية والطرر والأقفية والمناطق من الذهب أو الفضة كأنهنّ الغلمان(٧٠).

وعن الجارية الغلامية كتب الجاحظ يقول(٧١):

«... وريح الجارية أطيب وثيابها أعطر ومشيتها أحسن ونغمتها أرق، والقلوب إليها أميل. ومتى أردتها من قدام أو خلف من حيث يحسن ويحل وجدت ذلك كما قال الشاعر:

وصيفة كالغلام تصلح للأمرين كالغصن في تثنيها
أكملها الله ثم قال لها لما استتمت في حسنها إيها(٧٢)»

---

(٦٥) - تاريخ الطبري، مصدر سابق، المجلد الثامن، الصحفة ٥٠٨

(٦٦) - الطرر، وطرّات وطرار وأطرار، مفردها طرة هي أن تقطع للجارية في مقدمة ناصيتها.

(٦٧) - الأقبية: مفردها قباء، ثوب يلبس فوق الثياب والمولدون يسمونه قنباز.

(٦٨) - المناطق: مفردها منطق ونطاق، وهو كل ما شددت به وسطك أو كل أزار فيه تكّة تشد الوسط وترسل على الأسفل إلى الركبة.

(٦٩) - القُراطق: فارسية معربة، قباء ذو طاق واحد.

(٧٠) - مروج الذهب ومعادن الجوهر، مصدر سابق، المجلد الرابع، الصفحة ٢٩١

(٧١) - رسائل الجاحظ، كتاب مفاخرة الجواري والغلمان، مصدر سابق الجزء الثاني، الصفحة ٦٥

(٧٢) - إيها: حسبك. قال ابن الأثير وقد ترد منصوبة بمعنى التصديق والرضا بالشيء. ومنه حديث ابن الزبير لما قيل له يا ابن ذات النطاقين فقال: إيهاً والإله. أي صدقت ورضيت بذلك. عن لسان العرب مادة إيه، المجلد الثالث عشر، الصفحة: ٤٧٤

أو كما قال أبو نواس(٧٣):

من كفِّ ذاتِ حرٍ في زيِّ ذي ذكرٍ   لـهـا مُـحـبـأن لـوطـيٌ وزنَّـاءُ

وتعتبر ظاهرة الغلمة أو ماسُميَّ بالجواري الغلاميات مؤشراً واسماً على تفوق المرأة الجارية الشاطرية القد الغلامية الزي التي أحبت أن تستوفي لذتها في العشق من جميع جوانبها فحاكت الذكور في كل شيء بعد أن خبرت كل شيء على المرأة الحرة السمينة التي أعلاها قضيب وأسفلها كثيب وتنهكها اية حركة.

قال أبو نواس(٧٤):

وشـاطـرةٍ تـتـيـهُ بُـحـسـن وجـهٍ   كضوءِ البرق في جُنح الظلامِ
رأت زيَّ الـغـلام اتمَّ حُـسـنـاً   وأدنـى لـلـفـسـوق ولـلأثـامِ
فما زالت تصرف فيه حتى   حكتهُ في الفعال وفي الكلامِ
وراحت تستطيل على الجواري   بفضل في الشطارةِ والغرامِ
تعاف الدفَّ تكريهاً وفتكاً   وتلعبُ، للمُجانة بالحَمامِ
ويدعوها إلى الطنبور حذقٌ   إذا دارت معتقةُ المدامِ
وتغدو للصوالج كل يوم   وترمي بالبنادقِ والسهام(٧٥)
تُرجِّلُ شعرها وتَطَيل صُدغاً   وتلوي كُمها فعل الغلام(٧٦)
فهبها قد حكته فجاوزته   بحسن الزيِّ فيها والقوامِ
فكيف لها بحيلة سدِّ جحرٍ   بعيد القعر ليس بذي التئامِ
ونصبِ الجلجلينِ لها عليه   فتغمر غامراً صعب المرامِ(٧٧)

---

(٧٣) ـ الديوان: أبو نواس تحقيق الغزالي، مصدر سابق، الصفحة ٦

(٧٤) ـ النصوص المحرمة: أبو نواس، تحقيق جمال جمعة، الصفحة ٩٨ طبعة دار الريس لعام ١٩٩٤

(٧٥) ـ الصوالج: جمع صولجان: العصا المعقوفة للعب. البنادق، جمع بندق: قوس للرمي.

(٧٦) ـ ترجّل: تمشط.

(٧٧) ـ الجلجلين: الجرسين، وهما كناية عن الخصيتين.

التزويق وفن التبرج

عَمدت الجواري والقيان بعد أن أدركن مدى تأثيرهن على قلوب الرجال وأهمية دورهن في المجتمع إلى اظهار ملاحتهن وابراز مفاتن تبرجهن. فاتخذن الحلي والجواهر، وتحلين بالدمالج في سواعدهن والخلاخيل في أرجلهن، ولبسن الشفيف من الثياب، والسندس والديباج والاستبرق ومقطعات الخزِّ والحرير والحلل الموشاة. وكُنَّ يمشطن شعورهن بأمشاط من الصدف والصندل، ويرفعنه أو يعقصنه أو يرسلنه غدائر تنوس أو يتخذن في بعض الأحيان أزياء الغلمان من حيث اللباس وتصفيف الشعر.

وجعلن حول رؤوسهن عصابات مزركشة بالألوان معرشة بالرسوم والخطوط وكتبن عليها بالخيوط الذهبية أو الفضية شعراً أو آية كريمة، مع تفضيل شعر الغزل مغالاةً في الفتنة والتبرج. وكانوا يكتبون هذه الأشعار على جباههن وخدودهن بالمسك والعنبر والغالية، أو يطرزوها على العصائب والثياب، وذيول الأقمطة، وطرر الأردية، وعلى الكمام والقلانس والمناديل وربما كتبنها على النعال والخفاف... وهي أشعار تدور حول الحب والحبيب، والهجر والوصل، والتحنان والهيام، والشوق والدلال، واللوعة والصبابة، والصد والجوى... أشعار تُعبر عما تكنه القينة في ضميرها من مرام، ومايختلج في فؤادها من تباريح الحب وآلام الجوى والغرام، ومايشتعل في جوانحها من رغبة في التلذذ واقتراف الآثام.... اشعار تستفز في اغلب الأحيان الرغبات والشهوات وتدعوا إلى الحب والمداعبة واقتناص اللذات بشكل صريح، بغض النظر عن أن بعض هذا الشعر قد يكون ركيك النظم سخيف المعنى.

كتبت إحداهنَّ بالغالية على عصابتها(٧٨):

إذا غضبت رايت الناس قتلى ... وإن رضيت فأرواح تعودُ
لها في عينها لحظاتُ سحرٍ ... تميتُ بها وتحيي من تريدُ
وتسبي العالمين بمقلتيها ... فكل العالمين لها عبيدُ

ورسم أحدهم على عصابة جارية له(٧٩):

تمّتْ وتمَّ الحسن في وجهها ... فكل شيءٍ ماسواها مُحالُ

(٧٨) ـ المحاسن والأضداد، مصدر سابق، الصفحة ١٨٦

(٧٩) ـ الجواري: مصدر سابق، الصحفة ١٨

للناس في الشهر هلالٌ ولي   في وجهها كل صباحٍ هلالُ

وكتبت إحداهنّ على قلنسوتها[٨٠]:

تأمل حسن جارية   يحار بأنسها القمر
مؤنثة مذكرةٌ   فهي أنثى وهي ذكرُ

وكتبت راهي، جارية الأحدب، قبل أن يشتريها اسحق ابن ابراهيم الموصلي، على وشاح قميصها، تعلن حُر الهوى في فؤادها واضطرام الجوى في جوانحها:

إذا وجدتُ لهيبَ الشوق في كبدي   أقبلتُ نحو سقاءِ القومِ أبترد
هبني طفئتُ ببرد الماء ظاهره   فمن لحرٍّ على الأحشاء يتقدُ[٨١]

وكتبت جارية على هلال صدرها[٨٢]:

أفلتُ من حور الجنانِ   وخُلقتُ فتنة من يراني

وكتب أبو اسحق محمد الوشاء يقول[٨٣]:

«قال الماوردي: رأيت جارية، ونحن عند محمد بن عمرو بن مسعدة، لم أشك أنه عاشق لها وإليها مائل، لما رأيت من حركاته إذا نظرت، وسروره إذا نطقت، وتهلله إذا غنت، وكانت فوق وصف الواصف من الحسن والجمال، وعليها قميص موشح ورداءٌ معين، مكتوب في وشاح القميص:

أغيبُ عنكِ بودٌ لايغيرهُ   نأيُ المحلِّ ولاصرفٌ من الزمن[٨٤]
تعتلُّ بالشغل عنّا ماتكلمُنا   الشغل للقلب ليس الشُغل للبدنِ

وعلى طراز الرداء:

أقلُّ الناس في الدُنيا سروراً   مُحبٌ قد نأى عنه الحبيبُ

---

(٨٠) ـ النساء العربيات: كرم البستاني، الصفحة: ٣٢

(٨١) ـ الموشى والظروف والظرفاء: محمد بن اسحاق الوشاء، تحقيق كمال مصطفى، الجزء الثاني، الصحفة ٢٢١

(٨٢) ـ النساء العربيات، مصدر سابق، الصفحة ٣١

(٨٣) ـ الموشى أو الظرف والظرفاء: مصدر سابق، الجزء الثاني، الصفحة ٢١٩

(٨٤) ـ صرف الدهر وصروفه: نوائبه وحدثانه.

ورؤيت جارية خارجة من هيكل بيعة ماري مريم وقد كتبت على زنارها(٨٥):

زُنّارُها في خصرها يطرَبُ ... وريحها من طيبها أطيبُ
ووجهُها أحسنُ من حليهاَ ... ولونُها من لونها أعجَبُ

وقرأ أحدهم على تِكّةٍ بعض المواجن(٨٦):

إقطَعِ التكةَ حتى ... تذهب التكّةُ اصلا
ثم قل للرِّدف أهلاً ... بكَ ياردفُ وسَهلاَ

وكتبت جارية إبن السُلميّ على كرزنها(٨٧):

الشمس تطلع للمغيب ولاأرى ... شوقي اليك على الزمان يغيبُ

والكرزن: تاج ملوك فارس وهو مرصع بالذهب والجواهر.

وتحولت هذه المخلوقات الرقيقات الناعمات الجميلات الفاتنات في هذه البيئة التي غزاها الجنس والحنين إلى الباه، وسادها اللهو والفساد إلى شركاء لإبليس يصطاد ويقتل بهنَّ.

قال الجاحظ(٨٨):

«...ولو لم يكن لإبليس شرك يقتل به، ولا علم يدعو إليه ولافتنة يستهوي بها إلاَّ القيان لكفاه. وليس هذا بذم لهُنَّ ولكنه من فرط المديح. وقد جاء في الأثر: «خير نسائكم السواحر الخلابات.. وليس يحُسن هاروت وماروت وعصا موسى وسحرة فرعون إلاّ دون مايحسنه القيان».

ويعلل الجاحظ سبب ذلك فيقول(٨٩):

«...وكيف تسلم القينة من الفتنة، أو يمكنها أن تكون عفيفة؟ وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم

---

(٨٥) ـ الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس: الدكتور صلاح الدين المنجد الصفحة: ٧١ وما بعدها.

(٨٦) ـ الموشى أو الظرف والظرفاء، مصدر سابق، الجزء الثاني، الصفحة ٢٢٨

(٨٧) ـ المصدر السابق: الجزء الثاني، الصفحة ٢٢٣

(٨٨) ـ رسائل الجاحظ: مصدر سابق، الجزء الثاني، الصفحة ١١٥

(٨٩) ـ رسائل الجاحظ، مصدر سابق، الجزء الثاني، الصفحة ١١٦

الألسن والأخلاق بالمنشأ وهي إنما تنشأ من لدن مولاها إلى أوان وفاتها فيما يصدّ عن ذكر الله من لهو الحديث وبين الخلعاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جدٍّ ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانه مروءة. وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً... عدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضُرِب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت... بُنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة».

واستطاعت هذه المخلوقات بعد أن توطدت مكانتهن في المجتمع أن يتفوقن على المرأة العربية كما مرَّ معنا، ينتزعن الرجل منها حيث لم يكن في استطاعة المرأة العربية ضمن ظروفها التي عاشت فيها آنذاك أن تباريهن في ميدان الغنج والاغراء والمجون والخلاعة، مثل ريطة القرشية التي رفضت اتباع الأساليب الدخيلة بأن تنزل إلى مستوى الجواري المملوكات وتتزيَّ بزيِّ الذكر كما كن يفعلن.

كتب الجاحظ يقول[٩٠]:

«... ووصفت للمتوكل ريطةُ بنت العباس بن علي فطلبها فحملت إليه فتزوجها، ثم سألها أن تُطمَّ شعرها وتتشبه بالمماليك فأبت عليه. فأعلمها إن لم تفعل فارقها، فاختارت الفرقة فطلقها».

تجارة الرقيق وأسواقه.

بلغت تجارة الرقيق من الوفرة والانتشار شأواً بحيث لم تخلُ مدينة من المدن الكبرى من سوق لها، يؤتى إليها بأنواع الرقيق المختلف المصادر والألوان والأجناس لدرجة أنهم أطلقوا على أحد شوارع بغداد إسم «شارع الرقيق». وهي سوق كما وصفها اليعقوبي «مربعة فيها طرق متشعبة، وفيها الحُجر والغرف والحوانيت للرقيق»[٩١]. وكان الناس يغدون على هذا السوق يتفرجون فيه على الوافدات الجديدات من شتى بقاع الأرض.

غير أن هذه الأسواق لم تكن تحتوي إلاّ على الرقيق المعتدل الجمال. لأن بيع الرقيق الجيّد

---

(٩٠) ـ المحاسن والأضداد: للجاحظ، مصدر سابق، الصفحة ١٣٨

(٩١) ـ كتاب البلدان لأحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي، الصفحة ٢٥٩ نقلاً عن آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري.

في السوق العام كما يقول اليعقوبي: «بمثابة عقوبة تحط من قدره»(٩٢). لذلك فإن الجواري البارعات الجمال النابهات في مختلف الفنون كُنَّ لاينزلن هذه المنازل المهينة، بل يُسعى خلفهن، وترسل الرسل في طلبهن والبحث عنهن. وربما عُرض بعضهن في دور خاصة للنخاسين سنأتي على وصفها، وهي دور أشبه ماتكون بالبارات أو المقاصف يقدم فيها الشراب والفواكه وأطايب الطعام، وتموج بالزائرين المتفرجين والمشترين.

وغدت مهمة تعليم الجواري وتربيتهن باباً من أبواب الكسب الواسعة في ذلك العصر فراجت مهنة الإتجار بهن بعد اعدادهن إعداداً خاصاً. وكان أول من نشط في هذا المجال المغنون المشهورون بدقة الصنعة أمثال ابراهيم الموصلي(٩٣)، وابنه اسحق، ودحمان المغني(٩٤)، ويزيد حوراء(٩٥) وغيرهم.

وكان ابراهيم مغني الرشيد ونديمه من أنشط تجار الجواري في ذلك العصر، وأعظم من كسب أموالاً طائلة في هذا المضمار حيث عكف على تعليم الجواري واعدادهن إعداداً فنياً وثقافياً شاملاً. فقيمة الجارية إضافة إلى جمالها تتعاظم بمقدار ماتتقنه من فنون وآداب. وكان يبيعهن أو يعمد إلى إهدائهن وفي الحالتين يكون مكسبه ذهباً.

وذهب ابراهيم بعيداً في هذه الصنعة حيث أسسس مع يزيد حوراء شركة لتجارة الجواري.

كتب ابن خرذادبة يقول(٩٦):

---

(٩٢) ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، المجلد الأول، الصحفة ٣٠٢

(٩٣) ـ ابراهيم الموصلي: ولد في الكوفة سنة ٧٤٢ للميلاد وتوفي في بغداد في خلافة الرشيد عام ٨٠٤ ميلادية. فارسي المنتسب، من أشهر موسيقي العرب وركن من أركان الغناء العربي في العصر العباسي، برع في الغناء والعزف على العود. حظي بمنادمةالمهدي والهادي والرشيد وعرف بالنديم.

(٩٤) ـ دحمان: توفي حوالي سنة ٧٨٢ للميلاد. من المغنين في أوائل العهد العباسي. أخذ الغناء عن معبد، إتصل بالخليفة المهدي، وكان يعلم الجواري صناعة الغناء.

(٩٥) ـ يزيد حوراء: رجل من أهل المدينة من موالي بني ليث بن بكر ويكنى أبا خالد. قدم المهدي في خلافته فغنّاه. وهو مغن حسن الصوت حلو الشمائل محسن كثير الصناعة من طبقه ابن جامع وابراهيم الموصلي.

(٩٦) ـ كتاب الأغاني، مصدر سابق، المجلد الثالث، الصفحة ٢٥١

«...ان ابراهيم الموصلي أسس شركة للإتجار بالجواري مع يزيد حوراء. وكانا يعملان على شراء الجواري وتلقينهن الغناء ثم بيعهنَّ وتقسيم الأرباح بينهما».

وروي عن دحمان المغني أنه قال[٩٧]:

«... اشترى جارية بمئتي دينار فلما أتمَّ تعليمها واستكمل ثقافتها باعها بعشرة آلاف دينار».

ورُوي عن هارون الرشيد أنه ابتاع جارية بمئة ألف دينار[٩٨]، وجارية أخرى اشتراها من ابراهيم الموصلي بمبلغ ستة وثلاثين الف دينار[٩٩]، وهو مبلغ يكفي لإعالة عائلة لمدة سنة كاملة. وطلب محمد الأمين إلى جعفر ابن الهادي أن يبيعه جارية اسمها بُذل فأبى فأمر فأوقر قاربه ذهباً فبلغت قيمة ذلك /٢٠/ مليون درهم أي أكثر من مليون دينار. وهذا إذا صحَّ كان اعظم مابلغ إليه بذلهم في أثمان الجواري[١٠٠].

كما نُقل عن الحافظ جلال الدين السيوطي أنه قال: «أن ابراهيم ابن المهدي اشترى شارية المغنية من اسحق الموصلي بثلاث مئة دينار... ثم اشتراها المعتصم بخمسة آلاف دينار[١٠١]. وأن جارية لأبي بكر الخوارزمي «طُلبت بعشرة آلاف درهم فلم يَجُدْ بها»[١٠٢].

وتحولت مهنة النخاسة إلى تجارة تدر على أصحابها والقائمين عليها أرباحاً خيالية مما حدا بالحكومة أن تُنَصِّب عاملاً خاصاً يشرف عليها ويتابع شؤونها يدعى «قيم الرقيق»[١٠٣].

وبلغ عدد من المقينين أمثال دهمان المغني وأبو عمير وأبو الخطاب وحرب بن عمرو الثقفي، والقراطيسي، وابن رامين، وحسنوية، والنطاف وغيرهم من سعة الثروة وشرف الجاه والشهرة الذائعة الصيت مالم يبلغه أحد لدرجة أن أبا دلامة[١٠٤] الشاعر تمنى على نفسه لو

---

(٩٧) ـ اسحق الموصلي الموسيقار النديم: الدكتور محمود أحمد الحفني، الصفحة: ٥٨

(٩٨) ـ تاريخ التمدن الإسلامي، مصدر سابق، المجلد الخامس، الصفحة: ٦٣٥

(٩٩) ـ اسحق الموصلي الموسيقار النديم، مصدر سابق، الصفحة: ٥٨

(١٠٠) ـ تاريخ التمدن الإسلامي، مصدر سابق، المجلد الخامس، الصفحة ٦٥١

(١٠١) ـ المستظرف من أخبار الجواري، للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة ٣٥

(١٠٢) ـ يتيمة الدهر. أبو منصور الثعالبي، المجلد الرابع، الصفحة: ١٥١

(١٠٣) ـ كتاب الأغاني، مصدر سابق، المجلد الثاني، الصفحة ٢٧

(١٠٤) ـ أبو دلامة: زند بن جون، كوفي أسود نبغ أيام بني العباس وانقطع إلى أبي العباس ←

استطاع أن يُطلّق الشعر ويصبح نخاساً ليعيش كما يعيش هؤلاء النخاسون في ترف ونعمة ويتمتع بما يتمتعون به من رفيع المقام وكبير الإعزاز والإكرام، فأنشد الخليفة المهدي قصيدة طويلة بهذا المعنى مطلعها[١٠٥]

إن كنت تبغي العيش حلواً صافياً   فالشعر أعزبه وكُن نخاسا[١٠٦]

تطور وارتقاء صناعة التجميل «الماكياج».

ولما كان جمال الجواري والقيان يُعبر عن رأس مال مالكهن ويُعتبرُ جزءاً أساسياً من مواصفاتهن، فقد عمدن إلى التجمل[١٠٧]، واجتهدن في إظهار مواطن الفتنة في جمالهن وفي المحافظة عليه.

ومن أجل التطبيق الأمثل لهذا الهدف عَمَدْنَ إلى إجادة حسن استخدام كل ماوضع تحت تصرفهن من أدوات ومواد وأساليب إصطناعية متعددة ومبتكرة للتزويق لدرجة أن بعضهن تخصصن في هذا الفن.

كتب الأتليدي يقول[١٠٨]:

«... وكان عند جعفر بن يحي البرمكي وزير الرشيد جارية خاصة تمشط شعور جواريه وتزينهن له كل ليلة».

فإذا كان هذا في قصر جعفر فلم لايكون مثله في غالبية القصور؟!.. ولم لايكون أكثر من ماشطة في قصر الرشيد وغيره من الخلفاء.

← وأبي جعفر المنصور والمهدي. لم يصل لأحد من الشعراء ما وصل إلى أبي دلامة من المنصور خاصة. كان فاسد الدين رديء المذهب، مرتكباً للمحارم، مضيعاً للفروض مجاهراً بذلك. وكان المنصور يغض النظر عنه للطف محله؟!.

(١٠٥) ـ عيون الأخبار: ابن قتيبة الدينوري، المجلد الأول، الصفحة، ٢٥٠

(١٠٦) ـ اعزبه: أبعده

(١٠٧) ـ التجمل: هو فن تجميل المرأة وإخفاء عيوبها بالاعتماد على تقدم الحضارة وحسنها المتكلف المجلوب بالحيلة.

(١٠٨) ـ أعلام الناس: مصدر سابق، الصفحة ٨١

إن إصرار المقينين والجواري معاً على الوصول إلى هذا الهدف واللهاث في سبيل تحقيقه ساعد على انتشار صناعة التجميل والترويق والتزيين الفني (الماكياج) وعلى ارتقاء أدواتها وتعدد موادها وتطور اساليبها وفن استخدام هذه الأساليب والأدوات والمواد، وجعلها قادرة على ابراز المفاتن واخفاء العيوب التي قد تعد نقصاً يؤدي إلى خفض سعر الجارية أو عدم الاقبال على شرائها وتحقيق الربح المرتجى من اعدادها وهو ربح خيالي في أكثر الأحيان.

كتب المسعودي يقول[١٠٩]:

«... عُرضت جارية بثلاثمئة دينار فلما علمها ابراهيم بن المهدي الغناء عُرض في ثمنها ثلاثة آلاف دينار».

ويقول أحد النخاسين[١١٠]:

«... ربع درهم حناء يزيد ثمن الجارية مئة درهم فضة».

وغدت صناعة إعداد الجواري والإتجار بهن فناً قائماً بذاته لاينقصه شيء، وقد حوى كل شيء، واحتال على كل شيء.

كتب آدم متز يقول[١١١]:

«... وكانت الجواري يخضبن حواجبهن بالرمك، وأطرافهن إن كانت الجارية بيضاء بالخضاب الأحمر وإن كانت صفراء بالأسود، ويجرون الصناعة مجرى الطبيعة في كشف الضدِّ بالضدِّ».

ويشير الدكتور صلاح الدين المنجد في مؤلفه الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس[١١٢] إلى فقرات من رسالة لإبن عبدون البغدادي كان آدم متز قد أورد فقرات منها في مؤلفه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري[١١٣]. تبين هذه الرسالة مابلغه فن الترويق من

---

(١٠٩) ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر: مصدر سابق، المجلد الثالث، الصفحة: ٣٠٩

(١١٠) ـ الجواري: الدكتور جبور عبد النور، مصدر سابق، الصفحة ٣١

(١١١) ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، مصدر سابق المجلد الأول، الصحفة ٣٠٣

(١١٢) ـ الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس: الدكتور صلاح الدين المنجد، الصفحة ٧٧ ومابعدها.

(١١٣) ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، مصدر سابق المجلد الأول، الصفحة ٣٠٢

مهارة وبراعة، ومن مقدرة على التضليل.

قال ابن عبدون(١١٤):

«... فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهبة وممسوح العجز بثقيل الروادف، وبطين بمجدول الحشا، وأبخر الفم بطيب النكهة. وكم من مرة جعلوا العين الزرقاء كحلاء وحمروا الخدود المصفرة، وسمنوا الوجوه المقعقعة(١١٥)، وكبروا الفقاح الهزيلة وأعدموا الخدود شعر اللحا، وأكسبوا الشعور الشقر حالك السواد، وجعدوا الشعور السبطة، وبيضوا الوجوه المسمرة، ودملجوا السيقان المعرقة، ورطلوا(١١٦) الشعور الممرطة(١١٧)، وأذهبوا آثار الوشم والجدري والنمش والحكة...».

وكان من عادة النخاسين أن يستغلوا المواسم في أسواق الرقيق، لأن في مثل هذه المواسم تتم للنخاسين الحيل، فربما باعوا المريض بالصحيح والغلام بالجارية، وربما طولوا الشعور بأن وصلوا في أطرافها من جنسها، وأزالوا روائح الأنف بالسعوط بدهن البنفسج والنيلوفر ونحوهما، وجلوا الأسنان الكامدة بالأشنان والسكر وسحيق الصيني أو الفحم أو الملح المدقوق، أو أزالوا الشعث في أصول الأظفار بغسلها بالخل والعسل والمرتك أو دهن الورد واللوز المر(١١٨).

ومع إنتشار الخلاعة والمجون ومختلف أنواع المتع الحسية عمل المقينون ومالكوا الجواري على محاربة الحمل والولادة لما قد يكون لها من تأثير مرهل على أجساد الجواري والقيان، وماقد يخلق أمامهن من متاعب ومصاعب تحد من حرية تصرفهن مع المعجبين من عشاقهن. لذلك إنتشرت وسائل منع الحمل، وتواترت عمليات الإجهاض من أجل المحافظة على قوام الجواري ورشاقة أجسادهن، وإمكانية ممارسة حريتهن الجنسية بدون متاعب وذيول.

---

(١١٤) ـ رسالة جامعة لفنون نافعة في شرى الرقيق وتقليب العبيد تأليف الشيخ أبي الحسن المختار بن الحسن بن عبدون البغدادي المتطبب ضمن مخطوط رقم ٤٩٧٩ بمكتبة برلين.

(١١٥) ـ المقعقعة: اليابسة أو الشيء اليابس حركة مع صوت. والقعقاع: التمر اليابس.

(١١٦) ـ رطلوا: رطل الشعر: لينه بالدهن وأرخاه ومشطه وأرسله.

(١١٧) ـ الممرطة: مرط الشعر مرطاً: نتفه. أو الشعر تساقط. والأمرط الخفيف شعر الجسد والحاجبين والعينين.

(١١٨) ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، مصدر سابق، المجلد الأول ـ الصفحة ٣٠٣

كتب ويل ديورانت يقول(١١٩):

«... ومع هذا فإن الإجهاض ووسائل منع الحمل كانت كثيرة الإنتشار في داخل البيوت، وكانت القابلات تنقل إلى النساء قديمها كما كان الأطباء يعرضون عليهن حديثها. وقد أفرد الرازي(١٢٠) المتوفي سنة ٩٢٤ في أحد كتبه فصلاً لموانع الحمل. وذكر اربعة وعشرين من الموانع الآلية والكيمائية. وأورد إبن سينا(١٢١) (٩٨٠ ـ ١٠٣٧) في كتابه القانون الذائع الصيت عشرين وصفة لمنع الحمل».

---

(١١٩) ـ قصة الحضارة في العالم، مصدر سابق الجزء الثاني، المجلد الرابع، الصحفة: ١٤٠ ومابعدها.

(١٢٠) ـ الرازي: هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٨٦٤ ـ ٩٢٤م). طبيب وكيميائي وفيلسوف مسلم من أشهر أطباء العرب. ولد في الري ودرس الرياضيات والطب والفلسفة والفلك والكيمياء والمنطق والأدب. ظل حجة في الطب حتى القرن السابع عشر ولقب بجالينوس العرب. عمل رئيساً لأطباء بيمارستان الري، فرئيساً للبيمارستان العضدي ببغداد. ألف كثيراً من الرسائل في شتى الأمراض. من مؤلفاته الكثيرة «برء الساعة» و«الجدري والحصبة» وهو من أفضل الكتب الطبية القديمة وقد ترجم إلى اللاتينة. و«الحاوي» وهو أكبر موسوعة طبية عربية جمع فيه مقتطفات من مصنفات الأطباء الإغريق والعرب، ترجمه إلى اللاتينية بصقلية الطبيب اليهودي فرج بن سالم (١٢٧٩م). والرازي أول من ابتكر خيوط الجراحة. كما نقد الأديان وأنكر إمكان التوفيق بين الفلسفة والدين وأنكر على المعتزلة إدخال البراهين العقلية في العقائد. له رسالتان إحداهما في نقد الأديان والأخرى في مخاريق الأنبياء.

(١٢١) ـ ابن سينا. هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا. عرف بالشيخ الرئيس ابن سينا. ولد في أفشنة قرب بخارى عام ٩٨٠ للميلاد وتوفي ودفن في همذان عام ١٠٣٧ ميلادية. فيلسوف من كبار فلاسفة العرب وأطبائهم. درس العلوم الشرعية والعقلية وأصبح حجة في الطب والفلك والرياضيات والفلسفة. تعمق في درس فلسفة أرسطو وتأثر أيضاً بالأفلاطونية المستحدثة. فقد قال بفيض العالم عن الله كما فعل أفلوطين.

له ميول صوفية عميقة برزت في «الحكمة المشرقية» وهي عبارة عن فلسفته الشخصية، تجاوزت مصنفاته المئتين بين كتب ورسائل تدل على سعة ثقافته وبراعته في العلوم الفلسفية وغير الفلسفية. من مؤلفاته المطبوعة «القانون في الطب» وإليه ترجع شهرة ابن سينا في عالم الطب إذ ظل عمدة الأطباء طوال العصور الوسطى وأعظم عالم بالطب منذ ١١٠٠م إلى ١٥٠٠م. وله في الفلسفة «الشفاء» وفي المنطق «الإشارات والتنبيهات» وغيرها... ولا يزال قسم من تآليفه مخطوطاً في خزائن الكتب. له قصيدة في النفس القصيدة مشهورة ومطلعها:

هبطت إليك من المحل الأرفع ... ورقاء ذات تعزز وتمنع

الفصل الرابع

الدور الرائد لمنازل المقينين وأنديتهم

منازل المقينين وأنديتهم.

اعتاد المجّان والخلعاء والشعراء والكتاب وسماسرة ذوي النفوذ والسلطان من أصحاب المال والجاه، وأهل العلم والمعرفة، وذواقة الفن والأدب، وعشاق الجمال والطرب على ارتياد أماكن توفر لهم مجلساً أنيساً أنيقاً جميلاً، وحديثاً طلياً شهياً عذباً، وطبيعة هادئة خلابة فاتنة، وشراباً بابلياً معتقاً، وقينة غاوية مستغوية، علّهم يُشبعون نهمهم إلى اللذات ويروون غليلهم من المتع والمسرات. وكان في مقدمة هذه الأماكن دور المقينين التي قال في وصفها ابن المعتز[1]:

أيا دارُ كم فيك من لذةٍ ... وعيشٍ لنا كان ماأطيبهْ
ومن قينةٍ أفسدت ناسكاً ... وكانت له في التُّقى مرتبه

أجل لقد تحولت هذه الدور بنديِّها ومحافلها وحدائقها إلى معارض للنخاسين يعرضون فيها الجمال والفن والمتعة. وغدت ظاهرة اجتماعية بارزة في مجتمع الامبراطورية العربية ذات الصفة الإسلامية، لكثرة إنتشارها وتعدد مواقعها في حواضر الدولة العباسية، ولأهمية الدور الذي لعبته جواريها وقيانها اللواتي تخرجن منها في الأدب والسياسة والمجتمع.

لقد عبقت أجواء هذه المنازل وحدائقها بأريج الراح، وأشرقت بسنا الفتنة والجمال الآسر الممتنع المباح. فكان الهديل الشجيُّ بأرخم الأصوات. والغناء الشادي بأجمل الأشعار،

(١) ـ نهاية الأرب في فنون الأدب: للنويري، الجزء الثاني، الصفحة: ١٥٢

والطرب الهازج براقص الألحان يتجاوب في حدائقها وردهات محافلها وأنديتها، ويُغرق روادها بفائض السرور من طيب المعشر والحضور. فيقضون فيها الساعات الطوال وربما الليالي والأيام، بين الصوت العذب الشادي، والصنج والمزهر اللاهي. بين كؤوس الخمر المترعة، وأباريق الراح الراكعة. يتحسسون مواطن الجمال، ومراتع الصبوات، ويرتشفون ماتع اللذات، وشهي القبلات. ويسعون وراء المعشوقة الأثيرة المشتهاة، البازلة الممتنعة بدربة ومهارة تفسد على الناسك نسكه والمتدين إيمانه، والعاقل رجاحة لبه واتزانه. الجارية الطروب الفاتنة اللعوب، البيضاء الرعبوب، صائدة العقول والقلوب والجيوب. التي يتزاحم على باب سيدها الطامعون، ويدفع في سبيلها الأغنياء والمستطيعون.

ويعلل الجاحظ فضائل عشق القيان والعوامل التي تُسهل آفة هذا العشق وتزكي شبق الشهوة الذكوري المشرعن والحنين إلى الباه فيقول: «ومن الآفة عشق القيان على كثرة فضائلهن وسكون النفس اليهن وأنهن يجمعن للإنسان من اللذات مالا يجتمع في شيء على وجه الأرض[٢]». لأن عشقهن يشترك فيه «ثلاثة من الحواس، وصار القلب بها رابعاً. فللعين النظر إلى القينة الحسناء والمشهية إذ كان الحذق والجمال لايكادان يجتمعان لمُستمتع ومَرتَعْ، وللسمع منها حظ الذي لامؤونة عليه، ولاتطرب آلتُه إلا إليه. وللمس فيها الشهوة والحنين إلى الباه. والحواس كلها رواد للقلب وشهود عليه»[٣] وأن «مجالسة القينة أعظم فتنة لأنه رُوِيَ في الأثر» إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب الشهوة». وكفى بها لصاحبها فتنة، فكيف بالنظر والشهوة إذا صاحبهما السماع وتكانفتهما المغازلة»[٤].

وأثبت السيد فايد العمروسي في كتابه «الجواري المغنيات» من جملة ماأثبته، حادثة طريفة تؤكد ماذهب إليه الجاحظ، وتعطي فكرة عن الأجواء التي كانت سائدة في مثل تلك الدور. وقد جرت هذه الحادثة الطريفة المعبرة في منزل ابن رامين بالكوفة الذي كان مصيدة للكسب واختلاب عقول الأثرياء والمعجبين بجواريه وقيانه ولاسيما جاريته سلاّمة الزرقاء.

كتب العمروسي يقول[٥]:

---

(٢) ـ رسائل الجاحظ مفاخرة الجواري والغلمان، مصدر سابق، الجزء الثاني، الصفحة ١١٢

(٣) ـ رسائل الجاحظ، مفاخرة الجواري والغلمان، مصدر سابق، الجزء الثاني، الصحفة ١١٢

(٤) ـ المصدر السابق، الجزء الثاني، الصفحة، ١١٣

(٥) ـ الجواري المغنيات: فايد العمروسي، الصفحة: ١١٣

«.. قيل أن قوماً من أشراف الكوفة، اجتمعوا عندها تغنيهم وقد لبست إزاراً ورداءً مُوَرَّدَيْن كأن الشمس طالعة من بين رأسها وكتفيها.

وبينما هي تغنيهم، طرقهم طارق، فقالت الزرقاء من؟.

قالت جاريتها: يزيد بن عون الصيرفي الملقب بالماجن....

فأذنت له... فلما استقبلها أقعى بين يديها، ثم أخرج من جيبه لؤلؤتين.

وقال: أنظري يازرقاء، جُعلت فداك، ثم حلف أنه اشتراهما بأربعين الف درهم.

قالت الزرقاء: وماشأني بشرائهما؟!

قال : أردت أن تعلمي....

ثم قالت: ياماجن هبهما لي ويحك...!

قال: قد فعلتُ إن شئت.

قالت: شئتُ

قال: على أن تأخذيهما بشفتيك من شفتيَّ...

قيل: فخرج ابن رامين وترك القوم.

قالت الزرقاء: قبلت

فمشى الماجن على يديه وركبتيه واللؤلؤتان في فمه. وقال للزرقاء: هاك.

فلما أقدمت عليه بشفتيها، جعل يصدُّ عنها يميناً وشمالاً ليستكثر من ملاعبتها.

فغمزت الزرقاء جارية كانت على رأسها، فخرجت واندفعت هي إلى الماجن وأمسكت بمنكبيه حتى أخذت الزرقاء اللؤلؤتين بفمها من فمه.

وتوجهت قائلة: المغبون في استه عود..!..

قال: ما أبالي، لايزال طيب رائحتك في أنفي وفمي أبداً ماحييت..»[٦].

---

(٦) - يمكن الرجوع إلى كامل القصة في كتاب الأغاني، مصدر سابق، المجلد الخامس عشر الصفحة: ٦٥ ومابعدها.

ومن أفضل ماقيل في وصف ماكان يجري في دار ابن رامين من أفانين اللهو، وضروب المتعة، وفي وصف جواريه ربيحة، وسعدة، وسلامة والزرقاء قصيدة لإسماعيل ابن عمار[٧]، نذكر بعضاً من أبياتها.

قال ابن عمار[٨]:

هَلْ من شفاء لقلبٍ لجَّ محزون ... صبا وصَبَّ إلى رئم ابن رامينِ[٩]
الى ربيحة إنَّ الله فضَّلَها ... بحسنها، وسماعٍ ذي أفانينِ
وهاج قلبي منها مضحكٌ حسنٌ ... ولثغةٌ بَعْدُ في زاي وفي سينِ
نفسي تأبى لكم إلاَّ طواعيةً ... وأنتِ تأبينَ أنفاً أن تُطيعيني
إن تسعفيني بذاك الشيء أرضى بِهِ ... وإنْ ضَننتِ به عني فزنيني
أنتِ الطبيبُ لداءٍ قد تلبَّس بي ... من الجوى فانفثي في فيَّ وأرقيني
لأنسَ سعدة والزرقاء يومَ هُما ... باللُّجِّ شرقيه فوق الدكاكينِ
يُغنيان ابنَ رامينٍ على طربٍ ... بالمسجحي وتشبيب المحبين[١٠]
أذاكَ أنعَمُ أم يومٌ ظللتُ به ... فراشيَ الوردُ في بستان شورينِ
نُسقى طِلاءً لعمرانٍ يُعتِّقهُ ... يُمسي الأصحاءُ منه كالمجانينِ[١١]
إذا ذكرنا صلاةً بعدما فرطت ... قُمنا إليها بلا عقلٍ ولادينِ[١٢]
نمشي إليها بطاءً لاحراك بنا ... كأنَّ أرجلنا تُقلعن من طينِ
نمشي وأرجلنا عوجٌ مطارحُها ... مَشْيَ الأوز التي تأتي من الصينِ
أو مشيَ عُميان ديرٍ لا دليل لهم ... إلاَّ العصيُّ إلى عيد السعانينِ

في مثل تلك الأجواء، ومن خلال هذه المؤثرات التي تفعل فعلها في عقول الجلساء من رواد هذه المنازل، وفي أجسادهم وأحاسيسهم وعواطفهم، تسقط مشاعر الحشمة لديهم،

---

(٧) ـ اسماعيل بن عمار: شاعر مقل مخضرم من شعراء الدولتين الأموية والعباسية كان ينزل الكوفة.

(٨) ـ كتاب الأغاني: مصدر سابق، المجلد الحادي عشر. الصفحة ٣٦٥ والخامس عشر الصفحة ٦١

(٩) ـ صبا: يصبو، مال إلى الجهل والفتوة، صبّ: من الصبابة، وهي الشوق والعشق. الرئم: مخفف من الريم وهو الظبي الخالص البياض.

(١٠) ـ المسجحي: نسبة إلى المغني سعيد بن مسجح. مكي أسود، مغن متقدم من فحول المغنين وأكابرهم.

(١١) عمران: يعني عمران بن موسى بن طلحة بن عبيد الله.

(١٢) ـ فرطت: سبقت وتقدمت، إنتهى وقت أدائها.

وتتجلى في سلوكهم مظاهر التبذل والتهتك، فينشط المقينون، ويتحرك النخاسون بكل مايملكون من فنون الابتزاز، وحَلْبِ الفرص واستغلال الظروف، أملاً في النجاح وسعياً وراء الثروة والجاه.

ويصف الجاحظ أساليب هؤلاء النخاسين ومااُوجبت عليهم أفانين مهنتهم من اطِّراح الحشمة لاصطياد المرابطين من المعجبين. فيقول: «والمقينُ يأخذ الجوهر ويعطي العرَض، ويفوز بالعين ويعطي الأثر، ويبيع الريح الهابة بالذهب الجامد، وفِلذ اللُّجين والعسجد. وبين المرابطين وبين مايريدون منه خرطُ القتاد، لأن صاحب القيان لو لم يترك إعطاءَ المربوط سؤله عفةً ونزاهةً، لتركه حذقاً واختياراً، وشُحاً على صناعته، ودفعاً عن حريم ضيعته، لأن العاشق متى ظفر بالمعشوق مرة واحدة نقص تسعةُ أعشار عشقه، ونقص من برّه ورفده بقدر مانقص من عشقه. فما الذي يحمل المقين على أن يهبك جاريته ويكسر وجهه ويصرف الرغبة عنه. ولولا أنه مَثَلٌ في هذه الصناعة الكريمة الشريفة لِمَ يُسقطُ الغيرة عن جواريه ويعنى بأخبار الرقباء، ويأخذ اجرة المبيت ويتتادم قبل العشاء، ويُعرضُ عن الغمزة، ويغفر القُبلة، ويتغافل عن الاشارة، ويتعامى عن المكاتبة، ويتناسى الجارية يوم الزيارة، ولايُعاتبها على المبيت، ولايفضُّ ختام سرِّها، ولايسألها عن خبرها في ليلها... ويُعِدُّ لكل مربوط عُدَّة على حِدَه ويعرف مايصلح لكلٍ واحد منهم، كما يميز التاجر اصناف تجارته فيسعرها على مقاديرها»(١٣).

وترددت أسماءٌ لهذه الدور، وتعددت المسميات في سماء بغداد والكوفة وفي كل سماء من مدن وحواضر الدولة العباسية، يبهر بريق شهرتها الأعين، وتلهجُ بنعيم مُتعها الألسن. مثل دار القراطيسي، والمفضل، وزُرَيْق بن مُنيح، ودار بربر، وأبي عكل، والطُليحي الملقب بعطعط، وغيرها.

واشتهرت كل دار من هذه الدور باسم جارية أو أكثر تكون اساساً لها، ومصدراً لشهرتها، ومداراً للقصص والطُرف التي تنتشر عنها. فكان لكل جارية منهن قصصها، وضُروب تماجنها مع محبيها من رواد الدار التي تقيم فيها. مثل دار ابن رامين وسلاّمة الزرقاء كما مر معنا، ودار النطاف وعنان شاعرة الظُرف والمجون، ودار الأحدب والجارية مصابيح، ودار حسنويه وفضل الشاعرة، ودار ابي عمير والجارية عبادة، وقصر يحي بن نفيس والجارية بصبص، ومنزل اسماعيل المراكبي وشيخة الغناء العباسي عريب، وغيرها من الدور

---

(١٣) ـ رسائل الجاحظ، الجزء الثاني، كتاب القيان، الصفحة: ١١٧ وما بعدها.

والأسماء التي تألقت في سماء الظُرف والشعر والأدب والغناء. وأغنت جانباً لاحباً من حضارتنا وأدبنا وفننا بثرٌ عطائها وأريج ريحانها.

ونرى أن نقتطف بعض الأبيات من قصيدة لعلي بن الجهم[١٤]، يصف فيها الشاعر دار المفضَّل وماكان يجري فيها من أفانين الاغراء وأحابيل لاصطياد المعجبين. وهي دار تقع في باب الكرخ، كان يغشاها مع عدد من فتيان بغداد، كما يصف صاحب الدار وماكان يقوم به من حركات وتصرفات.

قال علي بن الجهم[١٥]:

نزلنا بباب الكرخ أطيب منزلٍ … على مُحسناتٍ من قيانِ المُفضَّلِ
فلابن سُريجٍ والغريضِ ومعبدٍ … بدائع في أسماعنا لم تُبدّلِ
أوانيسُ ماللضيف منهن حشمةٌ … ولا ربُهنَّ بالجليل المبجَّلِ
يُسَرُّ إذا ما الضيفُ قَلَّ حياؤه … ويَغفَلُ عنه وهو غيرُ مغُفَّلِ
ويكثر من ذمّ الوقار وأهلهِ … إذا الضيفُ لم يأنس ولم يتبذَّلِ
ولايدفعُ الأيدي المريبةَ غَيرةً … إذا نال حظاً من لبوس ومأكلِ
ويُطرقُ إطراق الشجاع مهابةً … ليُطلقَ طرفَ الناظر المتأمِّلِ
أشِرْ بيدٍ واغمز بطرف ولاتخف … رقيباً إذا ماكنتَ غير مُبجَّلِ
واعرض عن المصباحِ والْهَجْ بمثلهِ … فإن خَمَدَ المصباحُ فادنُ وقبِّلِ
وسلْ غيرَ ممنوع وقُلْ غيرَ مُسكتٍ … ونم غير مذعورٍ وقُم غير مُعجَّلِ
لك البيتُ مادامت هداياكَ جمّةً … وكنتَ مليّاً بالنبيذ المُعسَّلِ

ألا تذكرنا قصيدة علي بن الجهم في وصف ماكان يجري في دار المفضل بالملاهي الليلية (الكباريهات) ومنتجعات بيع اللذة، وأقبية البغاء لإشباع قرم الشهوات؟!. أليس ماكان يجري فيها كان يجري في كل دار من مثل هذه الدور؟! ثم الا يذكرنا وصف المفضل صاحب الدار بقوادي هذا الزمان وقوادي كل عصر ومكان؟!.

---

(١٤) ـ علي بن الجهم: شاعر عباسي، كتب عنه صاحب الأغاني يقول: «وكان علي بن الجهم شاعراً فصيحاً مطبوعاً خصّ بالمتوكل حتى صار من جلسائه. ثم أبغض لأنه كان كثير السعاية إليه بندمائه.. نفاه بعد أن حبسه. وكان ينحو في ذم آل أبي طالب وهجاء الشيعة والإمام علي..
الأغاني المجلد العاشر الصفحة: ٢٠٥

(١٥) ـ كتاب الأغاني: مصدر سابق، المجلد العاشر، الصفحة ٢١٩

هذا الواقع يؤكد ماكنا قد ذكرناه سابقاً عن منازل المقينين وأنديتهم، وأنها بقدر ماكانت معارض لتلميع الجواري وتزويقهم وتجميلهم كانت بمثابة مدارس لهن تعلمهن فن التبرج والتزويق، وتزودهن بوصايا فنون الاغراء والتشويق، وتدربهن على وسائل الرهز وكل ماينشط الباه ويغري به.

كتب جبور عبد النور يقول[١٦]:

«... ومن وصاياهم للجواري أن يتبرجن للمشتري تارة ويختفين منه أخرى... وأن يدارين الشيوخ والنافري الطباع، ويستملنهم. ويتجنبن الشباب ويمتنعن عليهم ليتمكنَّ من قلوبهم».

ويصف الجاحظ تصرف القيان مع عشاقهم عند الإلتقاء وكيف يُهيجن كوامن الغيرة في نفوسهم ويبعثن عند البعض منهم وَهْمَ المناصحة والتفضيل على الآخرين فيقول: «فتبكي لواحد بعين وتضحك للآخر بالأخرى، وتغمز هذا بذاك، وتعطي واحداً سرها والآخر علانيتها وتوهمه أنها له دون الاخر، وأن الذي تظهر خلاف ضميرها. وتكتب اليهم عند الإنصراف كتباً على نسخة واحدة تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم»[١٧]. ولله درُّ أبي نُواس ماأروع وصفه لأخلاق القيان في ذلك الزمان وتلاعبهن بقلوب عشاقهن عندما قال[١٨]:

ومُظهِرةٍ لخَلْقِ الله وُدّاً ... وتلقى بالتحيةِ والسلامِ
أتيتُ فؤادها أشكو إليه ... فلم أُخلص إليه من الزحامِ
فيامن ليس يكفيها صديقٌ ... ولا ألفا خليلٍ كلَّ عامِ
أراكِ بقيةً من قوم موسى ... فهم لايصبرون على طعامِ

تأهيل الجارية ثقافياً واجتماعياً.

أدرك النخاسون ومالكوا الجواري والقيان كما بينا سابقاً أن علم الجارية وأدبها ومؤهلاتها الفنية والأدبية والاجتماعية تقوَّم في سوق الرقيق كما يُقوَّم جسدها وجمالها وأكثر. فإذا ما

---

(١٦) ـ الجواري، جبور عبد النور، مصدر سابق، الصفحة: ٣١ .

(١٧) ـ رسائل الجاحظ، مصدر سابق، الجزء الثاني كتاب القيان، الصفحة: ١١٥ .

(١٨) ـ أخبار النساء في العقد الفريد: جمع وشرح عبد مهنا وسمير جابر، الصفحة: ٢٤٢ .

قوّمت جارية بمئتي دينار، كانت تُقوّم بأضعاف ذلك مغنية وأديبة. لذلك اصبحت الجارية الجميلة المثقفة بمثابة ثروة كاملة لصاحبها. يفخر بها كما يفخر بما يتفرد به من ثمين المتاع والحلي، ونفائس الطُّرف. ويزيد الثمن ويرفع السعر كلما تفتحت المواهب وتعددت المؤهلات، وتفوقت الامكانيات وكثر الطلب لها وازداد الإقبال عليها.

فإذا تمّ للجارية الشرط الأول، بمعنى اكتملت محاسنها فلم يشنها عيب أو يحط من مقامها نقص، وكانت مولدة أو مجلوبة إلى ديار الإسلام وهي صغيرة السن قابلة للتعليم والحفظ، تحوّل صاحبها إلى تطويع لسانها وتليين حركاتها، وصقل مواهبها على أيدي أمهر المدربين وأقدر المدرسين من ذوي الخبرة والتجربة الواسعة. وكان الخلفاء بنوع خاص يعهدون إلى علماء اللغة، بل إلى أئمتهم، في تثقيف قيانهم ليأخذن عنهم فصاحة اللسان وأسرار اللغة وماالحق بها من علوم كلامية تنفعهنّ في حياتهن المقبلة، أو لاختيار الجواري اللواتي يهدين إليهم أو يُعرضن عليهم لسبر إمكانياتهن، ومايتحلين به من مواهب ومؤهلات، كما فعل الرشيد وهو بمدينة الرقة عندما طلب الأصمعي[19] ليعرض عليه جاريتين أهديتا إليه لسبر علمهما وفحص امكانياتهما. فحُمل إليه من دار السلام وعاصمة الملك بغداد، فوجد إحداهما لاتحتاج إلى مزيد علم، كاملة الأدب فصيحة اللسان، تروي الأشعار والأخبار، وتحفظ القرآن والحديث، وتجيد نظم الشعر[20].

وبقدر ماكانت أندية منازل المقينين وقصور الأشراف والعظماء معارض لإبراز مفاتن الجميلات ومواهبهن، كانت أيضاً بمثابة معاهد لهُنَّ إذا صحت التسمية، تسعى إلى تدريبهنَّ وتأهيلهنَّ واعدادهنَّ، وتعزيز امكانياتهن اجتماعياً وثقافياً وفنياً. وتعليمهن اصول العادات والتقاليد والرسميات (البروتوكلات)، كأدب المجالس والمجالسة من محادثة، وسماع، وصمت وكلام، واحترام واجلالٍ، المعمول بها في المحافل الخاصة، وفي مجالس السادة وكرام القوم وعلى موائد الدعوات والحفلات.

---

(١٩) ـ الأصمعي: هو أبو سعيد عبد الملك. ولد عام ٧٤٠ للميلاد وتوفي عام ٨٢٨ ميلادية. من مشاهير لغوي العرب. تعلم في البصرة على الخليل وأبي عمرو بن العلاء، وأخذ عن خلف الأحمر، وحفظ لغة البدو. عهد إليه هارون الرشيد بتعليم الأمين. له كتاب «خلق الإنسان» و«كتاب الخيل» و«كتاب الإبل» و«كتاب الأضداد» والمجموعة الشعرية «الأصمعيات». ويقال: لولاه لفقدنا الكثير من دواوين العرب وأشعارهم.

(٢٠) ـ المحاسن والأضداد للجاحظ. مصدر سابق، الصفحة: ٢٢٦ ومابعدها.

كتب آدم متز يقول[٢١]:

«...وكان يحلُّ محلَّ ربة البيت على موائد الدعوات ضرب من الحظايا كما كان الحال عند اليونان القدماء، وكُنَّ نساء مُتقنات لأرقى الآداب الاجتماعية مدرَّبات عليها، حائزات كل مظاهر الجمال والثقافة والفن، قديراتٍ على أن يتحدثن مع الرجال حديثاً حُراً من غير وجلٍ... وكان أغلب أولئك النساء جواري مملوكات، ولكن كان منهنَّ من تعمل بأجرٍ، ومعظم هؤلاء مُعتقات...».

أجل لقد عمد أسياد الجواري والمقينين إلى تفجير مواهبهنَّ الكامنة، وغرس مؤهلات جديدة وتوسمات مستشرفة تنمي ثقافتهن وتنوع معارفهن، وتؤهل سلوكهن، وتعزز نشاطهن الإجتماعي ومكانتهن. وبشكل خاص ذلك النوع من الجواري اللواتي يُعْدَدْنَ للتردد على المجالس وحلقات السمر وإنشاد الشعر ونظمه، ورواية القصص والأخبار والطرائف. وبهذا تكتمل شخصية الجارية، وتزكو مواهبها، وتصبح مؤهلة لأن تتربع على عرش المجالس، فتشارك فيها عن معرفة وذوق، وتقرع أبواب السادة وأرباب الرياسة، وأكابر الدولة. فتعاشر خاصة القوم، وتُجالس أهل العلم والأدب وأساطين الغناء والطرب بثقة القادرة، وقناعة المستطيعة، وصلابة الواثقة.

رفع التعليم والتثقيف والتدريب من مستوى الجواري المادي والعقلي والاجتماعي، بعد أن تزيَّن وتجملْن وداعبن ومجُنَّ. فأصبحن مغنيات مثقفات، وشاعرات موفقات، ومتحدثات بارعات، وجليسات أنيسات ماتعات، وساقيات ماهرات متأودات، تتطلع النفوس إليهن، وتميل العقول لمنادمتهن، وتتوق القلوب إلى مجالستهن. فتسلطن على الخلفاء والأمراء، ورجال الدولة وعامة الناس، واستعبدن من كان يُعِدُّهن إماءً له، وانتزعنه من المرأة العربية الحرة التي تفوقن عليها حيث لم يكن في استطاعتها أن تباريهن. فنلن بتلك الثقافة وبذلك التأهيل الإجتماعي حظاً من المكانة والجاه، وغدون محط الاعجاب والتقدير والحظوة في المجتمع، وفي إيقاظ المشاعر وتحريك وجدان الأدباء ولاسيما الشعراء حتى تصدَّرن واسطة عقد الحياة الاجتماعية في العصر العباسي. فلا يُعقد مجلس أنس إلا كُنَّ كواكبه المتألقة، ولامنتدى أدبي إلَّا كُنَّ رياحينه الفواحة، ولا محفل لهو ومجون إلاَّ كُنَّ حياته ولذته.

---

(٢١) ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري: مصدر سابق، المجلد الثاني، الصفحة: ١٧٦ ومابعدها.

وحكاية الرشيد مع الجارية دنانير(٢٢) جارية يحى بن خالد البرمكي(٢٣) معروفة. لقد فتنت تلك الجارية الرشيد واستهوته بغنائها وحديثها وملاحتها حتى بلغ من اعجابه بها أن أهداها في ليلة عيد عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار وقيل غير ذلك(٢٤). وكان الرشيد يكثر من زيارتها عند مولاها ويفرط في التودد إليها حتى اشتهر أمره وتحدث الناس كيف ينتقل خليفة إلى جارية؟... وساء الأمر أم جعفر زوجته زبيدة فشكته إلى أهله وعمومته فعاتبوه في ذلك(٢٥). ثم حاولت أن تبعده عنها فأهدته عشر جوار من جواريها منهن «مارية» أم المعتصم، و «مراجل» أم المأمون، و «فارهة» أم صالح ابن الرشيد(٢٦). ورغم ذلك بقي مفتوناً بدنانير التي لم يكن باستطاعته أن يشتريها من سيدها يحي بن خالد البرمكي الذي

(٢٢) - **دنانير**: جارية صفراء مولدة كانت لرجل من أهل المدينة أدّبها وخرّجها فكانت من أروى الناس للغناء القديم والشعر، ومن أحسنهم أدباً وظرفاً. ولها كتاب مجرد في الأغاني مشهور. وكانت جميلة الوجه رشيقة القد، صادقة الملاحة، فلما رآها يحى وقعت بقلبه فاشتراها. عُرفت دنانير بحلاوة الحديث وقراءة الشعر وروايته والتثقف بالأدب، ودقة اللحن والإيقاع، وبالفضل والتقدم على كبار المغنين حتى فتنت كل من رآها. أصابتها العلة الكلبية فكانت لاتصبر على الأكل ساعة واحدة، وكان يحي يتصدق عنها في كل يوم من شهر رمضان بألف دينار لأنها كانت لاتصومه. عن كتاب الأغاني المجلد الثامن عشر، الصفحة: ٦٨ .

بعد نكبة البرامكة بقيت دنانير مخلصة لهم ولمولاها بشكل خاص. علماً أن الرشيد حاول إستمالتها وطلب منها الغناء فأبت على الرغم من أمره في استعمال القسوة معها. ولما أحسَّ بثبات موقفها رقَّ لها وتركها تعيش أينما تريد وكيفما تحب. ويقال أنها عاشت في دار للبرامكة لاتفرح لنعمة ولاتطرب لعشق أو غناء، وفية لمولاها حتى ماتت.

(٢٣) - **يحيى بن خالد**: توفي سنة ١٩٠/ هجرية ٨٠٥ ميلادية.

هو يحيى بن خالد بن برمك، أبو الفضل: الوزير الثّري الجواد سيد بني برمك وأفضلهم، وهو مؤدب الرشيد العباسي ومعلمه ومربيه. رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنهاالفضل. أمَرَهُ المهدي سنة ١٦٣ للهجرة أن يلازم ابنه الرشيد لما بلغ سن الرابع عشرة وأن يكون له كاتباً، وكان الرشيد يدعوه «ياأبي». ولما وُلّيَ هارون الرشيد الخلافة دفع خاتمه إلى يحى وقلده أمره فبدأ يعلو شأنه، واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه في الرقة إلى أن مات، فقال الرشيد: مات أعقل الناس وأكملهم. عن الأعلام للزركلي، الجزء الثامن الصفحة: ١٤٤ - ووفيات الأعيان الجزء الثاني، الصفحة: ٢٤٣ والبداية والنهاية، الجزء العاشر الصفحة: ٢٠٤ .

(٢٤) - **كتاب الأغاني للأصبهاني**، مصدر سابق المجلد الثامن عشر، الصفحة: ٦٧ .

(٢٥) - كتاب الأغاني للأصبهاني، مصدر سابق، المجلد الثامن عشر، الصفحة: ٦٥ .

(٢٦) - المصدر السابق، المجلد الثامن عشر، الصفحة: ٦٧ .

كان له دالة قاهرة ورأياً لايرد على الرشيد بصفته مؤدبه ومعلمه ومربيه.

وكان في مقدمة تلك الجواري المغنيات المثقفات، الجارية جميلة السُّلَمِيّة[٢٧] رائدة الغناء الحجازي التي سبقت الجارية دنانير بعشرات العقود. وكانت تفهم الشعر وتنقده إلى جانب تفوقها في الغناء. أجل لم تكن جميلة مغنية مُحسنة وزعيمة للغناء في عصرها وحسب، بل كانت أيضاً محدثة بارعة لها إلمام بأخبار العرب ونوادر شعرائهم وعشاقهم. لقد عُدَّت جميلة من الرواة الثقاة في أخبار جميل وبثينه، وعنها أخذ الرواة كثيراً من أخبار المحبين من بني عذرة.

وكان لها موهبة ومعرفة حسنة في فهم الشعر ونقده، فكانت دارها في المدينة مدرسة لتعليم الغناء ونقده وتهذيبه، كما كانت قطب الدائرة والمركز الذي يلتقي فيه أقطاب الغناء ومحبوه، ومنتدى أدبياً لكبار الشعراء للسماع ومناشدة الأشعار والأحاديث الأدبية والطرائف التاريخية، ومرتاداً لأكابر القوم يقصدونه للسماع. وكانت جميلة بينهم الحكم الذي لايُرَدُّ حكمه ولاينقض رأيه[٢٨]. حتى قال عنها عمر بن أبي ربيعة: «لله درك ياجميلة ماذا أعطيت، أنت أول الغناء وآخره»[٢٩].

امتحان الجواري وسبر مؤهلاتهن

إن المكانة التي تربع عليها بعض الجواري والقيان لدى سادة المجالس وروادها من الأمراء والأعيان والشعراء والأدباء، بفضل مفاتنهن الجسدية ومواهبهن الثقافية والفنية ومؤهلاتهن المتعددة، جعلت منهن كما ذكرنا سابقاً الكواكب الساطعة في سماء كل مجلس أنس

---

(٢٧) ـ **جميلة السُّلميّة** نسبة إلى بني سُليم، جارية من جواري بني سُليم تزوجت بمولى لبني الحارث من الخزرج (من الأنصار)، وكانت تنزل بالسنح (في عوالي المدينة). موسيقية ملحنة من أعلم المغنين والمغنيات في العرب بصناعة الغناء، وأحسن من أحسن الضرب على العود. توفيت نحو سنة ١٢٥ للهجرة. قال عنها معبد: «أصل الغناء جميلة وفرعه نحن ولولا جميلة لم نكن نحن المغنين». عن الأغاني، المجلد الثامن الصفحة: ١٨٦ .

(٢٨) ـ الأغاني: المجلد الثامن، الصفحة: ١٩٣ ومابعدها.

(٢٩) ـ المصدر السابق، المجلد الثامن، الصفحة: ٢٠٧ .

وشراب وطرب، والرياحين العبقة في أجواء كل منتدى أدبٍ وظُرفٍ وسمر، وحياة ولذة كل محفل لهو ومجون ودلع.

وكل جارية كان يُشيع ذكرها أو يعلو صيتها ويتحدث باسمها أهل المجالس، يتودد إليها كل معجب أو عاشق طامع، ويأمل بالحصول عليها وامتلاكها كل ثري قادر على مواجهة السوم ودفع الثمن. من هنا كان التنافس بين المولعين والمعجبين بالقيان على أشده، وكان من تأثيرهن على أهل الحكم مالا يصدقه عقلٌ أو يقبله منطق عاقل متوازن.

كتب أبو الفرج يقول(٣٠):

«قال ابن المعتز: وحدث محمد بن سهل المعروف بسهل الأحول، قاضي الكتاب في زمانه وكان يكتب لإبراهيم بن المهدي، وشيخ ثقة قال: اعطى المعتصم لإبراهيم بشارية(٣١) سبعين ألف دينار فامتنع عن بيعها، فعاتبته على ذلك فلم يُجبني بشيء. ثم دعاني بعد ايام... ثم ضرب ستراً كان إلى جانبه فسمعتُ حركة العيدان، ثم قال: يا شارية غنّي، فسمعت شيئاً ذهب بعقلي. فقال: ياسهل هذه التي عاتبتني في أن أبيعها بسبعين ألف دينار، لا والله ولا هذه الساعة الواحدة بسبعين الف دينار».

واستغل الجواري والقيان هذا الواقع أحسن استغلال. ولم لا والخليفة نفسه الذي أصبح طوع أيديهنَّ ورُهْن أمرهن إما زوج أو ابن أو عاشق مُدله بهن فبعد أن لعبن بالأفئدة والجيوب واستأثرن بالعواطف والمشاعر والقلوب، اتجه بعضهن بعد اقتناص فضيلة الصعود ودخول قصور الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء إلى التأثير في الحياة العامة، والى الاشتغال

---

(٣٠) ـ كتاب الأغاني للأصبهاني، مصدر سابق، المجلد السادس عشر، الصفحة: ١٠ ومابعدها.

(٣١) ـ شارية: جارية مولدة من مولدات البصرة. يُقال أن أباها كان من بني أسامة بن لؤي المعروفين بيني ناجية وأنه جحدها، وكانت أُمّها أَمَةً فدخلت في الرق. ولكن شارية كانت تقول: أن أباها من قريش وقد سرقت وهي صغيرة فبيعت إلى إمرأة من بني هاشم تقيم في البصرة، وأن هذه عرضتها للبيع بثلاثمائة درهم، فتقدم لشرائها اسحاق الموصلي وابراهيم بن المهدي، ولكنها كانت من حظ ابراهيم، فضمها إليه وهي في السابعة من عمرها فأدبها وعلمها الغناء فأخذت غناءه كله. ويُقال أن ابراهيم ادعى عتقها ثم تزوجها ليقطع الطريق على الخليفة المعتصم الذي كان يعمل على أخذها من ابراهيم بطرق متعددة. ولما مات ابراهيم ابتاعها المعتصم فتحولت شارية إلى قصره وكانت في ملكه حتى توفي. ثم اشتراها الواثق... ويقول أبو الفرج: «كانت شارية أحسن الناس غناءً منذ توفي المعتصم إلى آخر خلافة الواثق». عن الأغاني المجلد السادس عشر، الصفحة: ١٢ .

بالسياسة والمشاركة في تصريف أمور الدولة وحبك الدسائس أو تخطيط المؤامرات. فكم من والٍ صعد ومن حاكم سجن أو قتل، وكم من خليفة تربع، ومن خليفة عزل وسملت عيونه أو قتل، وكم من مجرى أحداث تغير بتدخل قينة أو بإشارة من بنان جارية كانت قد تعلمت وتدربت وتخرجت من أحد هذه المنازل التي كان يملك بعضها ويدير شؤونها النخاسون والمقينون، والتي يمكن أن تُسمى بحق معاهد تأهيل وتدريب للجواري والوصائف والقيان.

إن هذه المرتبة المتقدمة من الشهرة والنفوذ التي توصلت إليها بعض الجواري والقيان، ماكانت بالأمر السهل ولا كان السبيل إليها يسيرا. بل كان على الجارية أن تواجه متاعب جمة لاسبيل إلى مغالبتها، ولا أمل بالفوز والتغلب عليها إلاّ فيما ندر، لأن دون ذلك مايُرى ومالايُرى من متاعب وعوائق، فدون أقراص الشهد كانت تقف دائماً، إبر النحل. وكان على الجارية التي تحاول إرتقاء السلم الاجتماعي أن تبدأ صعودها درجة بعد درجة. فإذا ماثبتت قدمها على أولى الدرجات فكرت بالإرتقاء إلى مابعدها علّها تنجح في الوصول إلى دار أمير أو شريف أو أحد أعيان الدولة أو قادة الجند. وقد تستغل مركز نبيل أو أديب أو مكانة شاعر علّها تنجح بدخول دار وزير أو قصر خلافة. فهذه الجارية عنان(٣٢) على سبيل المثال اختارت الفضل بن الربيع ليكون خير وسيلة لها إلى قصر الرشيد فكتبت إليه تقول(٣٣):

كُن لي هُديت إلى الخليفة سُلَّماً | بوركت يابن وزيره من سُلَّمِ
حُثَّ الإمام على شرايَ وقل له | رَيحانَةٌ ذُخرت لأنفك فاشمم

غير أن القضية ليست قضية جمال ودلع وحسب، والوساطة وحدها إلى جانب ذلك كانت لاتكفي ولاتشفع، بل أن هناك ماهو أهم وأخطر من ذلك. هناك جمال الخلق،

---

(٣٢) ـ عِنان بكسر العين، جارية صفراء مغناج ولدت في اليمامة وبها نشأت. اشتراها النطافي فرباها وعلمها وثقفها وأدبها، اشتهرت بقول الشعر فكانت من أشهر شعراء دهرها بديهة، وأسبقهم نادرة، وأعذبهم حديثاً، مع رقة وجمال. تمتعت عنان بحرية مطلقة في علاقاتها وسلوكها فكانت لاتبالي بما تقول وتفعل، ولاتخجل من ذكرالألفاظ البذيئة في أحاديثها وشعرها. ويمكن القول أنها بحياتها وسلوكها وشعرها كانت تجسد ظاهرة الانفتاح والتهتك بلا حدود ولاقيود ولاقيم بين النساء الجواري، تلك الظاهرة التي كانت بحق من الأمور المستجدة في محيطها وعصرها، عصر الشك بالقيم السائدة والثورة على كل مايمت إلى القديم بصلة.

(٣٣) ـ المحاسن والأضداد للجاحظ، مصدر سابق، الصفحة: ١١٤ .

وجمال الأدب، وجمال المنطق، وجمال الصوت، وجمال الصنعة، وجمال الفهم وحسن التصرف وسرعة الخاطر والبداهة، والثقافة المتنوعة، وأنها هي التي تفتح للجارية الأبواب الموصدة. هناك الامتحان الذي ينتظر كل جارية، ويعترض كل قادمة منهن ليسبر إمكانياتها ومقومات إعدادها وتأهيلها. فإن ثبتت الجارية فيه ونجحت أدخلت، وإن سَقطت أُسقطت.

والامتحان لم يكن بالشيء اليسير لأنه كان يتم على أيدي أساتذة عارفين محنكين، وعلماء خبراء أجلاَّء، يعرفون ماذا يسألون وكيف يمتحنون. وخير دليل على ذلك أن جعفر بن يحي بن خالد البرمكي(٣٤) كان يقوم بامتحان جواريه بنفسه(٣٥)، وكذلك مارواه الأصمعي عن الرشيد حيث بعث يطلبه ليمتحن جاريتين أهديتا إليه فقال: «وقال لي: ياعبد الملك وجهت إليك بسبب جاريتين أهديتا إليَّ وقد أخذتا طرفاً من الأدب أحببتُ أن تبوِّر ماعندهما وتشير عليَّ فيهما بما هو الصواب عندك.... فحضرت جاريتان مارأيت مثلهما قط، فقلت: لِأجلِّهما ماعندك من العلم؟ قالت: ما أمر الله في كتابه، ثم ماينظر الناس فيه من الأشعار والآداب والأخبار، فسألتها عن حروف القرآن فأجابتني كأنها تقرأ الجواب في كتاب، وسألتها عن النحو والعروض والأخبار فما قصرت، فقلت: بارك الله فيك فما قصرت في جوابي في كل فن أخذتِ فيه، فإن كنت تقرضين الشعر فأنشدينا شيئاً، فاندفعت في هذا الشعر:

ياغياث البلاد في كُل مَحْلٍ ... مايريد العبادُ إلاَّ رضاكَ
لا ــ ومن شرفَ الإمام وأعلى ــ ... ما أطاع الإله عبدٌ عصاكَ

ومرت في الشعر إلى آخره... وقالت الأُخرى فوجدتها دونها فقلت ياأمير المؤمنين ماتبلغ

(٣٤) ـ جعفر بن يحيى البرمكي: هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي أبو الفضل وزير الرشيد العباسي وأحد مشهوري البرامكة ومقدميهم. ولد ونشأ في بغداد، استوزره هارون الرشيد ملقياً إليه زمام الحكم، وكان يدعوه أخي. فانقادت إليه الدولة يحكم بما يشاء فلا ترد أحكامه، إلى أن نقم الرشيد على البرامكة نقمته المشهورة فقتله سنة ١٨٧ للهجرة: ٨٠٣ ميلادية، ثم أحرق جثته بعد سنة. كان كاتباً بليغاً يحتفظ الكتاب بتوقيعاته يتدارسونها. عن الأعلام للزركلي، المجلد الثاني الصفحة: ١٣٠ .

(٣٥) ـ أمالي المرتضي للشريف المرتضي، تحقيق أبو الفضل ابراهيم دار إحياء الكتب العربية طبعة عام ١٩٥٤ للميلاد. الجزء الأول الصفحة: ١٠١ .

هذه منزلتها إلّا أنها إنْ وُوْضِبَ عليها لحقت»[٣٦].

وينقل لنا جلال الدين السيوطي عن أبي الفرج الأصبهاني يصف لنا الامتحان الذي خضعت له نبت جارية مخفرانة عندما عُرضت على المعتمد على الله لشرائها.

كتب السيوطي يقول[٣٧]:

«قال أبو الفرج الأصبهاني[٣٨]: كانت مغنيةً حسنةَ الغناء، شاعرةً سريعة الهاجس. عرضت على المعتمد فامتحنها في الغناء والكتابة فرضي* بما ظهر له من أمرها، ثم قال لإبن حمدون[٣٩] قارضها،

فقال: وهبتُ نفسي للهوى.

فقالت غير متوقفة: فجارَ لمّا أن ملك

فقال: فصرتُ عبداً خاضعاً

فقالت: يسلك بي حيث سلك.

(٣٦) ـ تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، مطبعة السعادة بمصر عام ١٩٣١ ، الجزء العاشر، الصفحة: ٤١١ .

(٣٧) ـ المستظرف من أخبار الجواري، للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٦٩ ومابعدها.

(٣٨) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ١٨٣ .

(٣٩) ـ ابن حمدون: هو أحمد بن ابراهيم بن اسماعيل المعروف بأبي عبد الله بن حمدون النديم. أديب لغوي إخباري، وأستاذ ثعلب. كان خصيصاً بالمتوكل ونديماً له، ثم نفاه، وكان سبب نفي المتوكل له، أن الفتح بن خاقان كان يعشق شاهك غلام المتوكل، وله فيه أشعار منها:

أشاهك ليلي مذ هجرت طويل   وعيني دماً بعد الدموع تسيلُ
وبي منك والرحمن مالا أطيقه   وليس إلى شكوى إليك سبيلُ
أشاهك لو يُجزى المحبُّ بوده   جُزيتُ. ولكن الوفاء قليل

وأن إبن حمدون سعى فيما يحبه الفتح، فعرف المتوكل الخبر فاستدعاه وقال له: إنما أردتك وأدنيتك لتنادمني ليس لتقود علي غلماني. فأنكر ذلك وحلف يميناً حنث بها. فأمر المتوكل بنفيه إلى تكريت، ثم أرسل إليه من يقطع أذنه ويقول له: أمر أمير المؤمنين بقطع أذنك وأن تعامل كما يُعامل الفتيان. عن كتاب الديارات دير درمالس للشابشتي، الصفحة: ٦ .ولابن حمدون مصنفات في الجغرافيا والأنساب والشعر. عن معجم الأدباء، المجلد الأول، الصفحة: ٢٦٥

فأمر المعتمد بشرائها، فاشتُريت بثلاثين ألف درهم».

ويحدثنا أحمد بن سهل الكاتب قال[٤٠]:

«..سمعت الحسن بن مخلد يحدث أن رجلاً نخاساً من أهل اليمامة قدم بجاريتين شاعرتين من مولدات اليمامة على المتوكل. فعرضهما عليه من جهة «الفتح بن خاقان»[٤١].

فنظر إلى احداهما فقال لها: ماسمك؟

قالت: ريًا

قال: أنت شاعرة؟

قالت: كذا يزعم مالكي

قال: فقولي في مجلسنا هذا شعراً ترتجلينه وتذكريني فيه. فتوقفت ساعة ثم انشدت:

أقول وقد أبصرتُ صورة جعفرٍ ... إمام الهدى والفتح ذي العز والفخرِ
أشمس الضُحى أم شبهها وجه جعفرٍ ... وبدر السماء الفتح أو شبهُه البدرُ؟

فقال للأخرى: أنشدي أنت شيئاً إن كنت قلت، فقالت:

أقول وقد أبصرتُ صورة جعفرٍ ... تعالى الذي أعلاك ياسيد البشرْ
وأكملَ نعماهُ بفتحٍ ونصحه ... فأنت لنا شمسٌ وفتحٌ هو القمر

فأمر بشراء الأولى منهما، وردَّ الأخرى

---

(٤٠) ـ المصدر السابق للأصفهاني، الصفحة: ١٥٥ ومابعدها.

(٤١) ـ الفتح بن خاقان (توفي سنة ٢٤٧ للهجرة/ ٨٦١ ميلادية). هو الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج، أبو محمد: أديب شاعر فصيح، كان في نهاية الفطنة والذكاء. فارسي الأصل من أبناء الملوك. قدمه المتوكل واستوزره وأمَّره على الشام، وأمره أن يستتيب عنه. كانت له خزانة كتب جمعها علي بن يحي المنجم، لم ير أعظم منها كثرة أو حسناً. وكان يحضر داره فصحاء الأعراب وعلماء البصرة والكوفة: ألف كتاباً سماه «اختلاف الملوك» وكتاباً في «الصيد والجوارح» وكتاب «الروضة والزهرة». ولما قتل المتوكل كان حاضراً، فلما هجموا على المتوكل وهو على شرابه وقطعوه بالسيوف قام الفتح بن خاقان وألقى نفسه عليه وقال: ياأمير المؤمنين لاحياة لي بعدك، فقطعوه بالسيوف أيضاً. عن (الأعلام الجزء الخامس، الصفحة: ١٣٣، وفوات الوفيات الجزء الثالث الصفحة: ١٧٧

فقالت المردودة، لم رددتني يامولاي؟

قال: لأن في وجهك نمشاً!

فقالت:

لم يسلم الظبيُ على حُسنِه ... يوماً ولا البدرُ الذي يوصف
الظبيُ فيه خَنسٌ بيِّنٌ ... والبدرُ فيه نكتةٌ تعرفُ

فأمر بأن تشترى.

وقال علي بن الجهم[٤٢]:

«... إني لعند المتوكل يوماً والفتح بن خاقان حاضر، إذ قيل له: فلانٌ نخاس فأذن له، فدخل ومعه وصيفة.

فقال له المتوكل: ما صناعة هذه؟

قال: تقرأ بالألحان.

فقال الفتح: إقرأي لنا خمس آيات.

فاندفعت تقول:

قد جاء نصر الله والفتحُ ... وشقَّ عنّا الظُلمة الصبحُ
خدينُ ملك ورجى دولةٍ ... وهمّةُ الإشفاقُ والنصحُ
وكل بابٍ للندى مُغلقٌ ... فإنما مفتاحه الفتحُ

فأمره المتوكل بشرائها. وكانت من أحظى جواري الفتح»[٤٣].

وهكذا تبين لنا بشكل واضح كم كانت تعاني الجارية القينة حتى تتيسر لها سبل الفرج والفوز في ارتقاء السلم الاجتماعي، وكم كان يعلق عليها صاحب القيان من آمال حتى يفوز بالثمن الذي يرتضيه ويتناسب مع بضاعته بعد أن علَّم وثقَّفَ وأعَّد وأمضى الأيام

(٤٢) ـ علي بن الجهم: أبو الحسن، من بني سامة، من لؤي بن غالب: شاعر رقيق الشعر أديب من بغداد. نفاه المتوكل إلى خراسان ثم انتقل إلى حلب. مات متأثراً بجراحه سنة ٢٤٩ للهجرة/ ٨٦٣ ميلادية بعد أن تقاتل مع فرسان بني كلب أنظر رأي أبو الفرج فيه في الصفحة: ٩٠

(٤٣) ـ المستظرف من أخبار الجواري للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٧٣ .

والليالي في التأديب والتأهيل ، لا حُبّاً بالأدب والفن، وليس بدافع الغيرة على العلم، ولا حنواً على الجارية نفسها أو شفقة على مستقبلها، بل بدافع الثروة والجاه والسعي وراء الثراء الواسع، لأن الجارية كلما نبهت وعظمت شهرتها وتعددت مواهبها كلما كان ثمنها باهظاً ومردود التعب على تأهيلها وإعدادها كبيراً.

وبرز بين هؤلاء الجواري المغنيات المثقفات وبشكل خاص الولائد الفارسيات شاعرات موفقات اتخذن نظم الشعر أداة للغواية واستهواء قلوب الرجال، فأتين بشعر رقيق صافي الديباجة لطيف المعاني يجمع طيب النكهة وحسن المفاكهة وبداهة المحاورة ولطف الابتداء، وطرافة المخرج. سنتوقف عند الأشهر والأشعر منهن بهدف المثال الأمثل لا الحصر الأشمل، مثل عِنان جارية النطاف، وعريب المأمونية، وفضل الشاعرة، ومحبوبة جارية المتوكل.

الفصل الخامس

النـمـوذج الأشـهـر
للجواري الشاعرات

عِنانُ شاعرة الظرف والمجون

ولدت عِنان (بكسر العين) بنت عبد الله في اليمامة وبها نشأت ثم اشتراها الناطفي[1] أحد المقينين ويكنى بأبي حفص فرباها وعلمها وثقفها وأدبها. كانت صفراء جميلة الوجه شِكلة[2] مليحة الأدب والشعر سريعة البديهة[3]. ومن أجلها أصبحت داره منتدى العظماء وملتقى الشعراء والعلماء يجتمعون إليها. وكان فحول الشعراء يساجلونها ويقارضونها الأبيات الغريبة والمعاني النادرة فتنتصف منهم.

عن أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال: حدثنا عمر بن شُبه قال: سمعت أبا حنش[4] يقول: قال لي النطافي يوماً: لوجئت إلى عِنان فطارحتها، فعزمت على الغدو إليها، وبت ليلتي

---

(١) ـ النطافي أو النطّاف: نسبة إلى بائع الناطف. والناطف نوع من الحلوى تُلطخ به الكرابيج يباع في ماردين وماحولها (ضمن الحدود التركية اليوم)وفي حلب. وفي الوسيط: الناطف: ضرب من الحلوى يُصنع من اللوز والجوز والفستق ويسمى أيضاً القُبيّط قال أبو نواس:

يقول والناطف في كفِّهِ　　　من يشتري الحلْوَ من الحُلوِ

عن موسوعة حلب المقارنة: الأسدي م خير الدين إعداد محمد كمال طبع جامعة حلب، الطبعة الأولى١٩٨٨ . المجلد السابع، الصفحة: ٢٥٢ .

(٢) ـ شِكْلَة: من شَكِلت المرأة فهي شِكلةٌ: صارت ذا غنجٍ ودلال.

(٣) ـ كتاب الأغاني: مصدر سابق، المجلد الثالث والعشرون، الصفحة: ٨٥

(٤) ـ أبو حنش الهلالي وقيل النميري. اسمه خضير بن قيس عاش مائة سنة وكان يصحب ←

أجول ببيتين، ثم غدوت عليها، فقلت: أجيزي هذين البيتين! وأنشد يقول:

أحبُّ الملاحَ البيضَ قلبي وإنَّما ... أحبُّ الملاح الصُفر من ولدِ الحبشْ
بكيتُ على صفراء منْهنَّ مرةً ... بكاءً أصاب العينَ منّي بالعمشْ

فقالت:

بكيت عليها؟ إن قلبي أحبُّها ... وإن فؤادي كالجناحين ذو رَعَشْ
تُـعـنِّـتنا بـالـشـعـر لما أتـيـتنا ... فدونك خذه محكماً يا ابا خَنَشْ(٥)

كانت عِنان شاعرة ظريفة وأديبة ماجنة ذات بديهة حاضرة، ونادرة سريعة معبرة، وفطنة جاهزة جريئة. وعلى قول أبي الفرج أوثق من يُرجع إليه في أخبار الجواري والقيان «أول من اشتهر بقول الشعر في الدولة العباسية وأفضل من عرف من طبقتها»(٦). تتمتع بشخصية قوية طاغية متميزة غنية بمواهبها الفنية، وبسلوك جريء جعلها أقرب ماتكون إلى أخلاق الرجال منها إلى النساء فلا تبالي بما تقول، ولاتخجل مما تفعل. ويقال أنها طرزت باللؤلؤ معبرة عن سيرتها ورغبتها في التلذذ « إذا لم تستح فاصنع ماشئت»(٧). وأنها كتبت على عصابة لها من شعرها:

الكفر والسحر في عيني إذا نظرت ... فاعزب بعينك يامغرور عن عيني
فإن لي سيف لحظٍ لستُ اغمدُهُ ... من صنعةِ الله لامن صنعة القين(٨)

وتُنِمّ شخصية عِنان في إجازتها للشعر، ومشاركتها في المساجلات والمطارحات، عن شخصية شاعرة نامية متكاملة، علمتها التجارب وصقلتها المعاناة. فنراها تتلاعب بالمعاني، وتعبث بالألفاظ بكل ثقة ومهارة فتثبت في المبارزة وتخرج من الحلبة قوية منتصرة. ويقال أن بكر بن حماد الباهلي طلب منها أن تُجيز له بيتاً وجده على ظهر كتاب.

فقالت: ماهو؟

قال:

← يعقوب وزير المهدي ويخدمه. مدح البرامكة وكان جيد الشعر.

(٥) ـ الإماء الشواعر: للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ٢٨ومابعدها.

(٦) ـ الإماء الشواعر: مصدر سابق، الصفحة: ٢٨

(٧) ـ الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس: مصدر سابق، الصفحة: ٦٩

(٨) ـ العقد الفريد، مصدر سابق، المجلد الثامن، الصفحة: ١١٨

فما زال يشكو الحب حتى حسبته   تنفس من أحشائه أو تكلما

فلم تلبث أن قالت:

ويبكي فأبكي رحمة لبكائه   إذا مابكى دمعاً بكيت له دما
الى أن رثى لي كل من كان موجعاً   وأعرض خلو القلب عني تبرما[٩]

ولفرط دهشته واعجابه قال: هل عندك إجازة لهذا البيت أيضاً؟

بديعُ حُسنٍ بديعُ صَدٍ   جعلتُ خدي له ملاذا

فقالت:

فعاتبوه فعنفوه   فأوعدوه فكان ماذا[١٠]

ويحدثنا أبو زهير رزين العروضي قال: دخلتُ على عِنان وعندها أعرابي، فقالت لي: ياعم، جاء الله بك على حاجةٍ. قلت: ماهي؟، قالت: هذا الأعرابي يسالني أن أقول بيتاً ليجيزه، وقد عسر عليَّ الابتداء فابتدئ بالقول.

فقلت:

لقد حَلَّ العزاءُ فعيل صبري   غداة حمولهم للبين زُمَّتْ[١١]

وقال الاعرابي:

نظرتُ إلى أواخرها ضُحيًا   وقد رُفعت لها حدجٌ فَخَنَتْ[١٢]

وقالت عنان:

كتمتُ هواهمُ في الصدر مني   على أن الدموع عليَّ نَمَّتْ

فقال الاعرابي: أنت والله أشعرنا، وقبل البساط بين يديها[١٣].

وكتب جلال الدين السيوطي يقول[١٤]:

---

(٩) ـ الإماء الشواعر: مصدر سابق، الصفحة: ٣٠

(١٠) ـ العقد الفريد، مصدر سابق، المجلد السابع، الصفحة: ٥٤ ومابعدها.

(١١) ـ زُمَّتْ: وضعت لها الأزِمَّة، مفردها زمام وهو المقود.

(١٢) ـ ضُحيًا: وقت الضحى. حُدُجٌ: مفردها حِدْجٌ: الحمل، ويعني الأحمال المشدودة على البعير.

(١٣) ـ الورقة: أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح، تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج. ذخائر العرب دار المعارف بمصر، طبع عام ١٩٥٣ .

(١٤) ـ المستطرف من أخبار الجواري، مصدر سابق، الصفحة: ٤٤

«...دخل بعض الشعراء على عنان، فقال لها الناطفي: عايـيه[١٥]؟!

فقالت: سقياً لبغداد لا أرى بلداً يسكنه الساكنون يشبهها

فقال: كأنها فضّةٌ مموهةٌ أخلص تمويهها مُمَوِّهُها

فقالت: أمنٌ وخفضٌ فما كبهجتها أرغدُ أرضٍ عيشاً وأرفهُها

قال الصلاح الصفدي: أما بيتا عِنان فإنهما منتظما المعنى، وأما بيت الشاعر فإنه أجنبي منهما».

وكان يدخل عليها في منزل سيدها أكثر الشعراء، أبو نواس، والعباس بن رستم، وإبأّن بن عبد الحميد، والعباس بن الأحنف، ومروان بن أبي حفصة... وغيرهم الكثير، ولها مع كل واحد منهم المواقف الشعرية الطريفة، والمداعبات الماجنة، ودائما يكون لهم منها مايرغبون فيه.

كتب أبو الفرج يقول[١٦]:

«... أخبرني عمر بن عبد العزيز، قال حدثنا عمر بن شبه، قال حدثني أحمد بن معاوية قال: سمعت مروان بن أبي حفصة يقول: لقيني الناطفي، فدعاني إلى عنان فانطلقت معه، فدخل إليها قبلي فقال لها: قد جئتك بأشعر الناس: مروان بن ابي حفصة! وكانت عليلة،

فقالت: إني عن مروان لفي شغل!، فأهوى لها بسوطه، فضربها به،

وقال لي: أدخل! فدخلت وهي تبكي، فرأيت الدموع تنحدر من عينيها، فقلتُ:

بكت عِنان فجرى دمعُها كالدر إذا يسبق من خيطه

فقالت مسرعة:

فليت من يضربُها ظالماً تيبَسُ يُمناهُ على سوطه

فقلت للنطافي: أعتق مروان مايملك إن كان في الجن والأنس أشعر منها».

وجاء في الأغاني[١٧]:

---

(١٥) ـ عايه: بمعنى عاجزيه، وفي رواية أخرى عابثيه.

(١٦) ـ الإماء الشواعر، مصدر سابق، الصفحة: ٢٩ ومابعدها.

(١٧) ـ كتاب الأغاني، مصدر سابق، المجلد الثالث والعشرون، الصفحة: ٨٨

«.. دخل أبو نُواس على الناطفي، وعنانُ جالسةٌ تبكي، وخدُها على رزةٍ من مصراع الباب، وقد كان الناطفي ضربها، فأومأ إلى أبي نواس أن يحركها بشيء.

فقال أبو نواس:

عنان لو جدتِ لي فإنني من　　　عمريَ في (آمن الرسول بما)

فردت عليه عنان:

فإن تمادى ولا تماديتَ في　　　قطعك حبلي أكن كمن ختما[١٨]

فردَّ عليها ابو نُواس فقال:

علقت من لو أتى على أنفُسِ　　　الماضيَنَ والغابرينَ ما ندما

فردَّت عليه:

لو نظرت عينُها إلى حجر　　　ولدَّ فيه فُتُورها سقما

وكتب جلال الدين السيوطي يقول[١٩]:

«.. وقال الجمَّازُ: ألقى أبو نُواس على عِنان جارية الناطفي بيت شعر وهو:

كل يوم باقحوان جديدِ　　　تضحك الأرضُ عن بكاء السماء

فأجابته على المكان:

فهي كالوشي من ثيابٍ يمانٍ　　　جلبتها التُجارُ من صنعاء

وكتب ابن منظور، أن أبا نُواس دخل يوماً إلى دار النطَّاف، والمجلس حافل مابين وامق محب، وناظر متعجب، ومستفيد متعلم.

فقال لعنان أجيبي عن هذا البيت[٢٠]:

---

(١٨) ـ يشير أبو نواس إلى آخر سورة البقرة «آمن الرسول بما أنزل»كأنه يقول: إنني من حبك مازلت في أول سورة، فأجابته:
إن قطعت حبلي كنت أنا كمن ختم القرآن.

(١٩) ـ المستظرف في أخبار الجواري، للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٤٢ ومابعدها.

(٢٠) ـ أخبار أبي نُواس: لابن منظور المصري، شرح وضبط محمد عبد الرسول إبراهيم، السفر الأول، الصفحة ١٣٧ طبع مصر لعام ١٩٢٤

رأيتُ نجوم الليل لاحت كأنها — من الذهبِ العقيانِ أحمر خالصُ

فقالت عنان:

فشبهتها ليلاً مصابيح راهبٍ — عليه ثيابٌ بالياتٌ قوالصُ[٢١]

فقال أبو نواس، وغيَّر الروي:

وإني لأهوى من حبيب أحبُّه — مداعبةً منه وأهوى المداعقة[٢٢]

فقالت عِنان تجيبه:

أجَرِّعُهُ ريقي وأشربُ ريقهُ — فما تنقضي مني ومنه المزاعقة[٢٣]

وعندما كانت علاقة عِنان مع أبي نُواس جيدة، ويظهران تبادل الودِّ، ارسلت إليه منديلاً تسترضيه بعد أن كتبت عليه:

أما يُحسنُ من أحسنَ أن يغضبَ أن يرضى
أما يرضى بأن صرتُ على الأرض له أرضًا[٢٤]

ويحدثنا أبو العيناء عن العباس بن رستم قال: دخلت أنا وأبان اللاحقي[٢٥] على جارية الناطفي في يوم صائف وهي جالسة في الخيش[٢٦].

فقال لها أبان:

لَذةُ عيشِ الصيفِ في الخيشِ

فقالت:

لا في لقاء الجيشِ بالجيش

فقلت لها معرضاً لها: ما أحسن ما قال جرير

---

(٢١) - قوالص: مفردها قالص، الثوب بعد الغسيل انكمش وتشمر.

(٢٢) - المداعقة: الوطء الشديد والهياج.

(٢٣) - المزاعقة: الصياح الشديد، النشاط وشدة الحركة.

(٢٤) - الموشى أو الظُرف والظرفاء للوشاء، مصدر سابق، الصفحة: ٢٢٩ ومابعدها.

(٢٥) - أبان اللاحقي: هو أبان بن عبد الحميد من موالي البصرة وبها منشؤه ومرباه. شاعر أديب ظريف من شعراء العصر العباسي الأول الموهوبين. اتصل بالبرامكة وكان شاعرهم المقدم. نقل لهم كتاب كليلة ودمنة بالشعر المزدوج وبلغ عدد أبياته أربعة عشر ألفاً.

(٢٦) - الخيش: نسيج خشن من الكتان. كان يعلق في مجاري الهواء ويرش بالماء فيبرد ماوراءه.

ظَلِلتُ أُراعي صاحبيَّ تجلداً وقد علقتني من هواكِ علوقُ

فقالت غير متوقفة:

إذا عقل الخوفُ اللسان تكلّمت بأسراره عينٌ عليه نطوق(٢٧)

وكتب صاحب الأغاني يقول(٢٨):

«... حدثني أبو القاسم النخعي قال: كان العباس بن الأحنف(٢٩) يهوى عِنان جارية الناطفي، فجاءني يوماً، فقال: امض بنا إلى عنان جارية الناطفي، فصرنا إليها، فرايتها كالمهاجرة له، فجلسنا قليلاً، ثم ابتدأ العباس فقال:

قال عبّاس وقد أُجهدَ من وجدٍ شديد
ليس لي صبرٌ على الهجر ولالذع الصّدودِ
لا ولا يصبر للهجر فؤاد من حديدِ

فقالت عنان:

من تراه كان أغنى منك عن هذا الصدودِ
بعد وصلٍ لك مني فيه إرغامُ الحسودِ
فاتخذ للهجرِ إن شئت فؤاداً من حديد
مارأيناك على ما كنت تجني بجليدِ

---

(٢٧) ـ الإماء الشواعر: مصدر سابق، الصفحة: ٣٥ ومابعدها.

(٢٨) ـ كتاب الأغاني: مصدر سابق، المجلد الثالث والعشرون، الصفحة: ٩٢ ومابعدها.

(٢٩) ـ العباس بن الأحنف: شاعر عربي الأصل من بني حنيفة فيه دماء فارسية حيث كان آباؤه ينزلون في خراسان. كان من ندماء الرشيد وله معه أخبار حتى أنه صحبه في حملاته على أزربيجان وأرمينيا. قصُرَ شعره على التغزل بمحبوبته فوز، فهو أشبه بالعذريين الأمويين. وهناك دراسات تشير إلى أن فوز ربما لاتكون شخصية تاريخية، بل مجرد تخيل شعري ورمز لمعشوقة أخرى بعيدة المنال بالنسبة للشاعر وفوق طبقته، هي الأميرة علية بنت الخليفة المهدي، كما تقول السيدة عاتكة الخزرجي في دراسة لها عن العباس بن الأحنف. راجع الغزل عند العرب تأليف ج.ك. فاديه، ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني، الجزء الثاني الصفحة: (١١)ومابعدها. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق عام ١٩٧٩ . كان العباس شاعراً رقيق الحاشية لطيف الطباع في ظرف ورقة ورهافة شعور، ومثالاً للعربي البغدادي المهذب في عصره. له ديوان شعر مطبوع، يمتاز غزله بالعذوبة والصدق، وألفاظه بغزارة المعاني والخواطر وبالجزالة والوضوح. لم تعرف سنة ميلاده. توفي في البصرة عام١٩٢ للهجرة/٨٠٨ ميلادية.

فقال العباس:

لــو تجــوديــن لــصــبٍ راح ذا وجـدٍ شــديــدِ
وأخــي جــهــلٍ بما قــد كان يجني بالصدودِ
ليس من أحدث هجراً لـصـديـق بـسـديـدِ
ليس منه الموتُ إن لم تـصـلـيـه بـبـعـيـدِ

قال: فقلت للعباس: ويحك ماهذا الأمر؟

قال: أنا جنيتُ على نفسي بتايهي عليها، فلم أبرح حتى ترضيتُها له».

ونلمس في حوارات عِنان وعبثها مع الشعراء مداعبة ومفاكهة واستخداماً لألفاظ عابثة ماجنة، لاتبدو مجانتها، أو بذاءة ألفاظها إلا عند التقطيع العروضي. ويذكر صاحب كتاب الورقة عن محمد بن الحسن أن رزين بن زند العروضي كان يُعارض عنان ويكثر عندها، وأنه ألقى عليها هذين البيتين وقال قطّعيهما:

أحدهما:

لم تر عيني كتتحابٍ وصاحبه يضرب حرصاً على الدنيا إلى الشام

فلما قالت: مستعلن فاعل، قال: لا أفعل، ففطنت فأخجلها.

والبيت الآخر:

فلا الزهد يغنيني ولا الحرص نافعي على الزُّبدِ بالتمر الذي أنا آكله

فلما قطعته قال لها: ظريفة تذكر السّوأتين. فأخجلها ايضاً(٣٠). ويقصد بالسوأتين لفظ سوأة المرأة، ويظهر عند تقطيع الشطر الأول من البيت. ولفظ سوأة الرجل ويظهر عند تقطيع الشطر الثاني.

وكتب صاحب العقد الفريد يقول(٣١):

«.. وجلس أبو نُواس إلى عنان. فقالت: كيف علمك بالعروض وتقطيع الشعر ياحسن.
قال: جيد. قالت: فقطع هذا البيت:

أكـلـتُ الخردل الـشـاميَّ فـي صـفـحـة خـبـاز

---

(٣٠) ـ كتاب الورقة، محمد بن داوود الجراح، مصدر سابق، الصفحة: ٣٤

(٣١) ـ العقد الفريد: لابن عبد ربه، مصدر سابق، المجلد السابع، الصفحة: ٥٥

فلما ذهب يقطعه ضحكت به وأضحكت فأمسك عنها.

وأخذا في ضروب شتى من الأحاديث، ثم عاد سائلاً لها،

فقال: كيف علمك بالعروض؟! قالت: حسنٌ ياحسن. فقال: قطعي هذا البيت

حوّلوا عنا كنيستكم ... يابني حمالة الحطب

فلما ذهبت تقطعه ضحك أبو نواس. فقالت: قبحك الله مابرحت حتى أخذت بثأرك».

ولما كانت عِنان لاتبالي بما تقول وتفعل، ولاتخجل من ذكر الألفاظ البذيئة في أحاديثها وشعرها مهما سفلت هذه الألفاظ، فإننا نقرأ في أشعارها ومساجلاتها الشعرية بعض المقطوعات التي تهبط إلى مستوى السباب باسم الهجاء، وخاصة مانقلته لنا كتب التراث والمصنفات الأدبية القديمة من حوارات ومساجلات قيل أنها جرت بينها وبين أبي نواس.

كتب ابن منظور يقول[٣٢]:

«.. واجتمع أبو نُواس مع عِنان يوماً وعندها بعض وجوه أهل بغداد، فأحب أن يخجلها، فقال لها:

ماتأمرين لصبٍ ... يكفيه منك قُطيرَة؟

فقالت: إيايَ تَعني بهذا؟ ... عليك فاجلدِ عُميرة

فقال: إنيّ اخافُ وربِّي ... على يدي منكِ غيرة

فقالت: عليك أمَّكَ نلها[٣٣] ... فإنَّها كندبيره[٣٤]

فأخجلته».

وشاع الخبر حتى بلغ الخليفة هرون الرشيد فضحك واستظرفها وطلبها من مولاها الناطفي، فاستام فيها مالاً جزيلاً[٣٥]. ولما عرضت على الرشيد، دخلت عليه تتبختر، فقال لها: أتحبين أن أشتريك؟ قالت: ولم لاأحبِ ذلك ياأحسن الناس خلقاً وخُلقاً؟.... فقال لها: والله لولا أن العيون قد ابتذلتك ابتذالاً مشتركاً كبيراً، لاشتريتك ولكنه لايصح للخليفة من هذه سبيله[٣٦].

---

(٣٢) ـ أخبار أبي نواس لابن منظور، مصدر سابق، السفر الأول، الصفحة: ٣٥ ومابعدها.

(٣٣) ـ نِلها: الكلمة مبدلة من قبلي، المقصود: مباشرة العمل الجنسي بصيغة فعل الأمر. (المؤلف).

(٣٤) ـ كندبيرة: فارسية الأصل: العجوز الخرفة.

(٣٥) ـ المصدر السابق، السفر الأول، الصفحة: ٣٦ .

(٣٦) ـ الإماء الشواعر، مصدر سابق الصفحة: ٣٦ .

ويظهر أن لأم جعفر الدور الأكبر في ابعادها عن الرشيد. فقد كتب ابن منظور يقول: قال الأصمعي: «بعثت إليّ أم جعفر: إن أمير المؤمنين قد لهج بهذه الجارية عِنان فإن صرفته عنها فلك حكمك. قال: فكنت أُريغ[٣٧] لأجدِ للقول فيها موضعاً فلا أجده، ولاأقدم عليه هيبة، إذ دخلت يوماً فرأيت في وجهه أثر الغضب فانخذلت، فقال: مالك ياأصمعي؟ قلتُ: رايت في وجه أمير المؤمنين أثر الغضب، فلعن الله من أغضبه، فقال: هذا الناطفي والله لولا أني لم أجُرْ في حكم قط متعمداً لجعلت على كل جبل منه قطعة. مالي في جاريته ارب غير الشعر، فذكرت رسالة أم جعفر فقلت له: والله مافيها غير الشعر، فيسر امير المؤمنين أن يجامع الفرزدق؟ فضحك حتى استلقى، واتصل قولي بأم جعفر فأجزلت لي الجائزة»[٣٨].

وقيل أيضاً أن أم جعفر دست إلى أبي نُواس في أن يحتال في أمرها فقال يهجوها:

إن عنانَ النطّاف جاريةً — أصبح حُرها (للنيل)[٣٩] ميدانا
مايشتريها إلاّ ابنُ زانيةٍ — وقلطبانٌ يكون من كانا[٤٠]

ولما سمع الرشيد بالأبيات قال: لعن الله أبا نُواس وقبحه، فلقد أفسد عليَّ لذتي بما قال فيها، ومنعني من شرائها[٤١].

ويبدو أن عِنان كانت تسعى من طرفها لدفع الرشيد إلى شرائها ويقال أنها أرسلت قصيدة إلى جعفر بن يحي البرمكي تمدحه فيها وكتبت تحت الأبيات تسأله أن يسأل أباه، أن يكلم الرشيد في أن يشتريها أو يشير عليه بذلك قالت فيها:

يا لائمي مهلاً ألا تُقصرُ — من ذا على حَرِّ الهوى يصبرُ
لا تَلْحني أني شربتُ الهوى — صرفاً، فممزوجُ الهوى يُسكرُ
أحاط بي الحبُّ فخلفي له — بحرٌ وقدامي له أبحرُ

---

(٣٧) ـ أُريغُ: أطلب، ألتمس.

(٣٨) ـ مختار الأغاني: لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري، الجزء الثامن، الصفحة: ٢٢٢

(٣٩) ـ إذا أبدلنا آخر حرف من كلمة (للنيل) بحرف الكاف، حصلنا على الكلمة الأصيلة في النص.

(٤٠) ـ القلطبان: الديوث أو القواد.

(٤١) ـ المستظرف في أخبار الجواري، مصدر سابق، الصفحة: ٤٦ .

تخفقُ رايات الهوى بالردى فوقي، وحولي للردى عسكرُ
سيّان عندي في الهوى لائمٌ أقلَّ فيه، والذي يُكثرُ
أنت المصفى من بني برمكٍ ياجعفرَ الخيراتِ، ياجعفرُ
لايبلغُ الواصفُ في وصفه مافيه من فضلٍ ولا يحصرُ
عوّدت طلاب الندى عادةً إن قصروا عنك فما تقصرُ

ويقول الخبر أن جعفر ركب من ساعته إلى أبيه فكلمه في أمرها، فكلم الرشيد في ذلك، وأشار عليه فلم يقبل، وامتنع عن شرائها لشهرتها وماقيل فيها من هجاء،وقال له: أشتريها بعد قول أبي نواس: «مايشتريها إلاَّ ابن زانية...»[٤٢].

ويُقال أن عِنان هجت أبا نُواس لما بلغها خبر الأبيات التي نُسبت إليه، وكانت سبباً في إبعادها عن الرشيد.

قالت عنان[٤٣]:

عجباً من حلقي يدعي اصل اللواط
فإذا صار إلى بيتٍ وخشفٍ عن تواط[٤٤]
فالذي يعقلُ يدري من يلي وجه البساطِ

ونعتقد أن سبب امتناع الرشيد عن شراء عنان، ليس في كونِ النطّاف سام في سعرها. بل إن السبب الحقيقي والمانع الفعلي، كان فيما اشتهر من سلوكها، وماقيل فيها، وماروي عنها. وأن الرشيد مات وفي نفسه شيء من عنان، وأن هذا الشيء ترك في نفسه، وفي خياله أبعد الأثر.

كتب أبو الفرج يقول[٤٥]:

«.. وقال ابن عمار عن بعض أصحابه، أظنه المازني، عن الأصمعي قال: مارأيت أثر النبيذ في وجه الرشيد قط، إلاَّ مرة واحدة فإني دخلت إليه أنا وأبو حفص الشطرنجي[٤٦] فرأيته

(٤٢) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ٤٩ ومابعدها.

(٤٣) ـ المستظرف في أخبار الجواري للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٤٧

(٤٤) ـ الخِشْفُ: ولد الظبي أول مايولد، كناية عن الغلام.

(٤٥) ـ الإماء الشواعر، مصدر سابق، الصفحة: ٤٨ ومابعدها.

(٤٦) ـ أبو حفص الشطرنجي: عمر بن عبد العزيز، كان لاعباً بالشطرنج مشغوفاً به فلقب به لغلبته عليه. انقطع لعلية بنت المهدي فكان شاعرها، وكانت تأمره أن يقول الشعر في ←

خاثراً[٤٧]. فقال: استبقا إلى بيت، بل إلى ابيات، فمن أصاب مافي نفسي، فله عشرة ألاف درهم!. فوقع في نفسي أنه يريد جارية الناطفي، قال فاشفقت ومنعتني هيبته.

وبدر الشطرنجي بجرأة العميان فقال:

من لقلب متيم بكِ صبٌ   ماله همةٌ سوى ذكراك
كلما دارت الزجاجة زادته   اشتياقاً وحرقة فبكاك

فقال: احسنت، لك عشرة ألاف درهم، فزالت الهيبة عني

فقلت:

لم ينلك الرجاء أن تحضريني   وتجافت أمنيتي عن سواك

فقال: أحسنت لك عشرون ألفاً أخرى، وأطرق ثم قال: أنا والله أشعر منكما، ثم قال:

قد تمنيتُ ان يغشيني الله   نعاساً لعلّ عيني تراكِ»

علماً أن السيوطي كتب نقلاً عن صاحب الأغاني يتحدث عن مفاتن عنان وسحرها وكمال جمالها، قال: «ولم يكن فيها شيءٌ يُعاب فطلبوا لها عيباً لئلا تصيبها العين، فأوقعوا بخنصر رجلها في ظفره شيئاً»[٤٨].

ويروى ان عِنان هجت أبا نُواس أكثر من مرة بعدما كان بينهما من المودة فأفحشت. منها أنها دست إلى سفهاء الكرخ والعيارين إذا مرَّ بهم أن يصيحوا به ويعطعطوا عليه[٤٩]:

أبو نُواس اليماني   وأمه جُلْبان

← المعاني التي تريدها فيقولها وتغني فيها. وقد تنتحل بعض ذلك وتترك بعضه. ومما يُنسب إليها من شعره ولها فيه غناء قوله:

تحبب فإن الحب داعية الحب   وكم من بعيد الدار مستوجب القُربِ
إذا لم يكن في الحب عتبٌ ولارضا   فأين حلاوات الرسائل والكتبِ
وأطيب أيام الهوى يومك الذي   تُروَّعُ بالتحريش فيه وبالعتبِ

توفي في خلافة المعتصم. عن الأغاني، المجلد الثاني والعشرين. الصفحة: ٤٤ ومابعدها.

(٤٧) - خاثراً: التخثر: غثيان النفس.

(٤٨) - المستظرف من أخبار الجواري للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٤٥ .

(٤٩) - أخبار أبي نواس لابن منظور، مصدر سابق، القسم الأول، الصفحة: ٣٤ .

والـنـغـلُ افـطـنُ شـيءٍ إلى حـروف المعـاني[٥٠]

ومن قولها فيه وقد تجشأ في وجهها[٥١]:

يانواسيُّ يانُفاية خلْقِ الله قد نلتَ بي سماءً وفخرا
تِهْ كما شئت قد ذكرتُك في الشعر وجَرِّر أذيال ثوبك كبرا
فإذا مابدهتني فاتق الله وعلِّق دوني على فيك سترا
وإذا ماأردت أن تحمد الله على مابلى وأولاك شكرا
فليكن ذاك بالضمير والإيماء لاتذكرن ربك جهرا
لاتُسبح فما عليك جناحٌ جعل الله بين لحييك دُبرا
أنت تفسو إذا نطقتَ ومن سَبَّحَ بالفسوِ نال إثماً ووزرا

وينقل لنا صاحب كتاب الورقة ابياتاً للشاعر يحي بن المبارك اليزيدي[٥٢] قالها في هجاء عِنان جارية النطّاف وأبي تغلب الأعرج.

قال يحي اليزيدي[٥٣]:

أبـو تـغـلـب لـلـنـاطـفـي زعورُ على خبثه والناطفيُّ غيوزُ[٥٤]
وبالبـغلة الشهـباء رقة حـافرٍ وصاحبنا ماضي الجنان جسوزُ[٥٥]
ولا شك في أن الأعيرج آرها ومـا الـنـاس إلاّ آيـرٌ ومـؤورُ

واختلف الرواة في سنة ومكان وفاة عنان. فأبو الفرج يخبرنا انها توفيت سنة مئتين وستة وعشرين للهجرة بينما ابن شاكر الكتبي في كتابه الوفيات يعتبر عام مئتين وثلاثين للهجرة عام وفاتها. كما أن بعض الرواة يقولون انها خرجت إلى خراسان وماتت هناك، وآخرون يقولون انها خرجت إلى مصر بعد ان أعتقها الناطفي وماتت بها، وان ابياتها في رثاء مولاها الناطفي قالتها في مصر وهي:

---

(٥٠) ـ كانت تقصد بقولها: النغل، أن أبا نواس ابن زنا.

(٥١) ـ المستظرف من أخبار الجواري، للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٤٢ .

(٥٢) ـ يحيى بن المبارك اليزيدي: يُكنى أبا محمد مولى لبني عدي بن عبد مناف، ونسب إلى يزيد بن منصور الحميري لأنه كان يؤدب ولده. شاعر بصري كان مؤدب المأمون

(٥٣) ـ كتاب الورقة: للجراح، مصدر سابق، الصفحة: ٢٩ .

(٥٤) ـ زعورٌ: من زئِرَ وزائِرَ ومُزئِرٌ، الفحل ردَّد صوته في جوفه.

(٥٥) ـ رقة حافر: كناية عن الفساد، والمقصود هنا عنان جارية النطّاف.

ياموتُ افنيت القرون ولم تزل حتى سقيت بكأسك النطّافا
يـانـاطـفـيُ وأنـت عـنـا نـازحٌ ماكنت أول من دَعَوْهُ فوافى[٥٦]

عريب المأمونية

عريب بفتح العين وكسر الراء، جارية عبد الله بن اسماعيل المراكبي صاحب مراكب الرشيد. وهو الذي أدبها وعلمها الغناء عندما خرج بها إلى البصرة[٥٧]. وكانت عريب برمكية الدم، فقد قيل انها ابنة جعفر بن يحي البرمكي من جارية تدعى فاطمة تزوجها سراً بعدما أنكر والده يحي بن خالد البرمكي زواجه وقال له: أتتزوج من لا تُعرف لها أمّ ولا أب؟!، إشتر مكانها مئة جارية وأخرجها. فأسكنها جعفر داراً في ناحية الأنبار سراً عن أبيه، وكان يتردد إليها فولدت عريب في سنة احدى وثمانين ومئة للهجرة. وماتت أم عريب في حياة جعفر فدفعها إلى امرأة نصرانية وجعلها داية لها: فلما حدثت نكبة البرامكة، باعتها إلى تاجر قيان مشهور يدعى سِنْبِسٍ وهذا باعها إلى اسماعيل المراكبي فكانت جاريته[٥٨].

كانت عريب مغنية حاذقة، بل شيخة الغناء العباسي مثلما كانت جميلة شيخة الغناء الحجازي، حيث عُرف عنها جودة الضرب على العود واتقان الصنعة والمعرفة بفن النغم والأوتار، ولغنائها ديوان مفرد[٥٩]. وحدث ابن المعتز أنه جمع دفاترها وصحفها التي جمعت فيها غناءها فوجدها أكثر من ألف صوت[٦٠]!

وكانت شاعرة رقيقة صالحة الشعر، يأتيها الخاطر فتنظمة شعراً وتصوغه لحناً وتوقعه غناءً. والأبيات التالية هي من شعرها في حبيبها ابن حامد ولحنها وغنائها غنت بها لما أُخرجت من سجن المأمون حيث كان أمر بحبسها في كنيف مظلم شهراً لاترى الضوء بسبب علاقتها مع ابن حامد[٦١]:

لو كان يقدرُ أن يَبثَّك ما به لرأيته احسن عاتبٍ يتعتّبُ

---

(٥٦) ـ المصدر السابق للجراح، الصفحة: ٤٠ .

(٥٧) ـ كتاب الأغاني: مصدر سابق المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٦١ .

(٥٨) ـ المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٥٩ ومابعدها.

(٥٩) ـ المستظرف من أخبار الجواري للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٣٧ .

(٦٠) ـ كتاب الأغاني للأصفهاني، مصدر سابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٥٥ .

(٦١) ـ المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٦٩ .

حجبوه عن بصري فمُثّلَ شخصهُ   في القلب فهو مُحَجبٌ لايُحجَبُ

وعرف عن عريب أنها محدثة بارعة حسنة الخط لها إلمام نادرٌ بالثقافات العربية كالأدب والشعر والتاريخ وعلوم اللسان والبلاغة والشريعة، وقد نهلت من جميع هذه العلوم بفضل علماء البصرة الذين تعلمت عليهم وهي عند مولاها المراكبي. لهج بمواهبها وامكانياتها أحد اهم أساطين الغناء في عصره اسحاق الموصلي عندما قال عنها: «مارايت امرأة اضرب من عريب، ولا أحسن صنعة ولا أحسن وجهاً، ولاأخفَّ روحاً، ولا أحسن خطاباً، ولاأسرع جواباً، ولا ألعب بالشطرنج والنرد، ولا أجمع لخصلة حسنة، لم أر مثلها في امرأة غيرها قط»[٦٢].

أما قاضي قضاة المسلمين يحي بن أكثم[٦٣] فقد أقرَّ لها بذلك عندما سأله حماد ابن اسحاق الموصلي عنها اذ قال: صدق أبو محمد هي كذلك، قلت أفسمعتها؟ قال: نعم هناك، يعني في دار المأمون. ولما علم اسحاق ما دار بين ابنه حماد وقاضي القضاة يحي بن اكثم ضحك ثم قال لإبنه: ما استحييت من قاضي القضاة أن تسأله عن مثل هذا[٦٤].

اشتهرت عريب بالحسن والجمال والدلال واللباقة والظرف والميول الخليعة الماجنة والأنوثة الجائعة أبداً للجنس. فكانت حياتها كامرأة في علاقاتها الوجدانية مع الخلفاء والأمراء والقواد مصطخبة عارمة تصارع بجمالها ومواهبها وأنوثتها المتعطشة أبطال الرجال وأعلامهم. وكان موقفها بينهم مترعاً بالأحداث والمفاجآت. فهي من ناحيتها تذكي فيهم نار الجنس والشبق الذكوري بما تملك من أسلحة الأنوثة الجائعة والميول الخليعة الماجنة، وهم من ناحيتهم يتصارعون عليها بما فيهم من وجد وتشوق ورغبة بالفوز بها والظفر بمضاجعتها. وكانت تصرح وتقول أن لها شرطان فاحشان للمضاجعة هما: «عضو صلب ونكهة طيبة، فإن انضاف إلى ذلك حسنٌ يوصف وجمال يحمد فقد زاد قدره عندي، وإلاّ فهذان مالا بُدَّ لي منهما»[٦٥].

---

(٦٢) ـ المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٥٤ .

(٦٣) ـ **يحيى بن أكثم**: هو يحيى بن أكثم الأسيدي، ولد بمرو لم تعرف سنة ولادته وتوفي في الربذة عام ٢٤٢هـ/٨٥٧ م. قاض رفيع القدر عالي الشهرة وفقيه من الفقهاء الكبار ذو اجتهاد. اتصل بالمأمون أيام إقامته بمرو فولاه قضاء البصرة وعمره ٢٠ سنة، ثم قاضي قضاة بغداد ومدير المملكة. عزله المتوكل. له كتب في الفقه.

(٦٤) ـ كتاب الأغاني للأصبهاني: مصدر سابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٥٤ .

(٦٥) ـ المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٧٤ .

لقد عرفت عريب في حياتها المديدة - يُقال أنها عاشت أكثر من تسعة عقود - الكثير من الرجال الأعلام في عصرهم. كان أولهم عبد الله بن اسماعيل المراكبي مولاها الأول، وحاتم بن عدي أحد قواد خراسان، والقائد العسكري الخراساني محمد بن حامد المعروف بالخشن. ومن الخلفاء وأولادهم محمد الأمين، وعبد الله المأمون، ومحمد المعتصم، وأبو عيسى بن الرشيد أخو المأمون، والواثق بالله بن المعتصم، والمتوكل بن المعتصم، والمستعين بالله بن المعتصم، والمعتز بن المتوكل، والمعتمد بن المتوكل. وعرفت صالح المنذري الخادم الذي قيل أن عريب تزوجت منه سراً، والشاعر الكبير ابراهيم بن المدبر، وهؤلاء لهم في حياة عريب اثر معروف كما كانت لها في حياتهم حوادثاً وأخباراً كثيرةً. واتصل بها من غير هؤلاء الكثير من المغنين والولاة والحكام، لكنه كان اتصالاً وقتياً عابراً فرضته الظروف والمناسبات.

وعن علاقتها بصالح المنذري كتب أبو الفرج يقول[٦٦]:

«..وحُدِّثت عن بعض جواري المتوكل، أنها دخلت يوماً على عريب، فقالت لها: تعالي ويحك إليّ، فجاءت. قال: فقالت: قبلي هذا الموضع مني فإنك تجدين ريح الجنة فأومأتْ إلى سالفتيها[٦٧]، ففعلت. ثم قالت لها: ماالسبب في هذا؟ قالت: قبلني صالح المنذري في ذلك الموضع».

ولما وجه المتوكل صالحاً هذا الذي كانت تعشقه في حاجة إلى مكان بعيد، قالت عريب شعراً في ذلك، وصاغت لحنه وغنته.

والأبيات هي[٦٨]:

أما الحبيبُ فقد مضى	بالرغم مني لا الرِّضا
أخطأتُ في تركي لمن	لم ألقَ منه عوضا
لبعده عن ناظري	صرتُ بعيشٍ عرضا

أول من اشتهر من عشاق هذه الجارية كان القائد الخراساني المعروف وصديق مولاها حاتم بن عدي الذي كان يتردد على دار المراكبي كغيره من الزائرين والمعجبين الذين فُتحت لهم أبواب الدار للسماع. فمدَّ عينه إلى عريب الذي استهوته فمال، وأغرته فأجاب، ووقع كل

(٦٦) - المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٧٢ .

(٦٧) - السالفة: ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى نقرة الترقوة.

(٦٨) - كتاب الأغاني للأصبهاني، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٧٣ .

في شباك الآخر وعملا معاً على التخلص من المراكبي الذي كان مكروهاً من عريب، مستخفاً به من ابن عدي.

ولما عزمت عريب على الهرب إلى عشيقها لفت ثيابها وجعلتها في فراشها بالليل وتدلّت من فوق الحائط بحبل غليظ أعدته لذلك، فتلقاها ابن عديٍّ وسار بها إلى مكان مجهول أعده لها. أقامت مع عشيقها زماناً حتى ملته، ففرت دون أن يشعر بعد أن ساءت حاله وركبه الدين(٦٩).

وفي ذلك قال عيسى ابن مولاها المراكبي قصيدة يهجو أباه ويعيره بها، نذكر بعضاً من أبياتها(٧٠):

قـاتـلَ الـلـه عـريـبـا فـعـلـتْ فِـعـلاً عـجـيـبـا
ركِـبَـتْ والـلـيـلُ داجٍ مـركـبـاً صـعـبـاً مـهـوبـا
صـبـرت حـتـى إذا مـا أقـصـدَ الـنـومُ الـرقـيـبـا(٧١)
مَـثَّـلـت بـين حـشـايـا هـا لـكـيـلا تـسـتـريـبـا(٧٢)
خـلـفـاً مـنـهـا إذا نـودي لم يُـلـفَ مـجـيـبـا
فـتـدلَّـت لمـحـبٍ فـتـلـقـاهـا حـبـيـبـا
أيـهـا الـظـبـيُ الـذي تَـسْـحِـرُ عـيناهُ الـقـلـوبـا
والـذي يـأكـل بـعـضـاً بـعـضَـهُ حُـسـنـاً وطـيـبـا
كـنـت نـهـبـاً لـذئـابٍ فـلـقـد أطـعـمـتَ ذيـبـا
وكـذا الـشـاةُ إذا لم يَـكُ راعـيـهـا لـبـيـبـا
فلقد أصبح عبدُ الله كـشـخـانَ حـريـبـا(٧٣)

بقي مولاها يبحث عنها حتى عثر عليها في أحد بساتين بغداد مع قوم يغنون وكانت عريب فيهم. فأمسك بها، وضربها، وساقها إلى داره وهي تصيح: ياهذا لم تضربني؟، لن اصبر عليك، إن كنت مملوكة فبعني. فاستعطفها وقبل راسها ورجلها ووهب لها عشرة

---

(٦٩) ـ المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٦١ .

(٧٠) ـ المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٦٢ .

(٧١) ـ أقصد: أصاب. بمعنى أصاب الرقيب سهم النوم.

(٧٢) ـ تستريب: تستدعي الريبة. بمعنى أنها مثلت في مخدع نومها شبحاً يوهم أنه هي حتى لاتبعث الريبة.

(٧٣) ـ الكشخان: الديوث. الحريب: المسلوب المال.

ألاف درهم حتى رضيت وأقامت معه على مضض[٧٤].

ولما بلغ خبرها محمد الأمين الذي كان قد طلبها من مولاها المراكبي في حياة أبيه ولم يجبه إلى ماسأل. أمر بعد توليه الخلافة بحبس المراكبي وطالبه بخمسمئة ألف درهم مما اقتطعه من نفقات الكراع أيام أبيه الرشيد، أخذ عريب من منزله مع خدم كانوا له. واستشفع المراكبي بالفضل بن الربيع فشفع له عند الأمين فأطلق سراحه وانصرف، وامتلك الأمين عريب دون أن يدفع من ثمنها شيئاً. وبعد أن قتل الأمين هربت عريب وعادت إلى دار مولاها الأول[٧٥].

وأحبت عريب محمد بن حامد القائد الخراساني المعروف بالخشن، حباً عميقاً وقالت فيه أشعاراً كثيرة وغنت بها. وكان ابن حامد كما ذكرنا سابقاً أشقر أزرق العينين وفيه تقول[٧٦]:

بأبي كل أزرقٍ اصهب اللون اشقر
جَنَّ قلبي به وليس جنوني بمنكر

ولما علم مولاها بغرامها الجديد منعها من الخروج، وإذا خرجت تزور بعض أهله ومعارفه أرسل معها جارية لتراقبها وتمنعها من لقاء الحبيب، ويقال أن هذه الجارية التي تُدعى مظلومة كانت تفعل عكس رغبة مولاها، فتهيء لعريب وابن حامد اسباب اللقاء[٧٧]. لكن عريب لم تطق العيش بجانب مولاها وهي مُدلهة بابن حامد، ففرت اليه، فحماها بالقوة العسكرية وحجبها في منزله. وحاول مولاها أن يسترجعها فلم يقبل ابن حامد، فشكاه إلى المامون الذي أخذها لنفسه من الاثنين معاً بعد أن دفع لمولاها خمسين ألف درهم، وقيل اكثر من ذلك، فذهبت به كل مذهب ميلاً إليها ومحبة لها[٧٨].

هكذا خلصت عريب للمأمون فكانت بعض أمانيه، بل أحلى آماله، وذهب بحبها كل مذهب بعد أن ملكت عليه أمره وتحكمت في أحاسيسه، فقدم إليها ماتريد وأطاعها فيما تشاء حتى سميت «المأمونية» كما سبق وذكرنا. ولم يكن يملك صبراً على فراقها، لهذا

---

(٧٤) ـ كتاب الأغاني للأصبهاني، مصدر سابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٦٣ .

(٧٥) ـ المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٦٣ .

(٧٦) ـ المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٦٤ .

(٧٧) ـ المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٦٥ .

(٧٨) ـ كتاب الأغاني للأصبهاني، مصدر سابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٦٧ .

كان يصطحبها معه في كل تنقلاته وفي حروبه ببلاد الروم. ومع كل ذلك بقيت عريب على علاقة مع حبيبها ابن حامد، تتحايل وهي عند المأمون لتقابله وتجتمع به بعض الوقت. وكان المأمون يتجاهل ذلك حتى حبلت من ابن حامد وولدت بنتاً، وبلغ ذلك المأمون فزوَّجَهُ إياها، وقيل غير ذلك(٧٩).

كتب ابو الفرج يقول(٨٠):

«حدثني هاشم بن محمد الخزاعي قال: حدثني ميمون بن هارون قال: كتبت عريب إلى محمد بن حامد ـ الذي كانت تحبه ـ تستزيره فكتب لها: إني أخاف على نفسي من المأمون، فقالت:

إذا كنت تحذرُ ماتحذرُ ... وتزعم أنك لاتجسرُ
فمالي اقيمُ على صبوتي ... ويومُ لقائك لايُقدَرُ

فصار إليها من وقته.

وذكر ميمون في هذا الخبر أن محمد ابن حامد كتب إليها يعاتبها في شيء كرِهَهُ، فكتبت إليه تعتذر، فلم يقبل، فكتبت إليه بهذين البيتين:

تبينتَ عذري وماتعذِرُ ... وأبليت جسمي وماتشعرُ
أَلِفتَ السرور وخليتني ... ودمعي من العين مايفترُ

وقالت عريب متوجعة لَّما شكَّ فيها ابن حامد(٨١):

ويلي عليكَ ومنكا ... أوقعتَ في الحقِّ شكاً
زعمتَ أنّي خئونٌ ... جَوراً عليَّ وإفكا
إن كان ماقلتَ حقاً ... أو كنت أزمعتُ تركا
فأبدل الله مابي ... من ذلّة الحبِّ نُسكا

لقد أجمعت الروايات على أن عريب كانت تتحايل وتخرج من قصر المأمون، رغم شدة الرقابة عليها من قبل حراس القصر لِتقابل عشيقها ابن حامد. وأنها خرجت مرة في الليل

---

(٧٩) ـ المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٦٨ ومابعدها .

(٨٠) ـ الإماء الشواعر: للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ١٣٨ . وكتاب الأغاني مصدر سابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٨٦ .

(٨١) ـ كتاب الأغاني، مصدر سابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٦٩ .

متخفية وأتت ابن حامد في معسكره، فراح يعاتبها ويقول لها فعلتِ كذا، وفعلت كذا، فقالت له: ياعاجز أهذا وقت عتاب خذ بنا فيما نحن فيه وفيما جئنا عليه، واجعل سراويلي مخنقتي والصق خلخالي بقرطيّ وإذا كان غد فاكتب اليّ بعتابك في طومار[٨٢] حتى أكتب إليك بعذري في ثلاثة، ودع هذا الفضول، فقد قال الشاعر:

دعي عدّ الذنوب إذا التقينا   تعالَيْ لا أعدُّ ولا تعدّي

وتمام هذا قوله:

فأقسم لو هممتِ بمدّ شعري   الى نار الجحيم لقلت مُدّي[٨٣].

وحدث الحمدوني قال: كنا في بلاد الروم، وذهبت في ليلة ظلماء ذات رعود وبروق لتأدية رسالة من المأمون إلى أخيه المعتصم في معسكره. وبينا أنا سائر إذ سمعت وقع حوافر دابة ورائي فرهبت، وتبينت الراكب على ضوء بارقة برقت في هذا الوقت فإذا هي عريب. قلت: عريب؟ قالت: نعم حمدون؟ قلت : من أين أقبلت؟ قالت: من عند محمد بن حامد، قلت: وما صنعت عنده؟ قالت: ياغبي عريب تجيء في هذا الوقت من عند ابن حامد خارجة من مضرب الخليفة متخفية راجعة إليه وتقول لها أي شيء عملت عنده؟ صليت معه التراويح؟ أو قرأت عليه أجزاء من القرآن، أو دارسته شيئاً من الفقه، ياأحمق تعاتبنا وتحادثنا واصطلحنا، ولعبنا، وشربنا وغنينا، وتنا... وانصرفنا أفهمت؟. قال الحمدوني فأخجلتني وغاظتني وافترقنا...

ولما عدت إلى المأمون هممت أن أحدثه حديثها، ثم هِبتُه فقلت: أُقَدِّمُ قبل ذلك تعريضاً بشيءٍ من الشعر، فأنشدته:

ألا حيِّ أطلالاً لواسعة الحبل   ألوفٍ تسوّي صالح القوم بالرذلِ[٨٤]
فلو أن من أمسى بجانب تلعة   الـــى جبليّ طيّ فساقطة الحبلِ
جلوس إلى أن يقصر الظلّ عندها   لراحوا وكُلّ القوم فيها على وصلِ

فقال المأمون: اخفض صوتك لاتسمعك عريب فتغضب، وتظن أنّا في حديثها، فأمسكتُ

---

(٨٢) ـ الطومار: جمع طوامير، الصحيفة. يقال كتب في الطومار أو الطوامير .

(٨٣) ـ كتاب الأغاني: للأصفهاني، مصدر سابق، المجلد الحادي والعشرون. الصفحة: ٧٢ ومابعدها.

(٨٤) ـ واسعة الحبل: كناية على أنها لاترد يد لامس. والأبيات معروفة أنها في وصف إمرأة متهتكة غاية التهتك.

عما أردت أن أخبره[٨٥].

هذا الشعر لاشك فيه تعريض بعريب. وحرصُ المأمون على أن لاتسمعه إذا صدقت الرواية، دليل على أن المأمون كان يعلم بأمرها...؟ أو على الأقل كان يقدر طبيعتها من أنها لم تنس جبيها بن حامد. ولكن مهما تشابهت الأخبار أو تعارضت عن حياتها المترعة بالقصص والأحداث مع المأمون فإن الشيء المسلم به، هو أنها ظلت في قصره طوال حياته، وبقي يحبها ويشتاق إليها ويؤثرها حتى على نفسه.

كتب ابو الفرج يقول[٨٦]:

«جرى بين عريب وبين المأمون كلام. فكلمها المأمون بشيء غضبت منه، فهجرته أياماً.

قال أحمد بن أبي داود: فدخلتُ على المأمون، فقال لي: يا أحمد اقضِ بيننا،

فقالت عريب: لاحاجة لي في قضائه ودخوله فيما بيننا وأنشأت تقول:

وتخلِطُ الهجرَ بالوصال ولا   يدخلُ في الصُلحِ بيننا أحدُ».

ويقال أن المأمون لما خرج إلى فم الصلح[٨٧] سنة ٢١٠ للهجرة لزفافه على بوران بنت الحسن بن سهل أرسلت له عريب هذه الرقعة:

أنعم تخطتك صروف الردى   بقرب بوران مدى الدهر
دُرَّة خدرٍ لم يزل نجمها   بنجم مأمون العُلى يجري
حتى استقر الملك في حجرها   بورك في ذلك من حِجْرِ[٨٨]

ولما مات المأمون بِيعَتْ عريب فيما كان يملك من جواهر وقيان. والعجيب في الأمر أن الخليفة المعتصم إشتراها وحدها دون غيرها من مخلفات المأمون، فكأنها وحدها كانت هاجسه وشغله الشاغل لذلك أسرف في ثمنها فدفع مئة ألف درهم ثم أعتقها. غير أن أخبار حياتها الماجنة لم تنته بانتهاء حياة المأمون بل استمرت وكان لها أخباراً مع الخلفاء

---

(٨٥) ـ المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٨١ .

(٨٦) ـ كتاب الأغاني للأصبهاني، مصدر سابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٨٠ .

(٨٧) ـ الصلح: نهر كبير يأخذ من دجلة بأعلى واسط، انظر معجم البلدان.

(٨٨) ـ المُستظرف من أخبار الجواري للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٣٨ .

ومع من تعرفت عليهم من العشاق، وبشكل خاص مع الشاعر ابراهيم بن المدبر[٨٩] الذي كانت تؤثره على كل من عرفت بعد ابن حامد، الى درجة أنها كانت تهيء له الراحة والسرور وان يكن على حسابها. وكان ابراهيم هذا مراوغاً لعوباً فيه أنانية العابثين وانحلال المجان الفُسّاق.

وبقيت عريب حتى بعد أن تقدمت بها السن محافظة على جمالها الفتان وأنوثتها الكاملة الجائعة التي قادتها إلى الإنحلال والتبذل، وعلى دهاء المرأة ذات الذكاء النابه المتيقظ والخبرة بطباع الرجال القديرة على قودهم وإذلالهم. كما أنها لم تفقد شيئاً من مكانتها الفنية ونشاطها الإجتماعي، بل بقيت في مجتمعها وبين أوساطها متماسكة الشخصية طوافةً بارعة تهاجم مع جواريها مجالس المترفين من الأمراء والشعراء أينما كانوا، في الحراقات على دجلة والفرات وفي الأديرة والمنازل ومجالس البساتين تشاركهم سرورهم وشرابهم وغناءهم، حتى توفيت بسرَّ من رأى سنة ٢٧٧ للهجرة / ٨٩٠ ميلادية، علماً أن ميلادها كان سنة ١٨١ للهجرة / ٧٩٧ ميلادية.

ويقال أن عريب كثيراً ماكانت تفتخر وتقول: «ضاجعني ثمانية خلفاء مااشتهيت منهم أحداً إلاّ المعتز[٩٠] فإنه كان يشبه أبا عيسى بن الرشيد»[٩١]. وكانت عريب تتعشق أبا عيسى ولاتضرب المثل كما يقول ابن المعتز «إلاّ بحسن وجهه وحسن غنائه، وكانت تزعم أنها ماعشقت أحداً من بني هاشم وأَصْفَتْهُ المحبة من الخلفاء وأولادهم سواه»[٩٢]. ولما سُئلت كيف شهوتها الساعة بعد أن تقدمت بها السنون قالت: «أما الشهوة فبحالها، ولكن الآلة قد كَلَّتْ»[٩٣].

---

(٨٩) - **ابراهيم بن المدبر**: شاعر كبير وكاتب معروف كان يكتب للخليفة المتوكل في كل أمور الملك ويتصرف في العظائم من شؤونه. تولى عدداً من الولايات منها ولاية البصرة. حبسه المتوكل بعد أن حامت حوله الشبهات، فكتب من سجنه شعراً عاطفياً رقيقاً يستعطف المتوكل ولكنه لم يعف عنه حتى تشفعت له عَريب.

(٩٠) - هو محمد بن جعفر بن المعتصم، خليفة عباسي (هو أخو المنتصر بالله) كانت أيامه أيام فتن وشغب. توفي سنة ٢٥٥ للهجرة.

(٩١) - كتاب الأغاني للأصبهاني مصدر سابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٧٣ .

(٩٢) - المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٧١ .

(٩٣) - المصدر السابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٧٣ .

وفي ختام سيرتها نُثْبِتُ بعضاً من مقطوعاتها الشعرية مع مناسباتها التي قالتها فيها، وأكثرها في مدح الخلفاء.

كتب أبو الفرج يقول(٩٤):

«دخلت عريب إلى المتوكل وقد أفاق من علةٍ كانت أصابته وعاد إلى عادته واصطبح فَغَنّتهُ وأنشأت تقول:

شكراً لأنعم من عافاك من سقمِ ... دُمت المعافى من الآلام والسقمِ
عادت ببرديك للأيام بهجتها ... واهتز نبتُ رياض الجود والكرمِ
ماقام بالجود بعد المصطفى ملكٌ ... أعفُّ منك ولا أرعى على الذممِ
فعمرُ الله فينا جعفراً ونفى ... بنور سنته عنا دُجى الظلمِ

فطرب، وشرب عليه رطلاً، وأجلسها إلى جانبه، ومازالت تغنيه به ويشرب حتى سكر».

ومما قالته لمَّا عُوفي من عِلَّته(٩٥):

مرضتَ فأمرضتَ البرية كلَّها ... وأظلمت الأبصارُ من شدّة الذُعرِ
فلما استبان الناس منك إفاقةً ... أقاموا وكانوا كالنيام على الجمرِ
سلامة دنيانا سلامةُ جعفرٍ ... فدامَ معافىً سالماً آخرَ الدّهرِ
أقامَ يَعمُّ الناس بالعدل والتُقى ... قريباً من التقوى بعيداً من الوُزرِ

وكتب صاحب الأغاني يقول(٩٦):

«حدثني أحمد بن جعفر جخظه، عن علي بن يحي المنجم، قال: دخلتُ يوماً على عريب مسلماً عليها، فلما اطمأننتُ جالساً هطلت السماء بمطر عظيم. فقالت: أقم عندي اليوم حتى أُغنيك أنا وجواريَّ وابعَثْ إلى من أحببت من إخوانك، فأمرتُ بدوابي فرُدَّت، وجلسنا نتحدث، فسألتني عن خبرنا بالأمس في مجلس الخليفة ومن كان يغنينا وأيّ شيء استحسنا من الغناء، فأخبرتها أن صوت الخليفة كان لحناً صنعه بُنان(٩٧)من الماخوري.

(٩٤) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ١٣٩ .

(٩٥) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ١٤٠ .

(٩٦) ـ كتاب الأغاني للأصبهاني، مصدر سابق، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٧٨ ومابعدها.

(٩٧) ـ **بُنان**: هو بُنان بن عمرو بضم الباء، من أحذق المغنين اختص بالمتوكل ونادم المعتز وغيره من الخلفاء.

فقالت: وماهو؟ فأخبرتها أنه:

تُجافي ثم تنطقِبُ　　　جفونٌ حشوُها الأرق

فوجّهَتْ رسولاً إلى بُنان، فحضر من وقته، وقد بلّته السماء فأمرت بخلعٍ فاخرة، فخلعت عليه وقُدم له طعام فاخر، فأكل وجلس يشرب معنا، وسألته عن الصوت، فغناها إيّاه فأخذت دواةً ورقعة وكتبت فيها:

أجاب الوابلُ الغدقُ　　　وصاح النرجس الغرقُ
وقد غنى بُنان لنا:　　　جُفونٌ حشوُها الأرقُ
فهاتِ الكأس مترعةً　　　كأنّ حُبابَها حدقُ

قال علي بن يحي: فما شربنا بقية يومنا إلاّ على هذه الأبيات»

ومن شعرها كما ذكر اسحاق الموصلي(٩٨):

لاغَرَّني بعدكَ أنسانُ　　　فقد بَدَتْ لي منكَ ألوانُ
وإن تغيرّتَ فما حيلتي　　　مالي على قلبكَ سلطانُ

ويقال أن المتوكل طلب من عريب مرة أن تقول شعراً على لسانه بمناسبة مرض زوجته قبيحة(٩٩)، وتذكر فيه أنه قلق عليها.

فقالت عريب(١٠٠):

شَبَّت قبيحةُ في قلبي لها حُرَقا　　　وبدَّلت مقلتي من نومها أرقا

---

(٩٨) ـ المُستظرف من أخبار الجواري للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٣٧ .

(٩٩) ـ قبيحةُ: هي قبيحة الرومية جارية المتوكل وأم الخليفة المعتز بالله. كانت مكينة عند المتوكل، وفيها قال هذه الأبيات:

إنسانةٌ كالشمسِ مجدولةٌ　　　أحسبُها ليست من الأُنسِ
مليحةُ الشكلِ غلاميةٌ　　　أحسنُ من بدرٍ ومن شمسِ

ويقال أن المعتز سأل أمه قبيحة أن تعطيه مالاً وهي ذات ثروة طائلة ليدفع إلى الجنود الأتراك بسبب خلو بيت المال، فأبت أن تعطيه شيئاً. وبعد أن قتل الجند ولدها أخذت أموالها ونعمتها وخرجت إلى مكة، فأقامت بها مدة، ثم عادت إلى سامراء حيث توفيت فيها سنة ٢٦٤ للهجرة. عن مروج الذهب للمسعودي، المجلد الرابع، هامش الصفحة: ١٥٤ ومابعدها.

(١٠٠) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ١٤١ ومابعدها.

ماذاك إلاَّ لشكواها فقد عطفت قلبي على كل شاك بعدها شفقا
كأنَّها زهرةٌ بيضاءُ قد ذبلت أو نرجسٌ مسكٌ من طيبها عَبقا
إني لأرحم من حُبي لها ــ سَلمتْ من كل حادثةٍ ــ ياقومُ من عشقا

وغنت فيه لحناً فاستحسنه المتوكل وأمرها ان تدخل إلى قبيحة فتنشدها الشعر وتغنيها به. ففعلت. فقالت لها قبيحة: فأجيبيه عني، فقالت:

يا سيدي أنت حقاً سِمتني الأرقا وأنت علَّمت قلبي الوجد والحرقا
لـولاك لم أتـألم عِـلـةً أبـداً لكن على كبدي أسرفتَ فاحترقا
إذا شكوتُ إليه الوجد كذبني وإن شكا قال قلبي خيفةً صدقا

وخرجت إليه وأنشدته الشعر وغنت فيه وفي الشعر الأول لحناً واحداً».

ودخلت عريب على المعتمد يوماً وهو مخمور يتململ، فأخذت دواةً وقرطاساً، وقالت هذا الشعر، وغنت فيه لحناً. فجلس المعتمد وقال: أحسنت وحياتك، ودعا بقدح فشربه، ودعا بطعام، فأكل وشرب على الصوت بقية يومه. والشعر[١٠١]:

قـلـبـي هـام بـأحـمـدِ لا بـالـظـبـاء الخُرَّدِ
بعديك كلُّ أحمدِ بـعـدَ الـنـبـي أحْـمـدِ
الـهـاشـمـي الأبـطـحـي الـقـرشـيِّ المُهـتـدي

فأجازها يومئذ بجوائز سنية حسنة من مال وجوهر وطيب وثياب».

ومن شعرها فيه أيضاً ما قالته معاتبةً[١٠٢]:

بارك الله للإمام أبي العباس غيثِ الأنام في المعشوقِ[١٠٣]
ياسيد البدر المنير كمالاً وابنَ عم الهادي النبي الصدوقِ
فيم ياسيدي ومولاي، أشمتَّ عدويَّ وسؤتني في صديق؟

(١٠١) ـ المصدر السابق، الصفحة: ١٤٢ .

(١٠٢) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ١٤٧ ومابعدها.

(١٠٣) ـ المعشوق: قصر بناه المعتمد، لاتزال آثاره شاخصة إلى اليوم، ذكره البحتري في شعره، ووصفه ياقوت واليعقوبي وغيرهما.

ومن أشعارها في المستعين هذه الأبيات[١٠٤]:

بالمستعين إمام أمة أحمدٍ عَمَّ الإلهُ سوابغَ النعماءِ
الله منّ على الأنام بملكه لولاه كانوا في دُجى عشواءِ
يا خيرَ من قصدتْ له آمالُنا لسدادِ ثغرٍ أو لبذلِ عَطاءِ
أعطاك في العباسِ رب محمدٍ مايأملُ الخلفاءُ في الأمراءِ
ووقاكَ فيه ـ والرعيةَ كلَّها ـ ماتحذَرُ الآباءُ في الأبناءِ
وأراكه من فوقِ منبر أحمدٍ يتلو عليه مواعظَ الخلفاءِ

ومن شعرها فيه[١٠٥]:

بارتياح الخليفة المستعين جمع الله كل دنيا ودينِ
وبعدلِ الخليفة المستعين استجارت من البكاء جفوني

ولها فيه أيضاً[١٠٦]:

بالمستعين أنارت الدنيا وصفا لأهل الطاعة المحيا
مليكٌ إذا عُدَّت محاسنه لم يستطع أحدٌ لها إحصا
أبقاهُ في عزٍ وعافيةٍ رَبُّ العلا ماشاءَ أن يبقى

ومن شعرها في المعتز وأمه قبيحة قولها[١٠٧]:

إسلمي يا دارُ ذات العزِّ للمعتزِّ دارا
ثم كوني لولي الدهرِ خُلداً وقرارا
أبداً معمورةً ماطردَ الليلُ النهارا
ويكونُ الله للدينِ وللإسلامِ جارا
ووليّاً ونصيراً حيث ما حَلَّ وسارا
يا أمير المؤمنين إختاركَ الله اختيارا

---

(١٠٤) ـ المصدر السابق، الصفحة: ١٤٦ .

(١٠٥) ـ المصدر السابق، الصفحة: ١٤٦ .

(١٠٦) ـ المصدر السابق، الصفحة: ١٤٦ .

(١٠٧) ـ المصدر السابق، الصفحة: ١٤٧ .

الشاعرة اليمامية فضل العبدية

جارية مولدة سمراء. ولدت باليمامة ونشأت بالبصرة كما ذكر أبو الفرج[١٠٨]. وكانت تزعم أن أمها علقت بها من مولى لها من عبد القيس، وأنه مات وهي حامل بها فباعها إبنه فولدت على سبيل الرق[١٠٩]. بينما رواية أخرى نقلت عنها أيضاً تقول: أن أمها ولدتها في حياة أبيها فرباها وأدبها معترفاً بها، فلما توفى تواطأ بنوه من غير أمها على بيعها وجحدها[١١٠].

إشتراها محمد بن الفرج أخو عمر بن الفرج الرخجي[١١١]، من رجل نخاس في الكرخ (محلة ببغداد) كانت له يقال له حُسْنَويه، وأهداها إلى المتوكل فحظيت عنده واعتقها فعرفت بعد ذلك بفضل العبدية نسبة إلى عبد القيس[١١٢].

كانت فضل شاعرة ماجنة من أظرف أهل زمانها، حسنة الوجه والقد والجسم شِكلة حلوة أدبية فصيحة، نسيج وحدها في قول الشعر، سريعة الهاجس متقدمة مطبوعة فيه ولم يكن في نساء زمانها أشعر منها[١١٣]. وكان عصر المتوكل عصر الشعر الساحر والديباجة الأنيقة والأسلوب الغنائي الجميل، فلم تُقصِّر عن شعرائه اللامعين بل كثيراً ماتقدمتهم في الشعر الغنائي الذي يعتمد على الرقة والتأثير، مثل قولها[١١٤]:

لأكتمنَّ الذي في القلب من غُصَصٍ ... حتى أموتَ ولم يَشْعُر بي الناسُ
ولايُقال شكا من كان يعشقُه ... إنَّ الشَكاةَ لمن تهوى هي الياسُ
ولاأبوح بشيءٍ كنتُ أكتمه ... عند الجليس إذا مادارت الكاسُ

---

(١٠٨) - كتاب الأغاني للأصبهاني: مصدر سابق، المجلد التاسع عشر، الصفحة: ٣٠١ .

(١٠٩) - الإماء الشواعر للأصفهاني: مصدر سابق، الصفحة: ٦٠ .

(١١٠) - كتاب الأغاني للأصبهاني: مصدر سابق، المجلد التاسع عشر، الصفحة: ٣٠١ .

(١١١) - **الرخجي**: منسوب إلى رخج، تعريب رخو. ورخج كورة من نواحي كابل، وعمر بن فرج بن زياد الرخجي كان من أعيان الكتاب أيام المأمون إلى أيام المتوكل، اشتهر وأبوه بسوء السيرة.

(١١٢) - جمع الجواهر في الملح والنوادر: ابراهيم القيرواني، تحقيق الدكتور رحاب خضر عكاري، الصفحة: ١٠٧ .

(١١٣) - كتاب الأغاني للأصبهاني: مصدر سابق، المجلد التاسع عشر، الصفحة: ٣٠١ .

(١١٤) - المُستظرف من أخبار الجواري، للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٥٤ .

كانت فضلُ تجلس في مجلس المتوكل على كرسي تُعارض الشعراء بحضرته، ولم يكن في زمانها إمرأة أفصح منها ولا أشعر. ألقى عليها يوماً أبو دُلَفٍ[١١٥] القاسم بن عيسى قال[١١٦]:

قالوا: عَشِقْتَ صغيرةً فأجبتُهم ... أشهى المطيّ إليّ مالمْ يُركبِ
كم بين حبة لؤلؤٍ مثقوبةٍ ... لُبِسَتْ[١١٧] وحبةِ لؤلؤٍ لم تُثقبِ

فقالت فضل مجيبة له:

إن المطيّة لايَلَذُّ ركوبُها ... حتى تُذَلَّلَ بالزِّمام وتركبُ[١١٨]
والدُّرُ ليس بنافعٍ أربابَهُ[١١٩] ... حتى يؤلَّفَ بالنظامِ ويُثقبُ[١٢٠]

وكتب أبو الفرج يقول[١٢١]:

«أخبرني محمد بن خلف بن المرزُبان، قال: حدثني أبو العباس المروزيّ، قال: قال المتوكل لعلّي بن الجهم: قُلْ بيتاً وطالب فضل الشاعرة بأن تُجيزه»

فقال علي: أجيزي يا فضل:

لاذ بها يشتكي إليها ... فلم يجد عندها ملاذا

قال: فأطرقت هنيهةً ثم قالت:

فلم يزل ضارعاً إليها ... تهطلُ أجفانُه رَذاذا
فعاتبوه فزاد عشقاً ... فمات وجداً فكان ماذا؟

---

(١١٥) ـ هو القاسم بن عيسى العجيلي أمير الكرخ. شاعر شجاع قاد جيش المأمون وتوفي سنة ٢٢٦للهجرة.

(١١٦) ـ المستظرف من أخبار الجواري للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٥١ .

(١١٧) ـ لُبِسَتْ: في الأغاني «نظمت»المجلد التاسع عشر، الصفحة: ٣٠١

(١١٨) ـ حتى: في الأغاني «مالم»المجلد التاسع عشر، الصفحة: ٣٠١

(١١٩) ـ أربابه: في الأغاني «أصحابه»المجلد التاسع عشر، الصفحة: ٣٠١

(١٢٠) ـ ويثقبُ: في الأغاني «حتى يؤلف للنظام بمثقبِ» المصدر السابق، الصفحة: ٣٠١

(١٢١) ـ كتاب الأغاني للأصبهاني، مصدر سابق، المجلد التاسع عشر، الصفحة ٣١٢ ومابعدها.

فطرب المتوكل، وقال أحسنتِ وحياتي يا فضل، وأمر لها بمئتي دينار»

وكتب أيضاً يقول[122]:

«أخبرني محمد بن خلف بن المرزُبان قال: حدثني أحمد بن أبي طاهر، قال: ألقى بعض أصحابنا على فضل الشاعرة:

ومستفتحٍ بابَ البلاءِ بنظرةٍ　　　تزوَّدَ منها قلبُه حسرة الدهرِ

قالت:

فوالله ما يدري أتدري ماجَنَتْ　　　على قلبه أم أهلكته ومايدري؟»

وجاء في تاريخ الخلفاء مايلي[123]:

«وأخرج عن أبي العيناء قال: أُهديت إلى المتوكل جارية شاعرة اسمها فضل،

فقال لها: أشاعرة أنت؟ قالت: هكذا زعم من باعني واشتراني. فقال: أنشدينا شيئاً من شعرك، فأنشدته:

استقبل المُلْكَ إمامُ الهدى　　　عام ثلاثٍ وثلاثينا[124]
خلافةٌ أفضت إلى جعفرٍ　　　وهو ابنُ سبعٍ بعد عشرينا
إنَّا لنرجوا يا إمامَ الهدى　　　أن تملك المُلكَ ثمانينا
لا قدَّسَ الله امرءاً لم يَقلْ　　　عند دعائي لك آمينا.

ومن شعر فضل هذه المقطوعة[125]:

عَلَمَ الجمالِ تركتني　　　في الحب أشهرَ من عَلَمْ
وَنصبتَني يا مُنيتي　　　غَرَضَ المظنَّةِ والتُّهَمْ

---

(١٢٢) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ٦٧ ومابعدها.

(١٢٣) ـ تاريخ الخلفاء: الحافظ جلال الدين السيوطي، دار الفكر بيروت لعام ١٩٨٨، الصفحة: ٣٢٧

(١٢٤) ـ تعني سنة ثلاث وثلاثين ومئتين من سني الهجرة، هكذا وردت في كتاب الأغاني المجلد التاسع عشر، الصفحة: ٣٠٢

(١٢٥) ـ الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس، مصدر سابق الدكتور المنجد، الصفحة: ٨٩

فـارقـتِني بـعـد الـدنـوِّ فصرتِ عنديَ كالحُـلُمْ[١٢٦]
ماكان ضرَّكِ لو وصلت فخفَّ عن قلبي الأَلَمْ
بـرسـالـةٍ تُـهـديـنـهـا أو زورةٍ تحـتَ الـظُّـلَـمْ
أَوْ لا، فطيفي في المنامِ فـلا أقـلَّ مـن الـلَّـمَـمْ
صـلـةُ المحـبِ حـبـيـبـه الـلـه يـعـلـمـهُ كَـرَمْ

ورداً على من كتب لها شعراً قالت تجيبه[١٢٧]:

الصبرُ ينقصُ والسَّقامُ يزيدُ والـدارُ دانـيـةٌ وأنـت بـعـيـدُ
أشكوكَ أم أشكو إليك فإنه لايستطيع سواهما المجهودُ
إني أعوذُ بحرمتي لكَ في الهوى من أن تطاوعَ فيَّ قول حسود[١٢٨]

ومن قولها في الصحوِ[١٢٩]:

قد بدا شِبهُكَ يا مولايَ يحدو بالظلامِ
فـانـتـبـه نـقـضِ لُـبـانـاتِ اعـتـاقٍ والـتـثـامِ
قـبـل أن تـفـضـحـنـا عـودةُ أرواحِ الـنـيـامِ

ويقال أن سبب قولها لهذه الأبيات هو أن الخليفة المتوكل واعدها أن تبيت عنده، فسكر سكراً شديداً منعه من ذلك، ويقال أن فضل جاءت للموعد وجلست تحركه بكل ماينتبه به النائم من قرص وتحريك وغمز وكلام فلم ينتبه. ولما أعياها الأمر كتبت الأبيات السابقة في رقعة وجعلتها في كمه. فلما أصبح قرأها وضحك ثم دعاها فوهب لها ألف دينار وقال تكون الليلة عوض البارحة[١٣٠].

وكتب أبو الفرج يقول[١٣١]:

---

(١٢٦) ـ بعد هذا البيت جاء زيادة البيت التالي في الأغاني، المجلد التاسع عشر، الصفحة: ٣٠٢
فـلَـو أن نَـفـسي فـارَقَـتْ جـسـمي لـفـقـدِك لم تُـلَـمْ
(١٢٧) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ٦٤
(١٢٨) ـ في الأغاني المجلد التاسع عشر، الصفحة: ٣٠٣ جاء: «مِنْ أَنْ يُطاعَ لديكَ فيَّ حَسودُ».
(١٢٩) ـ المُستظرف من أخبار الجواري، مصدر سابق، الصفحة: ٥٣ .
(١٣٠) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ٦٦ .
(١٣١) ـ كتاب الأغاني: مصدر سابق، المجلد التاسع عشر، الصفحة: ٣٠٤ .

«كانت فضل الشاعرة من أحسن الناس وجهاً وخَلْقاً وخُلقاً وأرقهم شعراً، فكتب إليها بعضُ من كان يجمعه وإياها مجلسُ الخليفة ولاتطلعه على حبها له:

ألا ليتَ شعري فيكِ هل تذكرينني — فذكراكِ عندي في الفؤادِ نصيبُ
ولستُ بموصولٍ فأحيا بزورةٍ — ولا النفسُ عند اليأس عنكِ تطيبُ

قال: فكتبت إليه:

نعم وإلهي إنني بكَ صَبّةٌ[١٣٢] — فهل أنتَ يامن لاعَدِمتُ مُثيبُ؟
لِمَنْ أنتَ منه في الفؤادِ مُصوَّرٌ — وفي العين نُصْبَ العين حين تغيبُ
فثِقْ بودادٍ أنت مُظهِرُ مثِله — على أنَّ بي سُقْماً وأنتَ طبيبُ

وكانت تُضفي على مجالسها جواً من البهجة، فلا تدعُ شاردة ولا واردة تمر دون علمها والإطلاع عليها إثباتاً لنباهتها وتأكيداً على يقظتها. حتى إذا مااسترابت لحظةً لحظها إياها علي بنُ الجهم اندفعت قائلة[١٣٣]:

يا رُبَّ رامٍ حسن تعرُّضهُ — يرمي ولايَشعِرُ أني غَرَضهْ

فيجيبها ابن الجهم قائلاً:

أيُّ فتىً لحظكَ ليس يمرضهْ — وأيُّ عَقْدٍ محكمٍ لاينقضهْ

فتضحك فضل وتقول له: خذ في غير هذا الحديث

ويقال أن قبيحة خرجت إلى المتوكل في يوم نيروز وفي يدها كأس بلور بشراب صاف، فقال لها: ماهذا فديتك

قالت: هديتي إليك في هذا النيروز عرفك الله بركته، فأخذه من يدها فشرب الكأس وقبل خدها. فكانت فضل الشاعرة واقفة على رأسه فقالت[١٣٤]:

سُلافةٌ كالقمر الباهر — في قدح كالكوكب الزاهر
يديرها خشف[١٣٥] كبدر الدُجى — فوق قضيب أهيف ناضرِ

---

(١٣٢) ـ صبّةٌ: محبة، مشتاقة.

(١٣٣) ـ المصدر السابق للأصبهاني، المجلد التاسع عشر، الصفحة: ٣٠٦ .

(١٣٤) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ٦٧ .

(١٣٥) ـ الخشف ولد الظبي أول مايولد، أو أول مايمشي.

على فتىً أروعَ من هاشم   مثلِ الحسامِ المُرهفِ الباترِ

وكان بين فضل الشاعرة وسعيد بن حُميد(١٣٦) صحبة وتواصل، فكانت فضل تهواه وسعيد يهواها ولكل واحد منهما في صاحبه أشعار ومطارحات وأخبار. كتبت إليه مرةً:

وعيشِكَ لو صَرّحتُ باسمكَ في الهوى   لأقصرتُ عن أشياء في الهَزْلِ والجِدِّ
ولـكـنني أبـدي لـهـذا مـودةً   وذاك وأخلو فيكَ بالبثِّ والوَجْدِ
مخافةَ أن يُغري بنا قولُ كاشحٍ   عَدُواً فيسعى بالوصالِ إلى الصَدِّ

فكتب إليها سعيد بن حميد:

تنامين عن ليلي وأسهره وحدي   فأُنهي جفوني أن تبثَّكِ ماعندي
فإن كنتِ لاتدرين ماقد فعلتِهِ   بنا فانظري ماذا على قاتلِ العَمْدِ(١٣٧)

وأرسلت إليه مرة رقعة تصف حبها له وشوقها إليه، وتعاتبه على مماطلته وعدم وفائه بوعده وفي الرقعة الأبيات التالية(١٣٨):

نفسي فداؤُكَ طال العهدُ واتصلت   منك المواعيد والليان والخلفُ
والله يعلم أني فيك ساهرةً   ودمعُ عيني منها بارقٌ يكفُ
فإن تكن خنتَ عهدي فوا أسفاً   وقلَّ مني فيك الهمُ والأسفُ
وإن تبدلت مني غادراً خلفاً   فليس منك وربِّ العرشِ لي خلفُ

وكتبت إليه في رقعةٍ أخرى تقول(١٣٩):

الصبرُ ينقصُ والسقامُ يزيدُ   والدار دانيةٌ وأنت بعيدُ

---

(١٣٦) ـ سعيد بن حُميد بن سعيد: أبو عثمان كاتب مترسل من الشعراء. أصله من النهروان الأوسط من أبناء الدهاقين ومولده ببغداد. كان يتنقل بينها وبين سامراء، قلده المستعين العباسي ديوان رسائله، وأكثر أخباره مناقضات له مع فضل الشاعرة. شعره رقيق نحا فيه نحو بن أبي ربيعة. توفي حوالي سنة ٢٥٠ للهجرة. جمع يونس أحمد السامرائي رسائله وأشعاره (بغداد ـ ١٩٧١).

(١٣٧) ـ المصدر السابق للأصفهاني، الصفحة: ٧٧ .

(١٣٨) ـ المصدر السابق للأصفهاني، الصفحة: ٧٢ ومابعدها.

(١٣٩) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني: مصدر سابق، الصفحة: ٧٣ .

أشكوك أم أشكو إليك فإنه   لايستطيع سواهما المجهودُ

وقالت تعاتبه على خيانته وتجميشه لمغنية(١٤٠):

خنتَ عهدي وليس ذاك جزاءُ   يا صناعَ اللسان مُرَّ الفعالِ
وتبدَّلتَ بي بديلاً فلا يَهنيك ما إخترته من الإبدالِ

وكتب أبو الفرج يقول(١٤١):

«حدثني جعفر بن قُدامة، قال: حدثني ابن حُميد، قال: قلت لفضل الشاعرة أجيزي:
من لمحبٍ أحبَّ في صغرة؟

فقالت: فصار أحدوثةً على كِبَرِهْ
فقلت: من نظرٍ شَفَّهُ وأرَّقَهُ
فقالت: فكان مبدا هواه من صبره

ثم شُغِلْتُ بالشراب هنيئةً، ثم قالت:

لولا الأماني لمات من كمدٍ   مَرّ الليالي يزيدُ في فِكَرهْ
ليس له مُسْعِدٌ يساعِدُهُ   بالليل في طوله وفي قصرهْ
الجسمُ يبلى فلا حراكَ به   والروحُ ــ فيما أرى ــ على أثرهْ»

واجتمعت فضل الشاعرة وسعيد بن حُميد في مجلس، فأخذت دواةً ودرجاً وكتبت إليه(١٤٢):

بثثْتُ هواكَ في جسدي وروحي   فألْفَ فيهما طمعاً بيأسِ

فكتب إليها تحت البيت:

كفانا اللهُ شرَّ اليأس إني   لخوفِ اليأسِ أُبغِضُ كل آسِ».

كتب صاحب الأغاني يقول(١٤٣):

---

(١٤٠) ـ المصدر السابق، الصفحة: ٧٤ .

(١٤١) ـ المصدر السابق، الصفحة: ٦٩ .

(١٤٢) ـ المصدر السابق، الصفحة: ٦٧ .

(١٤٣) ـ كتاب الأغاني للأصبهاني، مصدر سابق، المجلد الثامن عشر، الصفحة: ١٦٦ ومابعدها.

«أخبرني ابراهيم قال: وحدثني أبي قال: اقتصد سعيد بن حُميد فسألتني فضل الشاعرة وسألت عريب أن نمضي إليه ففعلنا، وأهدت إليه هدايا، فكان فيها ألف جَدْي وحَمَلْ، وألف دجاجة فائقة، وألف طبق ريحان وفاكهة، ومع ذلك طيب كثير وشراب وتحف حسان. فكتب إليها سعيد: إن سروري لايتم إلاّ بحضورك، فجاءته في آخر النهار، وجلسنا نشربُ، فاستأذن غلامه لِبنَان(١٤٤) فأذن له، فدخل إلينا وهو يومئذ شاب طرير حسن الوجه، حسن الغناء، نظيف الثياب، شَكِلٌ(١٤٥)، فذهب بها كل مذهب وأقبلت عليه بحديثها ونظرها فتشمّز(١٤٦) سعيد واستُطير غضباً، وتبين بُنان القصة فانصرف، وأقبل عليها سعيد يعذلها ويؤنبها ساعة ثم أمسك، فكتبت إليه:

يا مَنْ أطلتُ تفرّسي ... في وجهه وتنفسي
أفديكَ من مُتدَلّلٍ ... يُزْهَى بقتل الأنفُس
هبني أسأت وما أسأتُ بلى أقرُّ أنا المُسِي(*)
أحلفتني ألاّ أسارقَ نظرةً في مجلسي
فنظرتُ نظرة مُخطيءٍ وأتبعتُها بتفرُّسِ
ونسيتُ أني قد حَلَفْتُ، فما عقوبة من نُسِي؟

فقام سعيد فقبل رأسها وقال: لاعقوبة عليه بل نحتمل هفوته ونتجافى عن إساءته، وغنت عريب في هذا الشعر هَزَجاً، فشربنا عليه بقية يومنا، ثم افترقنا. وأثّر بنان في قلبها وعلقت به فلم تزل حتى واصلته وقطعت سعيداً».

وذكر أبو الفرج هذه الحادثة في مؤلفه الإماء الشواعر مضيفاً إلى الأبيات السابقة هذين البيتين:

يا من حكاه الياسمين وطيبُ ريح النرجس
اغفر لعبدك ماجناه من اللحاظ الخُلَّسِ(١٤٧)

---

(١٤٤) - بُنَانٌ: مغن بارع اشتهر بالضرب على العود في أيام المتوكل. كان منقطع النظير في طبقته. وكان هو وزنام الزامر إذا اجتمعا على الضرب والزمر أحسنا وفتنا وأعجبا. وكان المتوكل لايشرب إلاّ على سماعهما. عن ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي، الصفحة: ١٢٢

(١٤٥) - شَكِلٌ: فيه دلال وغزل.

(١٤٦) - تشمّزَ: تقبض.

(*) - المُسِي : تخفيف من المسيء

(١٤٧) - الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ٧٩ .

بينما ذكر الجاحظ هذه الحادثة مع بعض اختلافات لاتمس جوهرها، فكتب الأبيات الأولى دون إضافة إلاّ أنه أورد أن فضل هي التي راحت تعزف وتغني لا عريب وذكر أنها غنت أيضاً:

عاد الحبيب إلى الرِّضا ... فصفحتُ عمّا قد مضى
من بعدما لصدوده ... شَمِتَ الحسودُ فعُرضا
تَعِسَ البغيضُ فلم يَزَلْ ... لصدودنا مُتعرِّضا
هَبني أسأتُ وما أسأتُ ... فإن أسأتُ لك الرضا[١٤٨]

يُقال لما انكشف لسعيد بن حميد عشق فضل الشاعرة لبنان المغني، واصل جارية من جواري القيان فكتبت إليه فضل[١٤٩]:

يا عاليَ السنّ سيء الأدبِ ... شِبتَ وأنت الغلامُ في الطربِ[١٥٠]
ويحك إنّ القيانَ كالشَّركِ ... المنصوب بين الغرور والعطبِ
لايتصدَّينَ للفقيرِ ولا ... يطلبنَ إلاّ معادنَ الذهبِ
بينا تَشَكّى هواك إذ عَدَلَتْ ... عن زفرات الشكى إلى الطلبِ
تلحظ هذا وذا أو ذاك وذا ... لحظَ محبٍ بعين مُكتسبِ[١٥١]

ويحدثنا أبو الفرج عن علي بن يحي المنجم[١٥٢]، كيف أن فضل الشاعرة كانت تكاتم المتوكل ميلها إلى بُنان المغني وعشقها له، وإن الخليفة كان على شك بذلك. فطلب منها مرة وهي تجلس مع الندماء بارزة على كرسي، أن تقترح صوتها على بنان، فقالت ما لي عليه صوت. فقال لبنان بحياتي غنِ صوتها عليك، فغناه بشعر ينسب إلى سلم الخاسر:

---

(١٤٨) ـ المحاسن والأضداد للجاحظ، مصدر سابق، الصفحة: ١١٥ ومابعدها.
(١٤٩) ـ المُستظرف من أخبار الجواري للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٥٥ .
(١٥٠) ـ في الموشى أو الظرف والظرفاء للوشاء، الصفحة: ١٢١ على الشكل التالي:
ياحسن الوجه سيء الأدب ... شبت وأنت الغلامُ باللعب
(١٥١) ـ في الأغاني، المجلد الثامن عشر، الصفحة: ١٦٦ على الشكل التالي:
تلحظ هذا وذاك وذا ... لحظَ مُحبٍ وفعْلَ مكتسبِ
(١٥٢) ـ **علي بن يحيى المنجم**: هو أبو الحسن علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم. نديم المتوكل العباسي. ولد سنة ٢٠١ للهجرة وخص بالمتوكل وبمن بعده من الخلفاء إلى أيام المعتمد. كان راوية للأشعار والأخبار، شاعراً، توفي بسامراء سنة٢٧٥ هجرية.

اسـمـعي أو خـبّـرينـا   يـا ديـار الـظـاعـنـينا
إن قـلـبـي لـك رهـنٌ   بـالـذي قـد تـعـلـمـينا

فشرب المتوكل عليه رطلاً وأمر بإعادته ثانياً وثالثاً وفي كل مرة كان يُسقى عليه. ولمّا قام علي بن المنجم لقضاء حاجة، اعترضته فضل وقالت: إسمع يا أبا الحسن ماقُلتُ، فقال هاتِ، فأنشدته هذه الأبيات[١٥٣]:

قد تغنى لي بُنانُ فاسمعني أو خبرينا
وشربتُ الراح فارتحتُ وأبدت لي شجونا
ثم أظهرتُ لجلاسي من السرّ مصونا
قُلْ لمولاي ولاتخشى وقُلْ قولاً مبينا
ربَّ صوتٍ حسنٍ قد ألبس الرأس قرونا
أنت قوادٌ نبيلٌ يا أمير المؤمنينا

توفيت فضل في بغداد عام ٢٥٧ للهجرة، ولم نعثر على سنة لميلادها وكانت تُهاجي عدداً من الشعراء، ولها أبيات في الهجاء جرت بينها وبين الشاعرة خنساء[١٥٤] جارية هشام المكفوف، حيث احتدمت نار التهاجي بينهما، وراح بعض الشعراء ممن لهم مصلحة في هذا الهجاء يصب الزيت على اللهيب ويساعد هذه ضد تلك. وعلى الرغم من أنه كان هجاءً بين النساء إلا أنه كان يعتمد على الفحش المؤذي والألفاظ البذيئة والتجريح المقذع وأحياناً التهشيم المميت.

---

(١٥٣) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ٨١ .

(١٥٤) ـ **خنساء**: جارية هشام النحوي المكفوف. كانت بذيئة اللسان جارحة الألفاظ، فاحشة القول وخاصة في تهاجيها مع فضل الشاعرة، ومع الشاعر أبي الشبل البرجمي عاصم بن وهب الذي كان يعابثها ويقف إلى جانب فضل في معركة الهجاء التي احتدمت بينهما. ولقد بلغت بها الثقة أن قالت لأبي الشبل أنا والله أشعر منك، ولئن شئت لأهجونك. ومن هجائها له ولفضل، قولها:

مايَنقضي فكري وطول تعجبي   من نعجةٍ تُكنى أبا الشبلِ
لعب الفحول بسفلها وعجانها   فتمردت كتمرد الفحلِ
لما اكتنيت بما اكتنيت به   وتسمّتِ النقصان بالفضلِ
كادت بنا الدنيا تميد ضحىً   ونرى السماء تذوب كالمُهلِ

عن كتاب الأغاني المجلد التاسع عشر، الصفحة: ٣٠٨ . ويقال أن خنساء استطاعت بهجائها أن تثير أعصاب أبي الشبل وتخرج به عن التعقل والإتزان، فينجرف وراء غضبه مترفعاً عن هجائها والقول فيها موجهاً كلامه إلى سيدها هشام.

ومن هجاء فضل لخنساء قولها(١٥٥):

إن خنساءُ لا جعلتُ فداها　　اشتراها الكشّارُ من مولاها
ولها نكهةٌ يقول محاذيها　　أهذا حديثها أم فِساها

محبوبة، جارية المتوكل

جارية مولدة من مولدات البصرة، وشاعرة سريعة مطبوعة لاتكاد فضل الشاعرة اليمامية أن تتقدمها، وإذا أشبهتها برقة طبعها وعذوبة لفظها، وحضور خاطرها، فقد كانت أجمل منها وجهاً وأعلى نفساً وأعفَّ مسلكاً. ملكها المتوكل وهي بكر (عذراء)، أهداها له عبدالله بن طاهر(١٥٦)، فبقيت عنده طيلة حياته ماطمع فيها أحد، عفيفة وقورة، تغني غناءً حسناً ليس بالفاخر البارع(١٥٧). إذ لم تكن صاحبة صنعة غنائية وإنما كانت تغني ألحان غيرها، حيث عُرفت بجودة الضرب على العود، كما عرفت بثقافتها الأدبية الواسعة.

---

(١٥٥) ـ كتاب الأغاني للأصبهاني، مصدر سابق، المجلد التاسع عشر، الصفحة: ٣٠٩ .

(١٥٦) ـ **عبد الله بن طاهر**: أمير شاعر من أبناء طاهر بن الحسين. ولد عام ٧٩٨ للميلاد، ويُقال أن أصله من باذغيس، وتوفي عام ٨٤٢ ميلادية في مرو أو نيسابور. وكان من أعظم الولاة وأكبر القواد وأفاضل الشعراء والكتاب. قاد الجيوش لإخضاع الخارجين على الدولة العباسية في الشام ومصر وخراسان، وحالفه الحظ في وقائعه حيث قضى على نصر بن شبث صاحب حلب المناصر للأمين، وأقر الأمن في مصر بين عرب الشمال وعرب الجنوب. ولى الشام عام ٨٢١ للميلاد، ومصر عام ٨٢٥ ميلادية، وخراسان عام ٨٢٨ للميلاد.

عُرف بن طاهر بحبه اقتناء الجواري الكثيرات، كما عُرف بفضله وعلو مكانته وقدره عند الخلفاء، وكان ذواقة للشعر محسناً لنظمه. له شعر كثير في الغزل والأخوانيات، وفي الفخر بنسبه وحسبه وفي مدح بعض الخلفاء. كان عارفاً بتاريخ العرب، وموسيقياً بارعاً بل أستاذاً في فن الغناء وألحاناً كثيرة لم ينسبها لنفسه ترفعاً عن هذه الصنعة.

ومن غناء بن طاهر ولحنه:

راح صحبي وعاود القلبَ داءٌ　　من حبيبٍ طِلابُهُ لي عناءُ
حَسَنُ الرأي والمواعيد لا يُلفى لشيءٍ مما يقول وفاءُ
من تعزّى عمن يُحِبُّ فإني　　ليس لي ماحييتُ عنه عزاءُ

عن الأغاني للأصبهاني، المجلد الثاني عشر، الصفحة: ١١٢ .

(١٥٧) ـ كتاب الأغاني للأصبهاني، مصدر سابق، المجلد الثاني والعشرون، الصفحة: ٢٠٠ .

كتبَ عنها المسعودي يقول[١٥٨]:

«.. وذكر علي بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين جعفر المتوكل على الله أهدى إليه الناس على أقدارهم، وأهدى إليه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف، وفي الهدية جارية يُقال لها محبوبة كانت لرجل من أهل الطائف قد أدبها وثقفها وعلمها من صنوف العلم. وكانت تُحسن كل مايُحسنه علماء الناس، فحسن موقعها من المتوكل».

من المعتقد أن محبوبة قضت مرحلة حياتها الأولى بين جواري بن طاهر وفي داره التي لها تقاليد الأشراف وعفاف الأسياد النبلاء. لأن جواري بن طاهر كنّ له وحده ولداره وحدها، وأنها تخرجت عليه في الغناء والشعر في هذا الجو المحاط بالكتمان والوقار والتقاليد. ولم تفز بأسباب الشهرة إلا حين استقرت في قصر المتوكل. فراحت تستغل مواهبها الجسمية والأدبية والغنائية حتى ملكت على المتوكل أمره، وتقدمت عنده. فأغرم بها حتى لم يستطع فراقها لحظة. وتقول الروايات: أنه بلغ من شدة شغفه بها أن صنع لها ستارة بجانب مجلسه الرسمي، فكان يدخل رأسه إليها في كل لحظة ليراها وزوّاره أمامه[١٥٩].

ويحدثنا أبو الفرج عن أمر خالفت فيه المتوكل فأغضبته، فهجرها ومنع جواريه من التحدث إليها، وأحجم عن مصالحتها على الرغم من الشوق الذي نازعه فحنَّ إليها حتى كادت روحه تتلف. ولم تكن محبوبة أقل منه تمنعاً وإباءً لوثوقها من منزلتها في نفسه.

وبينما هو على هذه الحال وقد اشتد عليه بعدها عنه، دخل عليه علي بن الجهم وكان موضعاً لسره وقتئذ، فقال له: يا علي رأيت البارحة في نومي أن محبوبة قد صالحتني. ثم دعا بخادم وقال له: اذهب فاعرف خبرها، وأي شيء تصنع. فرجع وأعلمه أنها تغني، فقال: أما ترى إلى هذه تغني وأنا عليها غضبان؟ هيا قم بنا حتى نسمع أي شيء تغني؟! قال علي: فتبعت أمير المؤمنين، فما وصلنا حجرتها حتى سمعناها تغني:

أدور في القصر لاأرى أحداً ... أشكو إليه ولايكلمني
حتى كأني أتيت معصيةً ... ليست لها توبة تخلصني
فهل لنا شافع إلى ملك ... قد زارني في الكرى فصالحني
حتى إذا ماالصباح لاح لنا ... عاد إلى هجره فصارمني

---

(١٥٨) - مروج الذهب للمسعودي، مصدر سابق، المجلد الرابع، الصفحة: ١١٧ ومابعدها.

(١٥٩) - كتاب الأغاني للأصبهاني، مصدر سابق، المجلد الثاني والعشرون، الصفحة: ٢٠٢ .

فطرب المتوكل وأحسن به، فخرجت إليه وخرجنا نتبادر، فأعلمني أنها رأته في النوم قد جاء فصالحها فقالت هذا الشعر وغنت فيه. فأقام عندها يشرب، وخرجت إلينا الجوائز(١٦٠)

ويحدثنا جلال الدين السيوطي عن شاعرية محبوبة، وسرعتها في نظم الشعر على البديهة، وكيف أنها سبقت الشاعر المعروف علي بن الجهم وتفوقت عليه. كتب السيوطي يقول(١٦١):

«... وقال علي بن يحيى المنجم، قال المتوكل لعلي بن الجهم: إني دخلت إلى قبيحة الساعة فوجدتها قد كتبت إسمي على خدها بغالية(١٦٢)، فوالله مارأيت شيئاً أحسن من سواد تلك الغالية على بياض ذلك الخدّ، فقل في هذا شيئاً.

قال: وكانت محبوبة جالسة من وراء الستارة تسمع الكلام، فإلى أن دُعي لعلي بالدواة والدَّرج وأخذ يفكر قالت على البديهة:

وكاتبة بالمسك على الخدّ جعفرا ... بنفسي مَخَطُّ المسك من حيث أثَّرا
لئن كتبت في الخدّ سطراً بكفّها ... لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا
فيا من لمملوك لملك يمينه ... مطيع له فيما أسَرَّ وأظهرا
ويا من هواها في السريرة جعفرٌ ... سقى الله من سُقيا ثناياك جعفرا

قال: وبقي علي بن الجهم واجماً لاينطق بحرف».

وأهداها المتوكل مرة وهو في مجلس شراب تفاحة مغلفة بغالية، فقبلتها وقالت(١٦٣):

يا طيب تفاحةٍ خلوتُ بها ... تُشعِلُ نار الهوى على كبدي
أبكي إليها وأشتكي دنفي ... وما ألاقي من شدة الكمدِ
لو أن تفاحة بكت لبكت ... من رجفتي(١٦٤) هذه التي بيدي

---

(١٦٠) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ١٦٢ .

(١٦١) ـ المستظرف من أخبار الجواري للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٦٤ ومابعدها.

(١٦٢) ـ الغالية: المسك.

(١٦٣) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ١٦٠ .

(١٦٤) ـ في الأغاني المجلد الثاني والعشرون، الصفحة: ٢٠١ والمصادر الأخرى: من رحمتي.

إن كنت لاتعلمين مالقيت نفسي فمصداقُ ذاك في جسدي[١٦٥]
فإن تأملته علمت بأن ليس لخلقٍ عليه من جَلدِ

ولما دارت الدوائر على المتوكل فقتل بقيت وفيّة له أشد الوفاء، مخلصة له كل الإخلاص، ورفضت أن تتزين وتتعطر لوصيف (قائد تركي له يد في قتل المتوكل) عندما طلبها للغناء. وظهرت بثياب بيض غير فاخرة حزناً عليه ولما أجبرها على الغناء راحت تغني وهي تبكي:

أيُّ عيشٍ يطيب لي لا أرى فيه جعفرا
ملكاً قد رأته عيني قتيلاً معفَّرا
كُلُّ من كان ذا سقامٍ وحزنٍ فقد برا
غير محبوبة التي لو ترى الموت يُشترى
لاشترته بما حوته يداها لتُقبرا
إن موت الحزين أطيبُ من أن يُعمَّرا

«فاشتد ذلك على وصيف وهم بقتلها فاستوهبها منه بُغا (قائد تركي آخر) وكان حاضراً. فوهبها له فأعتقها وسمح لها أن تقيم حيث تحب فخرجت إلى بغداد فأقامت بها وأخملت نفسها حتى ماتت[١٦٦].

---

(١٦٥) ـ في الأغاني المجلد الثاني والعشرون، الصفحة: ٢٠١

إن كنتِ لاترحمين مالقيت نفسي من الجهد فارحمي جسدي

(١٦٦) ـ المستظرف من أخبار الجواري للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٦٧ .

الفصل السادس

أثر الجواري والقيان

فـي الأدب والشـعـر

من هذا العرض لنماذج من حياة وشعر بعض الجواري الشاعرات المثقفات الذي جاء على سبيل المثال لا الحصر يتّضح لنا أن الجارية كانت بفنها وجمالها وأدبها وحسن حديثها محور تفكير القوم ومصدراً من مصادر إلهامهم. وبعد هذا العرض لابد لنا من إبداء وجهة نظر أولية أو إذا صح لنا القول من تقييم وتثمين لدور هؤلاء الجواري والقيان على من حولهم من الكتاب والشعراء، ومأأثر عنهن من شعر ونثر[1] لايقل جودة واتقاناً وفنية عمن حولهم من رواد مجالسهن من خلفاء وأمراء وكتاب وشعراء، ومدى أبعاد هذا التمازج والتفاعل على إثراء دوحة الشعر والأدب، رغم مأأحاط بهذه المخلوقات من ظروف قاسية قاهرة ساهمت بهذا القدر أو ذاك على دفعهن إلى منزلق بائعات متعة ولذة متزلفات مخادعات صائدات للقلوب والجيوب، وعلى تشويه سمعتهن وزعزعة مراكزهن، وتقزيم شخصياتهن بالصاق كل ماهو شائن ومعيب بهنّ.

(١) - لقد أُثر عن الجواري قطع نثرية ممتازة توافق أرقى وأحسن ماعرف للنثر في هذه الفترة من ضوابط فنية، وحسن تعبير، وجزالة وسلامة أسلوب وتدفق بالمعاني. وأفضل مثال حي على نثر الجواري وطول باعهن فيه مأأثبته صاحب الأغاني عن عريب عندما هجرها المأمون أياماً ثم اعتلت فعادها فقال لها: «كيف وجدت طعم الهجر فقالت: ياأمير المؤمنين لولا مرارة الهجر ماعُرفت حلاوة الوصل، ومن ذمَّ بدء الغضب حمد عاقبة الرضا». وقد اعتبر المأمون بلاغة جوابها بمستوى بلاغة النظام الفيلسوف المعتزلي المعروف عند علماء الكلام. عن الأغاني، المجلد الحادي والعشرون، الصفحة: ٨٠ .وللمزيد من نماذج نثر الجواري يمكن الرجوع إلى كتاب الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس للدكتور صلاح الدين المنجد، الصفحة: ٨٤ ومابعدها.

إن دراسة شخصياتهن وأشعارهن تتطلب المزيد المزيد من التعمق والتوضيح، والبحث عن أشعارهن الضائعة والمنحولة. إذ لم يُثبت لنا المصنفون إلا النزر اليسير منها، وأن بعض ماأثبتوه من نتف ومقطوعات شعرية صغيرة قد يُختلف على مصادر نسبه بتعدد مصادر إثباته، فأحياناً تُنسب هذه المقطوعة إلى هذه الشاعرة أو تلك أو لهذا الشاعر أو ذاك؟! ومانقصده من هذا الطرح هو لفت الأنظار إليهن لفهم أدوارهن ومهمتهن على حقيقتها. إذ ليس من الإنصاف أن يبقى انطباعنا عنهنَّ أنهنَّ بائعات لذة ومتعة وحسب كما جهد المصنفون على إبرازهن وتقديمهن في هذا الثوب الجنسي والمظهر اللّذوي فقط. حتى وكأن الجنسوية الذكورية لاتكتمل أبعادها، ولاتمارس طقوسها، ولاتحقق تفوقها ولذتها إلاّ إذا جامع الرجل (الخليفة، أو البعل، أو رب البيت) من كانت بجمال قمر الدُجى، وخفر الرشأ الأغن، وتشدو شدو بلابل الأيك، وتتمتع بفهم الأصمعي، وعلم خلف الأحمر، وشاعرية جرير والبحتري..؟!

فإذا قرأنا ماوصل إلينا من أشعارهن، ردَّدنا ألْيَنَ الكلام بأرشق الأوزان وأَيْنَقِ الألْفاظ، وإذا أصخنا إلى مقطوعاتهن المغناة، سمعنا سلاسة لفظ ينبع من سلاسة طبع، ودماثة شعر تُعبِّرُ عن دماثة خُلقٍ، وَرِقَّة كلامٍ تنم عن ترف وذوقٍ وطرافة وخفة وشمائل ظُرف، وهسهسة صيغ رشيقات للوحات شعرية ندية زاهية مزركشة بأوضاح البديع من جناس ومقابلة واستعارة وطباق، تميس بأرشق الألحان وأرقها، وهازج الأنغام وألينها، حسنة في المسمع لطيفة في الموقع من القلب لأنها تعبر عن أناس مترفين ظرفاء أضنتهم العطالة الاجتماعية وثرثرة المجالس، وتشدو بعواطف غزلين متهالكين على الشهوات والملذات، جاهرين بعواطفهم، متحدثين عن ذكرياتهم وصبواتهم وانفعالاتهم معترفين بحقوق رغباتهم وماتهفوا إليه نفوسهم، متجاوزين كل السدود والقيود والأعراف. كقول فضل اليمامية للخليفة المتوكل(٢):

قد بدا شبهك يا مولاي يحدو بالظلام
قم بنا نقضِ لباناتِ التزام والتثامِ
قبل أن تفضحنا عودة أرواحِ النيامِ

أو كقول عريب(٣):

---

(٢) ـ الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس، مصدر سابق، الصفحة: ٨٩ .

(٣) ـ المستظرف من أخبار الجواري للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٣٧ .

لا غرّني بعدك إنسانُ   فقد بدت لي منكَ ألوانُ
وإن تغيرت فما حيلتي   ما لي على قلبك سلطانُ

وقولها أيضا(٤):

أجاب الوابل الغَدقُ   وصاحَ النرجسُ الغرقُ
وقد غنى بُنانُ لنا   جفونٌ حشوها الأرقُ
فهاتِ الكأسَ مترعةً   كأنَّ حُبابها حدقُ

أو كقول عنان عندما أجازت(٥) بيتاً من الشعر ألقاه عليها أبو نواس.

قال أبو نُواس(٦)

وإني لأهوى من حبيب أحبه   مداعبةً منه وأهوى المداعقة

فقالت تجيبه:

أجرّعهُ ريقي وأشرب ريقه   فما تنقضي مني ومنه المزاعقة

بشكل عام كان شعر هؤلاء الجواري في أكثر الأحيان صورة لألوان من العواطف والإنفعالات الزائفة إلا فيما ندر. عواطف وانفعالات تسعى حريصة على المتع الحسية، وتنسجم مع وسط لاه عابث مخمور، وتعبر عن واقع معقد لمجتمع ذي صفة إسلامية في أطواره المتأخرة عن مرحلة التأسيس، تعبر عن واقع كان ثمرة تهذيب وجناء لهوٍ وريع وترفٍ طبقي لإمبراطورية عربية مترامية الأطراف بعيدة الأصقاع عملت على صهر الأمم والشعوب المغلوبة ضمن بوتقتها بالاعتماد على قوتها العسكرية المجاهدة متجاوزة حدَّ الاختلاط والمحاورة والمعاشرة والتقليد إلى حدِّ الاصهار والتوالد، فنشأت أجيال وأجيال ورثت إلى جانب المزاج العربي المزاج الفارسي أو غير الفارسي، وتأثرت بآثار الفرس والهند واليونان في الحكمة والموعظة، وفي الفلك والنجوم وفي السياسة والأخلاق وفي العلم

(٤) ـ كتاب الأغاني للأصبهاني، مصدر سابق، المجلد الواحد والعشرين، الصفحة: ٧٨ .

(٥) ـ الإجازة: تعني أن يقال بيتاً من الشعر ويطلب من الشاعر أن يتم القول ببيتٍ آخر مكملاً المعنى على نفس الوزن والقافية والروي. وهي في الواقع عملية مبارزة شعرية بين شاعرين، واختبار لسرعة البديهة، وتعبير عن الطلاقة وتفتح الخاطر وعمق الثقافة.

(٦) ـ أخبار أبي نواس لابن منظور المصري، مصدر سابق، السفر الأول، الصفحة: ١٣٧ .

والفلسفة. فهل يمكن أن يمتزج العربي والفارسي والرومي وتبقى الأخلاق والعادات كما كانت دون أن ينالها تطور أو إرتقاء؟ دون أن ينالها فساد أو اضطراب؟ ذلك شيء نستطيع أن نفترضه في الخيال أما في الحياة الواقعية، فليس إلى هذا التصور من سبيل.

عواطف وانفعالات تُعبر عن واقع كان نتاج حضارة جنسوية إسلاموية ذكورية المنحى والتوجه، لعب فقهاء السلطة بشكل خاص دوراً مؤسساً فيها عندما غيروا وألغوا أحكاماً أصلية تحت تأثير هذا التطور، وكرسوا قيماً جنسوية ذكورية أرضية المنشأ تاريخية التطور تنسجم وواقع أن المرأة الأمة الظريفة الأعجمية المتحضرة، تباع وتشترى وأن الوصول إليها كان سهلاً ميسوراً وكثيراً ماكانت تُنال بالهبة والعطاء، على شكل أحكام مقدسة أبدية الديمومة مطلقة الشمول شملت جميع النساء بما فيهم المرأة الحرة الحصان، بعد أن أسبغوا عليها من صفات الألوهة والجلال والتقديس ما أحال بين العقل وبين النظر إليها نظراً يعتمد على النقد والبحث العلمي الصحيح.

إن عرض واقع تلك المقولات لاينفي أبداً أن يكون لهؤلاء الجواري الشاعرات عواطف متأججة ومشاعر صادقة، فهنَّ بشر وقد يعتلج في جوارحهن مايعتلج في جوارح غيرهن من النساء من جامح الحب وصادق العاطفة، وهذا مايفسر لنا بعض المقطوعات الغزلية ذات المشاعر العاطفية الحارة العميقة التي تزخر بالمعاني الروحية من وفاء وإخلاص وعذاب وشقاء وصدق معاناة، تُعبر عن حالات عشقٍ صادقٍ لهن مع عدد من الشعراء مثل قول فضل العبدية(٧):

لأكتمن الذي في القلب من غصصٍ ... حتى أموتَ ولم يشعر بي الناسُ
ولايُقال شكا من كان يعشقُهُ ... إنّ الشِكاة لمن تهوى هي الياسُ
ولاأبوح بشيءٍ كنت أكتمُهُ ... عند الجليس إذا مادارتِ الكاسُ

أو قولة صدقٍ لعنان جاريةُ النطّاف(٨):

يا لائمي جهلاً ألا تقصرُ ... من ذا على حرّ الهوى يصبرُ
لاتلحني أني شربت الهوى ... صرفاً فممزوجُ الهوى يُسكرُ
أحاط بيَ الحُبُ فخلفي له ... بحرٌ وقدامي له أبحرُ

---

(٧) ـ المستظرف في أخبار الجواري للسيوطي، مصدر سابق، الصفحة: ٥٤ .

(٨) ـ الإماء الشواعر للأصفهاني، مصدر سابق، الصفحة: ٤٩ .

تخفق رايات الهوى بالردي فوقي، وحولي للردى عسكرُ
سيان عندي في الهوى لائمٌ أقلَّ فيه، والذي يُكثر

إلاّ أن السمة العامة تبقى في طباعهن، ألا وهي التفنن في أساليب الكسب والربح واثبات وجودهن في الحياة الاجتماعية، وصرف أنظار الرجال عن الحرائر المحجّبات الأسيرات في قصورهن، اللواتي لم يعد الزوج يقربهنّ ولا الحبيب يبحث عنهنّ، لأنهنّ لم يستطعن أن يقدمن للرجل مايلقاه عند الجواري والقيان، وليس لهنّ في معظم الأحيان ماعند الجواري من مؤهلات الأدب والثقافة وجودة الغناء وغيرها من المؤهلات والإمكانيات؟!

هذا من ناحية أما من الناحية الأخرى فقد لعب الجواري والقيان دوراً واضحاً ومهماً بحكم مواقعهن الاجتماعية ومساهمتهن في مجالس الشراب والغناء في صقل وتهذيب ماصدر عن الخلفاء وأبنائهم، وماصدر عن بعض الأمراء والوزراء من إنتاج شعري بفضل ماأثرنه فيهم من كوامن العاطفة ومشاعر العشق، وماكان منهن من جميل القول وطريف التصرفات مما أثار اعجاب هذا أو ذاك من أهل الحكم والرئاسة أو من الشعراء والأدباء. فكان من هؤلاء وأولئك من أشعار لطيفة وتفنن عذب تودداً للجواري، ومجاراة لهن أو اشتراكاً معهن في الإجازة والمعارضة وما إليها.

ومن جميل مانُسب إلى الخليفة المهدي الذي كان يحب القيان وسماع الغناء قوله في جارية يقال لها جوهر كان معجباً بها لدرجة أن جعل عرش الخلافة بين يديها تستطيع إثباته فيه أو خلعه منه.

قال المهدي(٩):

ألا يا جوهر القلب لقد زدتِ على الجوهرْ
وقد أكملك الله بحسن الدَلِّ والمنظرْ(١٠)
إذا ماصلت يا أحسن خلق الله بالمزهرْ
وغنيت ففاح البيتُ من ريقكِ بالعنبرْ
فلا والله ما المهدي أولى منك بالمنبرْ

---

(٩) ـ البيان والتبيين للجاحظ، طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الجزء الثالث، الصفحة: ١٨٤ .
(١٠) ـ الدَّل: دَلَّ المرأة ودلالها، تدللها على الرجل تريه جرأة عليه في تغنج وتشكل كأنها تخالفه ومابها خلاف.

فإن شئتِ ففي كفك خلع ابن أبي جعفر[١١]

ومن منا لايذكر شعر الرشيد في جواريه الثلاث سحر وضيا، وخنث وفيه يعترف بمناعة سلطان الحب وجبروته على سلطان الحكم، وبتهاوي سلطانه أمام هذا الجبار القوي.

قال الرشيد[١٢]:

ملك الثلاثُ الآنساتِ عناني ... وحَلَلْنَ من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البريةُ كلُّها ... وأطيعهن وهُنَّ في عصياني
ماذاك إلاَّ أن سلطان الهوى ... وبه عززتُ أعز من سلطاني[١٣]

أما المأمون فكان كوالده الرشيد صريع جمال وغواية القيان، ومن جميل مالأثر عنه قوله في قينة له[١٤]:

لها في لحظها لحظاتُ حتفٍ ... تُميتُ بها وتُحي من تُريدُ
فإن غضبت رأيت الناس قتلى ... وإن ضحكت فأرواح تعودُ
وتُسبي العالمين بمقلتيها ... كأن العالمين لها عبيدُ

ومن شعر أبي عيسى بن الرشيد[١٥] قوله:

---

(١١) ـ وهناك من نسب هذه الأبيات إلى مطيع بن إياس مع زيادة عليها وتغيير في بعض منها. فقد ذكر صاحب الأغاني أن المهدي لما أنشد قول مطيع بن إياس ضحك وقال: ويلكم اجمعوا بين هذين قبل أن تخلعنا هذه القحبة..؟. عن الأغاني للأصبهاني، المجلد الثالث عشر، الصفحة: ٣١٤ .

(١٢) ـ العقد الفريد لابن عبد ربه، مصدر سابق، المجلد السابع، الصفحة: ٤٢ .

(١٣) ـ نُسبت هذه الأبيات إلى العباس بن الأحنف وأنه قالها على لسان الرشيد. ديوان العباس، طبع دار صادر بيروت طبعة عام ١٩٧٨، الصفحة: ٣١٢ .

(١٤) ـ العقد الفريد لابن عبد ربه، مصدر سابق، المجلد السابع، الصفحة: ٥٨ .

(١٥) ـ **أبو عيسى**: هو أحمد وقيل محمد بن الرشيد وأمه بربرية يقال لها «عرابة». كان مشهوراً بجمال الوجه، وكان إذا عزم على الركوب جلس له الناس حتى يروه أكثر مما يجلسون للخلفاء. وكان أديباً ظريفاً وشاعراً ماجناً، ومغنياً مُحسناً. قيل أن عَريب المغنية قالت: «ماسمعت قط أحسن غناءً منه ولارأيت أحسن وجهاً». وحدثنا الحسين بن فهم قال: لما قال أبو عيسى بن الرشيد:

دهاني شهر الصوم لاكان من شهر ... ولاصمت شهراً بعده آخر الدهرِ
ولو كان يعديني الإمام بقدره ... على الشهر لاستعديت جهدي على الشهر

ناله عقب ذلك صرع، فكان يصرع إلى أن مات ولم يبلغ شهراً مثله بينما قال ←

أسـهـرنـي ثـم رَقَـدْ ... وما رثى لي من كَـمَـدْ
ظَـبـيٌ إذا زدتُ هـوىً ... وذِلَّـةً تـاه وصـدْ
واعـطـشـي إلـى فـمٍ ... يَمُجُّ خمراً من بَـرَدْ[١٦]

وديوان عبد الله بن المعتز غني بالأشعار والمقطوعات التي قالها في وصف الخمرة ومجالس الشراب وحسن التغزل بالقيان ومداعبتهن.

قال عبد الله بن المعتز[١٧]:

قد سقتني خمراً وريقاً كخمر ... نبتُ عشرٍ في كفِّها بنتُ عشرِ
كمُّلَ الحُسنَ والملاحةَ فيها ... خالقٌ هزَّ غُصنها تحت بدرِ

وارتبط اسم أكثر الشعراء بأسماء بعض الجواري المحددة، فلم يَخْلُ شاعر من قصة حب مع جارية معينة أو اشتُهر شعره وتغزله في قينة بعينها. فارتبط اسم بشار بعبدة، واسم أبي نُواس بعنان، وابراهيم بن المدبر بعريب، ومطيع بن إياس بجوهر، والعباس بن الأحنف بفوز، ومحمود الوراق بسكن، وسعيد بن حُميد بفضل، وغيرهم وغيرهم... وماكان لهذه العلاقات أن يعيقها عائق أو يقف دونها مانع حتى ولو كان الخليفة بعظمة ملكه وجلال منزلته. وماكان ليثني هؤلاء الشعراء عن حبهم وهيامهم وسيرورة تغزلهم بمعشوقاتهم أحد أو يردعهم عن وصف علاقاتهم رادع من قيم أو مُثل متعارف عليها. فهذا بشار[١٨] زعيم

← عبد الله بن المعتز، كان سبب موت أبي عيسى بن الرشيد أنه كان يحب صيد الخنازير فوقع من دابته فلم يسلم دماغه فكان يتخبط في اليوم مرات إلى أن مات سنة ٢٠٩ للهجرة. عن كتاب أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق للصولي تحقيق.ج. هيورث. دن، الصفحة: ٨٨ ومابعدها.

(١٦) ـ أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، من كتاب الأوراق لأبي بكر الصولي عنى بنشره ج ـ هيورث. دن. دار المسيرة بيروت طبعة ثانية لعام ١٩٧٩ الصفحة: ٨٨

(١٧) ـ ديوان عبد الله بن المعتز. تفسير وتدقيق محي الدين الخياط، طبع مطبعة الإقبال بيروت، الصفحة: ١٠٥ .

(١٨) ـ بشار بن برد (توفي سنة ١٦٧للهجرة/ ٧٨٤ ميلادية). هو بشار بن برد العقيلي بالولاء أبو مُعاذ أشهر المولدين على الإطلاق. أصله من صخارستان غربي نهر جيحون ونسبته إلى إمرأة عقيلية قيل أنها أعتقته من الرق. وكان ضريراً أدرك الدولتين الأموية والعباسية، وشعره كثير متفرق من الطبقة الأولى. اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط بأمر من الخليفة المهدي ودفن بالبصرة. فهل كان سبب قتله الزندقة كما أراد قاتلوه أن يُشاع؟... أم أن هجاءه ←

مدرسة المولدين في الشعر وشيخ الخلعاء والمجان، يصف لنا خلوة له مع إحدى الجواري التي لم تتجاوز العشرين ربيعاً، يغازلها ويلاعبها ويقارصها ويهم بها و.... دون أن يلتحف وخليلته بملاءة رقيقة سماوية اللون رداً لعيون الحاسدين والمتطفلين ومما جاء في وصفه(١٩):

حسبي وحسبُ الذي كلفتُ بها ... منيّ ومنها الحديثُ والنظرُ
أو قبلةٌ في خلال ذاك ولا ... بأسَ إذا لم تُحَلَّ لي الأُزرُ
أو عضةٌ في ذراعها ولها ... فوق زراعي من عضها أثرُ
أو لمسُ ماتحت مرطها بيدي ... والبابُ قد حال دونه السُترُ(٢٠)
والساقُ برّاقةٌ خلاخلُها ... أو مصُّ ريق وقد علا البُهُرُ(٢١)
واسترختِ الكفُّ للغزالِ ... وقالت ألّهْ عني والدمع منحدرُ(٢٢)
انهض فما أنتَ كالذي زعموا ... أنت وربي مغازلٌ أشِرُ
أهوى إلى معضدي فرضضهُ ... ذو قوةٍ مايُطاق مُقتدرُ
حتى علائي وأسرتي غيبٌ ... ويلي عليهم لو أنهم حضروا
كيف بأمي إذ رأت شفتي ... وكيف إن شاع منك ذا الخبر

أما الجارية جوهر فلقد كان لها وقع خاص في نفس مطيع بن إياس(٢٣) صريع حبها

← للخليفة ووزيره يعقوب بن داوود هو السبب الفعلي عندما قال:

بني أمية هبوا طال نومكُمُ ... إن الخليفة يعقوب بن داوود
ضاعت خلافتكم ياقوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الزق والعودِ

ديوان بشار شرح محمد الطاهر بن عاشور الجزء الثالث الصفحة: ٩٤ . أم قوله في الخليفة المهدي: (عن خزانة الأدب للبغدادي الجزء الأول الصفحة: ٥٤١)

خليفة يزني بعماته ... يلعب بالدبوق والصولجان
أبدلنا الله به غيره ... ودسّ موسى في حِرِ الخيزران

(١٩) ـ ديوان بشار بن برد شرح محمد الطاهر بن عاشور، الجزء الثالث الصفحة: ١٧٠ ومابعدها.

(٢٠) ـ المِرط: ملحفة تأتزر بها المرأة فوق الإزار عند الخروج ويكون من الخز والكتان.

(٢١) ـ البُهُرُ: تتابع النفس وانقطاعه من الإعياء عقب الرهز.

(٢٢) ـ الغِزال: مصدر غازل أي لاعب المرأة وحدثها حديث المحبة وتوابعها.

(٢٣) ـ مطيع بن إياس: هو مطيع بن إياس الكناني أبو سلمى: شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان ظريفاً مليح النادرة، ماجناً متهتكاً متهماً بالزندقة. ولد ونشأ في الكوفة وأصل أبيه من فلسطين. مدح الوليد بن يزيد ونادمه في العصر الأموي وانقطع في الدولة العباسية إلى جعفر بن المنصور فكان معه إلى أن مات. وكان صديقاً لحماد عجر الشاعر وحماد الراوية. أقام ببغداد زمناً، ولاه المهدي الصدقات بالبصرة وبها توفي عام ١٦٦للهجرة/٧٨٣ ميلادية.

وعشقها حتى أنه لم يعد يرى شبيهاً لها بين البشر.

قال مطيع(٢٤):

خرجنا نمتطي الزهرا ... ونجعل سقفنا الشجرا
ونشربُها معتَّقةً ... تخالُ بكأسها شررا
وجوهر عندنا تحكي ... بدارةُ وجهها القمرا
يزيدك وجهها حسناً ... إذا مازدتَهُ نظرا
وجوهر قد رأيناها ... فلم نر مثلها بشرا

ومن جميل ماأُثر من الشعر رداً على شعر بعض الجواري ماردَّ به سعيد بن حُميد على حبيبة فضل وقد أرسلت له رقعة تبثه فيها شوقها فأجاب.

قال سعيد(٢٥):

يا واصفَ الشوق عندي من شواهده ... قلبٌ يهيمُ وعينٌ دمعها يَكِفُ
والنفسُ شاهدةٌ، بالودِّ عارفةٌ ... وأنفُسُ الناس بالأهواءِ تأتِلفُ
فكن على ثقةٍ مني وبينةٍ ... إني على ثقةٍ من كلِّ ماتصِفُ

حتى أن أبا العتاهية(٢٦) الذي كان في أول أمره منغمساً مع جماعة من المجان حتى أذنيه قبل أن ينتقل من المجون إلى الزهد ومن العبث إلى التنسك والعبادة كان قد صور واحدة

---

(٢٤) ـ كتاب الأغاني للأصبهاني، مصدر سابق، المجلد الثالث عشر، الصفحة: ٣٢٣ .

(٢٥) ـ المصدر السابق، المجلد الثامن عشر، الصفحة: ١٦٤ .

(٢٦) ـ **أبو العتاهية**: هو أبو اسحاق الشهير بأبي العتاهية واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزي (من قبيلة عنزة) بالولاء، كان في أول أمره يتخنث ويحمل زاملة المخنثين، ثم كان يبيع الفخار بالكوفة ثم قال الشعر فبرع فيه وتقدم. شاعر مكثر سريع الخاطر في شعره إبداع، غزير البحر لطيف المعاني سهل الألفاظ كثير الإفتنان، قليل التكلف. وكان ينظم المئة والمئة والخمسين بيتاً في اليوم حتى لم يكن للإحاطة بجميع شعره من سبيل. وكانوا يقولون أن لأبي العتاهية أوزاناً ظريفة قالها مما لم يتقدمه الأوائل فيها ولم تدخل في العروض، وقال ابنه محمد: «لما سُئل أبي هل تعرف العروض؟ فقال أنا أكبر من العروض». يعد من مقدمي المولدين من طبقة بشار وأبي نواس وأمثالهما له شعر كثير في الحكمة والعظة والزهد والمديح، هجر الشعر فترة فبلغ ذلك المهدي العباسي فسجنه ثم أحضره إليه وهدده بالقتل أو بقول الشعر فعاد إلى نظمه فأطلقه. كان أبخل الناس مع يساره وكثرة جمعه للأموال. توفي سنة ٢١١ للهجرة/ ٨٢٦ ميلادية. عن الأغاني المجلد الرابع، الصفحة واحد ومابعدها.

من تلك الليالي التي يحتفل فيها الشعراء والمجان بحبهم ومجونهم، بفسقهم وإثمهم... بين القصف والعزف والرقص والسماع والجواري والقيان، فوصف المجلس والقوم والخمرة والساقي وحال المجتمعين ثم إنتقل إلى وصف القيان الجميلات.

قال أبو العتاهية[٢٧]:

لهفي على الزمن القصير بين الخورنقِ والسديرِ
إذ نحن في غرف الجنان نعوم في بحر السرورِ
في فتيةٍ ملكوا عنان الدهر أمثال الصقورِ
يتعاورون مدامةً صهباء من حَلَب العصير
عذراء ربّاها شعاعُ الشمس في حَرِّ الهجير
ومقرطق يمشي أمام القوم كالرشاء الغرير
بزجاجة تستخرج السرَّ الدفينَ من الضمير
ومخصَّرات زرننا بعد الهُدُوِّ من الخدور[٢٨]
ريَّا روادِفُهُنَّ يلبسن الخواتم في الخصور[٢٩]
غُرِّ الوجوه محجَّبات قاطرات الطرف حورِ
متنعماتٍ في النعيم مضمخاتٍ بالعبيرِ
يرفلنَ في حللِ المحاسِنِ والمجاسدِ والحريرِ[٣٠]

لقد ساهمت هذه المجالس وتلك الليالي، ومانتج عنها من أدب وفن وشعر - كما ذكرنا سابقاً - في إغناء دوحة الأدب العربي بأشعار غاية في الرقة والجودة والعفوية، وأن بعضها كان بمثابة نفثات كانت بنت لحظتها وليدة أحاسيس مرهفة ومشاعر فياضة وعاطفة دافئة صادقة. ومن منا لايذكر مقطوعة مسلم بن الوليد[٣١] التي تُثمِلُ كل من يقرأها بأريج

(٢٧) - أبو العتاهية أشعاره وأخباره: تحقيق الدكتور شكري فيصل طبع دمشق، الصفحة: ٥٤٤ ومابعدها.

(٢٨) - مُخصَّرات: دقيقات الخصور.

(٢٩) - ريَّا: بمعنى ممتلئة.

(٣٠) - المجاسد: جمع مجسد، وهو القميص الذي يلي البدن.

(٣١) - مسلم بن الوليد: هو أبو الوليد الإنصاري بالولاء، شاعر متقدم من العهد العباسي الأول، ولد في الكوفة حوالي سنة ١٤٠ للهجرة ونشأ فيها. نزل بغداد ومدح هارون الرشيد والأمين والمأمون والبرامكة، والفضل بن سهل وزير المأمون وأعلام عصره. ولي البريد بجرجان ←

نشرها المعطار، وتطربه بهسهسة تأودها الراقص.

كتب أبو الفرج يقول[٣٢]:

«.. دخل مسلم بن الوليد على الفضل بن يحيى[٣٣] فأمره بالجلوس معه، والمقام عنده لمنادمته، فأقام عنده وشرب معه. وكانت على رأس الفضل وصيفة تسقيه كأنها لؤلؤة فلمح الفضل مسلماً ينظر إليها. فقال: قد - وحياتي - يا أبا الوليد - أعجبتك، فقل فيها أبياتاً حتى أهبها لك. فقال الوليد:

إن كنت تسقينَ غير الراح فاسقيني ... كأساً ألَذُّ بها من فيك تُشفيني
عيناك راحي وريحاني حديثك لي ... ولون خدَّيك لون الوردِ يكفيني
إذا نهاني عن شربُ الطِلا حرجٌ ... فخمر عينيك يُغنيني ويُجزيني
لولا علاماتُ شيبٍ لو أتت وغطتْ ... لقد صحوتُ ولكن سوف تأتيني
أُرضي الشباب فإن أهلك فعن قدرٍ ... وإن بقيتُ فإن الشيب يُشقيني

← فاستمر بها إلى أن مات. كان مداحا متغزلا وصّافا للخمر. جدد شعره بتعمد البديع مع المحافظة على نسق الشعر القديم بالمعنى والصنعة. فحلى أشعاره بدرر المعاني والصور ووشاها بالطباق والمقابلة والجناس والمشاكلة. رأس مدرسة البديع. والمتصفح لديوان شعره يشعر بفخامة بنائه الشعري وقوة الحبك والموسيقى الضخمة وما ترسله من رنين قوي محكم. وأن مسلما كان يتسلط على كلماته ومعانيه وصوره فلا نُبوٌ ولا قصور وإنما ضبط وإحكام. ويقال أنه لما أنشد الرشيد لاميتة التي فيها يقول:

هل العيش إلا أن أروح مع الصبا ... وأغدو صريع الراح والأعين النُجل

قال له الرشيد: أنت «صريع الغواني» فلصقت به هذه الصفة. توفي بجرجان سنة ٢٠٨ للهجرة/٨٢٣ ميلادية.

(٣٢) - كتاب الأغاني للأصبهاني، مصدر سابق، المجلد التاسع عشر، الصفحة: ٥٩

(٣٣) - الفضل بن يحيى (١٤٧ - ١٩٣ هجرية/ ٧٦٥ - ٨٠٨). هو الفضل بن يحيى بن خالد البرمكي وزير الرشيد العباسي، وأخوه في الرضاع. كان من أجود الناس. استوزره الرشيد مدة قصيرة، ثم ولاه خراسان سنة ١٧٨ للهجرة فحسنت فيها سيرته، وأقام إلى أن فتك الرشيد بالبرامكة (سنة ١٨٧ للهجرة) وكان الفضل عنده ببغداد، فقبض عليه وعلى أبيه يحيى وأخذهما معه إلى الرقة فسجنهما وأجرى عليهما الرزق واستصفى أموالهما وأموال البرامكة كافة. وتوفي الفضل في سجنه بالرقة وقال ابن الأثير: كان الفضل من محاسن الدنيا لم ير في العالم مثله. الأعلام للزركلي المجلد الخامس طبعة دار العلم للملايين لعام ١٩٩٢ الصفحة: ١٥١ وما بعدها.

فقال له: خذها بورك لك فيها، وأمر بتوجيهها مع بعض خدمها إليه.

والأمثلة أكثر من أن تحصى، وأدبنا العربي وبشكل خاص آثار العباسيين الأدبية غنية بالكثير من المقطوعات والقصائد التي يُنسب نظمها أو تلحينها إلى خليفة أو وزير أو أمير أو شاعر أو جارية، أو نظمت بطلب من خليفة أو أمير ممن مواهبهم لاتساعدهم على أن يعبروا عما يجول بخواطرهم، أو أن قرائحهم لاتستجيب لهم في كل المواقف.

وأن ماتسرب من هذه الأشعار وشاع على ألسنة القوم تحكي عن تصرفات لاتنسجم ومراكز هؤلاء النخبة أو مواقفهم الاجتماعية مع الجواري والقيان في مجالس الأنس والشراب وخلوات المتعة والجنس. لكنها تؤكد كل التأكيد وتنسجم كامل الانسجام مع طبيعة الإنسان كإنسان لا كملاك مقدس الصفات طاهر الذيول. كإنسان وليد مجتمع بعينه وابناً لمرحلة من مراحل تطور هذا المجتمع، يجد ويهزل، يُحسن ويسيء، يحب ويكره يتبتل ويمجن، يتعظ ويشذ. مواقف وتصرفات تنسجم مع طبيعة الإنسان التي تحاول أن تتحرر من كل قيد يقيدها، ومع رغباته التي تنزع لأن تتمرد على كل وازع أو رادع يحجمها لأنها رغبات ابن الأرض.

غير أن بعضاً من هذه المقطوعات كان يعبر عن ممارسات منحرفة وربما شاذة تمارس في بعض هذه المجالس والخلوات. ممارسات كانت تعبر عن سلوك القسم الأعظم من أصحاب القصور وفي طليعتهم بعض الخلفاء وما بلغوه من استهتار وتهتك وانحراف وانتهاب للشهوات واستسلام لسلطان الملذات وكيف أن أيديهم الملطخة بدماء المظلومين والثائرين والتي تهب أحياناً المئات والألوف بل عشرات المئات والألوف من الدراهم والدنانير تنتقل بين كأس الخمر وماء الوضوء كما كانت شفاههم التي التهمت أموال الشعب وحقوق الرعية تنتقل بين رشف رضاب الجواري والغلمان وتلاوة الآيات المكرمات في ازدواجية بلغت قمة النفاق الاجتماعي والسياسي للقيم المقفطنة بقفطان الدين فكراً وممارسة.

حمص

١٠ - ١ - ١٩٩٦

ثبت لمصادر ومراجع البحث

١ ـ أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تحقيق الدكتور شكري فيصل، طبع دمشق عام ١٩٦٥

٢ ـ أحكام القرآن، لأبي بكر الجصاص، دار الكتاب العربي، عام ١٣٣٥ هجرية.

٣ ـ أحلى ٢٠ قصيدة حب في الشعر العربي، اعداد وتقديم فاروق شوشه مكتبة مدبولي القاهرة، دار العودة بيروت، طبع عام ١٩٧٣ ميلادية.

٤ ـ أخبار أبي نواس لابن منظور المصري الأفريقي، شرح وضبط محمد عبد الرسول ابراهيم، السفر الأول، طبع عام ١٩٢٤ .

٥ ـ أخبار النساء لابن قيم الجوزية، شرح وتقديم عبد الأمير علي مهنا، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى عام ١٩٩٠ ميلادية.

٦ ـ أخبار النساء في العقد الفريد، جمع وشرح عبد مهنا وسمير جابر، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى، عام ١٩٩٠ ميلادية.

٧ ـ أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق للصولي، تحقيق ج ـ هيورث، دن ـ دار المسيرة ـ بيروت طبعة ثانية عام ١٩٧٩ ميلادية.

٨ ـ اسحاق الموصلي الموسيقار النديم: الدكتور محمود أحمد الحفني سلسلة أعلام العرب الرقم ٣٤ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر الدار المصرية للتأليف والترجمة. عام ١٩٦٤ .

٩ ـ أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، سعيد الأفغاني. دار مكتبة الهاشمية عام ١٩٧٣ ميلادية.

١٠ ـ أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم من كتاب الأوراق للصولي، تحقيق: ج ـ هيورث دن ـ دار المسيرة بيروت طبعة ثانية عام ١٩٧٩ ميلادية.

١١ ـ الإصابة في تمييز الصحابة. ابن حجر العسقلاني، تحقيق وضبط علي محمد البجاوي، طبعة دار الجيل، عام ١٩٩٢ ميلادية.

١٢ ـ الأضداد في اللغة: محمد بن القاسم الأنباري، تصحيح وضبط أحمد الشنقيطي طبع المطبعة الحسينية المصرية، عام ١٣٢٥ هجرية.

١٣ ـ الأعلام: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة العاشرة عام ١٩٩٢ ميلادية.

١٤ ـ الأغاني: أبو الفرج الأصبهاني، مؤسسة جمال للطباعة والنشر بيروت مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

١٥ ـ الإماء الشواعر: أبو الفرج الأصبهاني، تحقيق الدكتور جليل العطية دار النضال بيروت، الطبعة الأولى عام ١٩٨٤ ميلادية.

١٦ ـ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة: أسد حيدر ـ الناشر مكتبة الصدر بطهران، الطبعة الثالثة، عام ١٤١١ هجرية.

١٧ ـ أمالي الزجاج: أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي، تحقيق عبد السلام محمد هارون، المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة الطبعة الأولى عام ١٣٨٢ هجرية.

١٨ ـ أمالي القالي: أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي منشورات المكتب الإسلامي بدون تاريخ.

١٩ ـ أمالي المرتضي: للشريف المرتضي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية. طبعة عام ١٩٥٤ ميلادي.

٢٠ ـ أهل الإسلام: لويس غارديه، ترجمة صلاح الدين برمدا، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق عام ١٩٨١ ميلادي.

٢١ ـ البداية والنهاية: الحافظ اسماعيل بن كثير، مكتبة المعارف بيروت، الطبعة الأولى عام ١٩٦٦ ميلادي.
٢٢ ـ البيان والتبيين: الجاحظ، دار الكتب العلمية بيروت، بدون تاريخ.
٢٣ ـ بين الخلفاء والخلعاء في العصر العباسي. الدكتور صلاح الدين المنجد، بيروت طبع عام ١٩٥٧ ميلادي.
٢٤ ـ تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي مطبعة السعادة بمصر عام ١٩٣١ ميلادي.
٢٥ ـ تاريخ التمدن الإسلامي، جرجي زيدان دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٧
٢٦ ـ تاريخ الطبري تاريخ الأمم والملوك. محمد بن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار التراث بيروت.
٢٧ ـ تحفة العروس ومتعة النفوس، محمد بن أحمد التيجاني، تحقيق جليل العطية دار الريس للكتب والنشر لندن قبرص الطبعة الأولى عام ١٩٩٢ ميلادي.
٢٨ ـ تفسير القرآن العظيم للحافظ اسماعيل بن كثير دار المعرفة بيروت ١٩٦٩ .
٢٩ ـ تاريخ الخلفاء للحافظ جلال الدين السيوطي. دار الفكر بيروت طبعة عام ١٩٨٨ للميلاد.
٣٠ ـ ثم اهتديت، محمد التيجاني السماوي مؤسسة الفجر لندن الطبعة الثانية عام ١٩٨٩ ميلادي.
٣١ ـ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب. أبو منصور عبد الملك بن اسماعيل الثعالبي تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، سلسلة ذخائر العرب ٥٧ دار المعارف بمصر عام ١٩٦٥ ميلادي.
٣٢ ـ الجامع لأحكام القرآن في تفسير سورة الصافات للإمام القرطبي.
٣٣ ـ الجذور التاريخية للشريعة الإسلامية، خليل عبد الكريم، القاهرة، سينا للنشر الطبعة الأولى عام ١٩٩٠
٣٤ ـ جمال المرأة عند العرب، الدكتور صلاح الدين المنجد الطبعة الثانية ١٩٦٩ ميلادي.
٣٥ ـ جمع الجواهر في الملح والنوادر، ابراهيم الحصري القيرواني، تحقيق الدكتورة رحاب خضر عكاري، دار المناهل بيروت الطبعة الأولى عام ١٩٩٣ .
٣٦ ـ الجنس في القرآن: ابراهيم محمود. دا الريس للكتب والنشر الطبعة الأولى عام ١٩٩٤ .
٣٧ ـ الجواري المغنيات: فايد العروسي، دار المعارف بمصر عام ١٩٤٥ .
٣٨ ـ الجواري: الدكتور جبور عبد النور، سلسلة إقرأ العدد رقم ٥٩ لعام ١٩٤٧ .
٣٩ ـ الحركات الاجتماعية في الإسلام الدكتور أميل توما. دار الفارابي عام ١٩٨٠ .
٤٠ ـ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز. ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده. دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة بيروت عام ١٩٦٧ ميلادي.
٤١ ـ الحياة الاجتماعية عند العرب. ظافر القاسمي، دار النفائس بيروت الطبعة الأولى عام ١٩٧٨ ميلادي.
٤٢ ـ دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب. بندلي صليبا الجوزي، جمع وتقديم جلال السيد، ناجي علوش دار الطليعة بيروت الطبعة الأولى عام ١٩٧٧ ميلادي.
٤٣ ـ ديوان ابن المعتز تفسير محي الدين الخياط مطبعة الاقبال بيروت.
٤٤ ـ ديوان أبي نواس، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي مطبعة مصر القاهرة الطبعة الأولى عام ١٩٥٣ .
٤٥ ـ ديوان أبي نواس، شرح محمود واصف، نشر اسكندر أصاف مصر.
٤٦ ـ ديوان أمية بن أبي الصلت، المكتبة الأهلية. طبع عام ١٩٣٤ .
٤٧ ـ ديوان بشار بن برد، شرح محمد الطاهر ابن عاشور الطبعة الأولى مطبعة لجنة التأليف القاهرة عام ١٩٥٠ .
٤٨ ـ ديوان العباس بن الأحنف تقديم كرم البستاني، طبع دار صادر بيروت لعام ١٩٧٨ .
٤٩ ـ ديوان المعاني: أبو هلال العسكري، مكتبة الأندلس بغداد عام ١٣٥٢ هجرية.
٥٠ ـ الذخائر والتحف. القاضي الرشيد بن الزبير، تحقيق الدكتور محمد حميد الله التراث العربي سلسلة تصدرها وزارة الإعلام في الكويت ـ الطبعة ـ الثانية مطبعة حكومة الكويت عام ١٩٨٤

٥١ ـ ذيل الأمالي لأبي علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الجيل لبنان بدون تاريخ.
٥٢ ـ الربا والفائدة في الإسلام، المستشار محمد سعيد العشماوي.
٥٣ ـ رسائل الجاحظ، تحقيق عبد الأمير علي مهنا، دار الحاثة بيروت الطبعة الأولى عام ١٩٨٨ .
٥٤ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار. محمد بن عبد المنعم الحميري. تحقيق الدكتور إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة مطابع دار السراج بيروت الطبعة الثانية عام ١٩٨٠ .
٥٥ ـ الزواج الإسلامي السعيد، محمود مهدي الاستانبولي.
٥٦ ـ الزواج الإسلامي السعيد وآداب اللقاء بين الزوجين أبو حامد الغزالي.
٥٧ ـ الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام دراسة مقارنة، الدكتور عبد السلام ترمانيني، سلسلة عالم المعرفة الكويتية العدد رقم ٨٠ .
٥٨ ـ سنن الدار قطني، تحقيق عبد الله هاشم المدني طبعة عام ١٩٦٦ ميلادي.
٥٩ ـ سنن النسائي بشرح السيوطي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٦٠ ـ سيرة أعلام النبلاء للذهبي، تحقيق مجموعة من العلماء أشرف علي تحقيقه وخرج أحاديثه شعيب الأرناؤوط. طبعة عام ١٤٠٢ هجرية.
٦١ ـ السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق وضبط مصطفى السقا، ابراهيم الأنباري عبد الحفيظ شلبي، منشورات دار الخلود بيروت.
٦٢ ـ شقائق الأترنج في رقائق الغنج، جلال الدين السيوطي، تحقيق عادل العامل دار المعرفة الطبعة الأولى عام ١٩٨٨ .
٦٣ ـ صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل الجعفي، دار الفكر طبعة عام ١٩٨١ ميلادي.
٦٤ ـ صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر بيروت الطبعة الثانية عام ١٩٧٨ ميلادي.
٦٥ ـ الصديقة بنت الصديق، عباس محمود العقاد، سلسلة كتاب الهلال العدد رقم ٦٩ .
٦٦ ـ ضحى الإسلام. الدكتور أحمد أمين، دار الكتاب العربي بيروت الطبعة العاشرة بدون تاريخ.
٦٧ ـ الطبقات الكبرى لابن سعد. دار الفكر بيروت بدون تاريخ.
٦٨ ـ الظرفاء والشحاذون في بغداد وباريس، الدكتور صلاح الدين المنجد، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر بيروت الطبعة الثانية بدون تاريخ.
٦٩ ـ العقد الفريد: أحمد بن عبد ربه الأندلسي، تحقيق محمد سعيد العريان الطبعة الثانية، مطبعة الاستقامة بالقاهرة عام ١٩٥٣ ميلادي.
٧٠ ـ عيون الأخبار ابن قتيبة الدينوري، مصورة الطبعة المصرية.
٧١ ـ الغزل عند العرب ج.ك. فاديه. ترجمة الدكتور ابراهيم الكيلاني منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي دمشق طبعة عام ١٩٧٩ .
٧٢ ـ فجر الإسلام. الدكتور أحمد أمين دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة العاشرة عام ١٩٦٩ ميلادي.
٧٣ ـ فوات الوفيات. محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق الدكتور حسين عباس دار صادر بيروت طبع عام ١٩٧٣ ميلادي.
٧٤ ـ القرآن العظيم.
٧٥ ـ قصة الحضارة في العالم. ويل ديورانت، ترجمة محمد زكي نجيب، محمد بدران محمد علي أبو ريدة، فؤاد أندراوس، القاهرة الطبعة الرابعة عام ١٩٧٣ .
٧٦ ـ الكامل في التاريخ. علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، دار صادر بيروت طبعة ١٩٦٥ ميلادي.
٧٧ ـ الكامل في اللغة والأدب. أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد. مكتبة المعارف بيروت، بدون تاريخ.
٧٨ ـ كتاب البلدان لأحمد بن أبي يعقوب المعروف بتاريخ اليعقوبي.
٧٩ ـ لسان العرب: ابن منظور المصري الأفريقي، دار صادر بيروت عام ١٩٥٥ .
٨٠ ـ مجمع الأمثال أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، تحقيق محمد محي الدين عبد

الحميد منشورات دار النصر دمشق ـ بيروت بدون تاريخ.
٨١ ـ المحاسن والأضداد، المنسوب للجاحظ، تحقيق فوزي العطوي دار صعب بيروت عام ١٩٦٩ ميلادي.
٨٢ ـ المحاضرات والمحاورات للسيوطي.
٨٣ ـ مختار الأغاني جمال الدين بن منظور المصري الأفريقي الطبعة الأولى عام ١٩٦٤ بيروت نشر أبو بكرم زهير شاويش.
٨٤ ـ المرأة في القرآن والسنة محمد عزة دروزة،
٨٥ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر. علي بن الحسين المسعودي، تحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي.
٨٦ ـ المستطرف الجديد: هادي العلوي.
٨٧ ـ المستظرف من أخبار الجواري. جلال الدين السيوطي، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد بيروت ـ الطبعة الثانية عام ١٩٧٦ .
٨٨ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق أحمد محمد شاكر. دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة عام ١٩٥٤ ميلادي.
٨٩ ـ مشروع رؤية جديدة للفكر العربي. الدكتور طيب التيزيني دار دمشق الطبعة الثانية عام ١٩٧١ ميلادي.
٩٠ ـ معجم أعلام الناس للأتليدي.
٩١ ـ معجم الأدباء ياقوت الحموي الرومي. القاهرة طبعة عام ١٩٢٣ ميلادي .
٩٢ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. الدكتور جواد علي دار العلم للملايين بيروت طبعة ١٩٧٦ الطبعة الثانية.
٩٣ ـ مقاتل الطالبيين. أبو الفرج الأصبهاني، تحقيق السيد أحمد صقر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت لبنان الطبعة الثانية عام ١٩٨٧ ميلادي.
٩٤ ـ موسوعة حلب المقارنة الأسدي م خيرالدين إعداد محمد كمال، طبع جامعة حلب، الطبعة الأولى عام ١٩٨٨ ميلادي.
٩٥ ـ موسوعة الشعر العربي، الشعر الجاهلي، اختيار وشرح مطاع الصفدي ـ ايليا حاوي، تحقيق وتصحيح أحمد قدامة، شركة خياط لبنان طبعة عام ١٩٧٤ .
٩٦ ـ الموشى أو الظرف والظرفاء. أبو الطيب الوشاء تحقيق كمال مصطفى، طبع مكتبة الخانجي بمصر الطبعة الثانية عام ١٩٥٣ .
٩٧ ـ النساء العربيات. كرم البستاني دار صادر بيروت عام ١٩٦٤ .
٩٨ ـ النصوص المحرمة. أبو نواس، تحقيق جمال جمعة طبع دار الريس عام ١٩٩٤ .
٩٩ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب. شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري دار الكتب المصرية القاهرة عام ١٩٢٤ ميلادي.
١٠٠ ـ هارون الرشيد: الدكتور أحمد أمين كتاب الهلال العدد رقم ٣ .
١٠١ ـ الورقة: أبو عبد الله محمد بن داود الجراح، تحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار أحمد فراج. ذخائر العرب رقم ٩ دار المعارف بمصر طبع عام ١٩٥٣ ميلادي.
١٠٢ ـ وفيات الأعيان. ابن خلكان، تحقيق احسان عباس دار صادر بيروت عام ١٩٧٨ ميلادي.
١٠٣ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري. مطبعة حجازي بالقاهرة، الطبعة الأولى عام ١٩٤٧ .
١٠٤ ـ اليمين واليسار في الإسلام. أحمد عباس صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت الطبعة الثانية عام ١٩٧٣ .

الفهرس

من اصدارات الدار

ثقافة السريان في القرون الوسطى .... تاليف : نينا بيغوليفسكايا

الحريم السياسي (النبي والنساء) .... تاليف : فاطمة المرنيسي

السلطانات المنسيات(نساء رئيسات دولة) ..... تاليف: فاطمة المرنيسي

عمل الدعاة الاسلاميين في العصر العباسي ... تاليف : خير الله سعيد

لعبة الممكنات (تباين الكائن الحي) .... تاليف : فرانسوا جاكوب

العنف والمقدس .... تاليف : رينيه جيرار

العشق الجنسي والمقدس .... تاليف : فيليب كامبي

مديح الاختلاف .... تاليف : ألبير جاكار

من الوعي الاسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي

النظري (بلاد ما بين النهرين تحديداً) تاليف : عبد الباسط سيدا

العبودية .... تاليف: موريس لانجليه ت: الياس مرقص

من اصدارات الدار في الفن والموسيقا

ما هو الفن .... تاليف : ليف تولستوي

شكسبير والدراما .... تاليف : ليف تولستوي

دراسات في الادب والفن .... تاليف: دوبرولوف وتشيرنيشيفسكي

قضايا الإبداع في قصيدة النثر .... تاليف : يوسف حامد جابر

الفن عند الانسان البدائي .... تاليف : يان إيليك

علم الهارمونية .... تاليف : د. محمد عزيز شاكر

الغيتار .... تاليف : د. محمد عزيز شاكر

علم الكونتربوانت .... تاليف : د. محمد عزيز شاكر

الصولفيج الغنائي .... تاليف: ماكس باتكيه

(إشراف: د. محمد عزيز شاكر)

من اصدارات الدار الحديثة

الله والانسان على امتداد ٤٠٠٠ عام .... تاليف: كارين آرمسترونغ

الوثنية والمسيحية .... تاليف: الكسندر كرافتشوك

مدخل إلى القانون الاميركي .... تاليف: آلان فرانثورث

الموقف من الخمرة .... تاليف: د. سليمان حريتاني

نقد العقلانية العربية .... تاليف: الياس مرقص

النبي محمد نظرة غربية جديدة في فهم الاسلام . تاليف: كارين آرمسترونغ

إعادة إنتاج الهوية .... أحمد حيدر

الاعمال الكاملة : .... تاليف: ياسين الحافظ

١ ـ حول بعض قضايا الثورة العربية

٢ ـ اللاعقلانية في السياسة العربية

٣ ـ التجربة التاريخية الفيتنامية

٤ ـ الهزيمة والايديولوجيا المهزومة

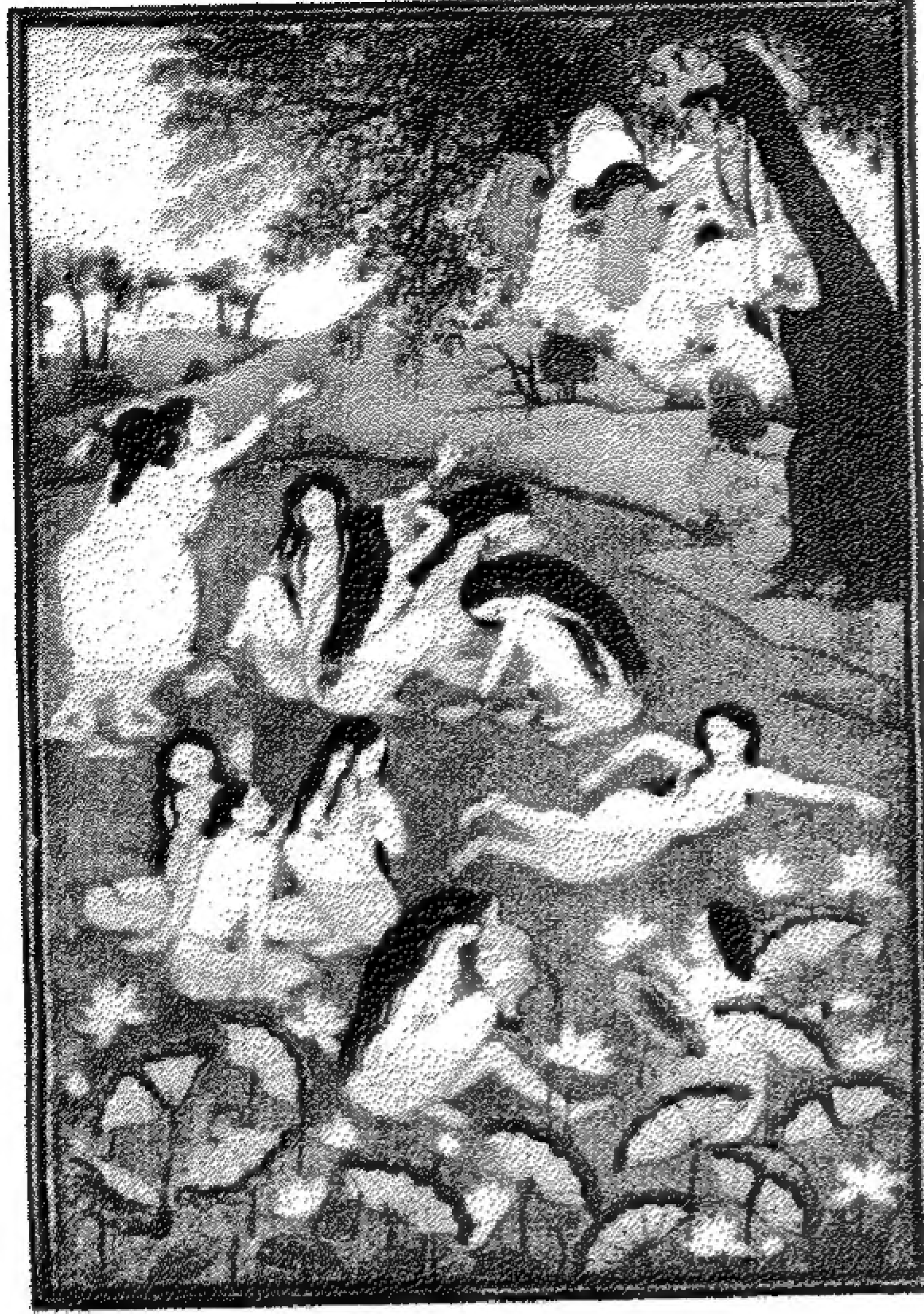
٥ ـ في المسألة القومية الديمقراطية

أخلاق الانجيل (دراسة سوسيولوجية) .... تاليف: البير بايه

سيصدر عن الدار

ولادة إله .... تأليف: جان بواتيرو

هرمس (المثلث العظمة) .... تأليف: لويس مينارد



«والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير» قرآن كريم.

رغم أن الاسلام الذي جاء به النبي محمد شق طريقاً للتخلص من العبودية، فانه لم يمضِ وقت طويل على بناء الدولة الاسلامية حتى أُغرقت بأعداد هائلة من الرقيق وبالأخص الرقيق من النساء وتحول الأمر الى تجارة على رأس القائمة.
وقد ترتّب على ذلك انتشار منازل وأندية للمقينين وأسواق للمتاجرة مما فتح باب المنافسة التي دفعت المُتاجرين الى تأهيل الجواري ثقافياً واجتماعياً وتأمين مستلزمات التبرج والتجمل كي يحظين في القبول عند ذوي الجاه من المتنفذين والأثرياء.

واضافة الى مايقدمه هذا الكتاب من دراسة لهذه الظاهرة وكيف نشأت وتطورت وأسبابها ومالعبته من دور في الحياة الاجتماعية و... اضافة الى ذلك يستعرض نمازج شهيرة من الجواري الشاعرات اللواتي لعبن دوراً في الحياة الاجتماعية والثقافية واغناء دوحة الأدب بما أثارته قرائحهن وجمالهن عند الشعراء من الرجال وذوي الجاه.

الناشر

دار الحصاد ـ سورية ـ دمشق
ص.ب: ٤٤٩٠ ـ هـ/فا: ٢١٢٦٣٢٦